نيتوتشكا نزفانوفنا

ديستوفسكي

من ضمن الاعمال الكاملة

المجلد الثاني

ترجمة د. سامي الدروبي

اعادة تنسيق وفصل

مكتبة الرمحي أحمد

نيتوتشكا نزفانوفنا

١٨٤٩

«نيتوتشكا * نزفانوفا» ، ظهرت في « حوليات الوطن» ، اعدادكانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) وآيار (مايو) سنة ١٨٤٩ ، وقد انقطع نشر هذه الرواية بسفر دوستويفسكي الى سيبيريا .

الفصل الأول

أتذكر أبى • فقد كنت فى الثانية من عمرى حين مات• وتزوجت أمى مرة أخرى• الا أن زواجها الثانى هذا ، رغم انه قام على حب ، قد سبب لها كثيرا من الآلام • كان زوج أمى موسيقيا ، لقى مصيرا غريبا ، وكان بين جميع من عرفت من الناس أغربهم وأشذهم • وكان أثره فى مشاعرى الاولى ابان الطفولة من القوة بحيث ألقى ظله على حياتى كلها بعد ذلك • و لابد لى أن أذكر هنا سيرة حياته لتكون قصتى مفهومة • وكل ما سأرويه عنه انما عرفته بعد ذلك من «ب» ، العازف على الكمان ، الذى كان فى شبابه رفيق عمى (زوج أمى) وصديقه الحميم •

كان عمى يدعى « يافيموف » • وقد ولد فى أرض أحد المالكين الأغنياء جدا • وكان أبوه موسيقيا فقيرا انتهى به المطاف الى هذه الارض ، بعد تغرب طويل ، فانخرط فى جوقة هذا المالك الغنى • وكان المالك يعيش حياة رخية ، وكان مولعا بالموسيقى الى حد الهوى الشديد ، حتى ليُروى عنه أنه ، وهو الذى لم يكن يترك أرضه يوما ، ولو للذهاب الى

موسكو ، قرر ذات يوم ، على حين غرة ، أن يسافر الى مدينة من مدن المياه فى الخارج يقضى بضعة اسابيع ، لا لشىء الا ليسمع عازفا على الكمان شهيرا قالت الجرائد يومذاك انه سيحيى هنالك ثلاث حفلات .

وكان هذا السرى يملك جوقة ممتازة يقف عليها جميع موارده تقريبا * . وقد انخرط عمى فى هذه الجوقة عازفا على الكلارنيت . وكان فى الثانية والعشرين من عمره حين صادق شخصا عجيبا . لقد كان يعيش فى تلك المقاطعة نفسها كونت غنى جدا يدمر ثروته لينفق على مسرح أقامه فى بيته . وقد طرد هذا الكونت رئيس جوقته ، وهو ايطالى ، لسوء سلوكه .

وكان رئيس الجوقة هذا انسانا سيء السلوك حقا ، فما كاد يطرد حتى فقد كل كرامة ، فاخذ يدمن على الشراب بل أخذ يتسول ، ولم يعد فى وسعه أن يجد عملا فى أى مكان بهذه المنطقة . هذا الرجل هو الذى صادفه عمى . ولم يلحظ أحد فى عمى أى تغير يمكن أن يعزى الى تأثير رفيقه فيه ، حتى أن المالك الذى منعه أول الأمر من معاشرة الايطالى انتهى أخيرا الى غض النظر عن ذلك . ثم مات الايطالى بغتة ، ففى ذات صباح اكتشفت بعض الفلاحين جثته فى حفرة أحد السدود . ودل التحقيق الذى تم فى هذا الامر أن الرجل انما مات بالسكتة القلبية . وكان كل ما يملكه الايطالى محفوظا عند عمى الذى لم يلبث أن بين أنه صاحب الحق فى تركته ، اذ أبرز ورقة كتبها الايطالى بخط يده ، يذكر فيها أن « يافيموف » هو وريثه . وكانت التركة بدلة سوداء عُنى المتوفى بالاحتفاظ بها لأنه كان يأمل دائما أن يجد عملا ، وكماناً لا يدل مظهره على أنه ذو قيمة كبيرة . ولم يعترض أحد على هذا الميراث . ولكن بعد مدة قصيرة جاء كبير العازفين على الكمان لدى الكونت ، جاء الى المالك

يحمل كتابا من مولاه يرجوه فيه الكونت بل يلح فى الرجاء ان يبيعه يافيموف الكمان الذى تركه الايطالى ، ويظهر رغبته الشديدة فى الحصول على هذا الكمان لجوقته ، ويقدم ثمنا له ثلاثة الاف روبل ، ويضيف الى هذا انه قد ارسل يستدعى يافيموف غير مرة ، ليعقدالصفقة بينه وبينه شخصيا ، الا آن يافيموف كان يرفض دعواته هذه فى عناد • ويؤكد الكونت فى كتابه ان الثمن الذى يقدمه يساوى قيمة الآلة ، وانه لا ينوى أن يخدع أحدا ، وانه يعتبر رفض يافيموف اهانة له ، وان يافيموف ، أخيرا ، مخطىء فى الشك فيه ، فهو لا يريد أبدا أن يستغل بساطته وجهله • وخلاصة ذلك كله أن الكونت يطلب أن يرد يافيموف الى صوابه •

واستدعى المالك زوج أمى على الفور فقال له :

ـ لماذا لا تريد أن تبيع كمانك ؟ انك لست فى حاجة اليه • ثم ان الكونت يقدم لك ثلاثة آلاف روبل • وهو الثمن الذى يستحقه الكمان • وتخطىء ان ظننت انك تستطيع أن تبيعه بأكثر من ذلك • ان الكونت لا يحاول أن يخدعك أبدا •

فأجاب يافيموف بأنه لن يذهب الى الكونت من تلقاء نفسه ، وانه ان أكره على الذهاب اليه ، فسيذعن لارادة سيده ، لكنه لن يبيع كمانه • على ان سيده يستطيع أن ينتزع منه الآلة ، ان كانت تلك مشيئته !

وواضح ان جوابا من هذا النوع لا بد أن يضرب على وتر حساس فى نفس المالك • لقد كان هذا السرى يزهو دائما بأنه يعرف كيف يعامل موسيقييه ، وكان يعدهم جميعا ، من أولهم الى آخرهم ، فنانين حقيقيين ، وكان يعتقد أن جوقته ، بفضلهم ، لا تفوق جوقة الكونت فحسب ، بل تضارع جوقات العواصم •

فقال له المالك :

ـ حسنا • سأبلغ الكونت أنك لا تريد أن تبيع كمانك • سأبلغه أن هذا هو رأيك ، وأنك تشعر أن لك الحق كله فى أن تبيـــع كمانك أو ألا تبيعها ، أليس كذلك ؟ ولكن قل لى ـ أنا الذى أطرح عليك السؤال الآن ـ ما فائدة احتفاظك بهذه الكمان ؟ ان آلتك هى الكلارنيت وأنت لا تجيد العزف حتى على الكلارنيت • تنازل لى عن هذا الكمان ، فأعطيك ثلاثة آلاف روبل (من ذا الذى كان يظن ان هذه آلة ذات قيمة ؟!)

فابتسم بافيموف ، وأجاب :

ـ كلا يا سيدى ، لن أتنازل عن الكمان ، لكنك تستطيع طبعا أن••

ـ اننى لا أكـرهك على شىء •• أترانى أعذبك لأحملك على ما لا تريد ؟!

قال المالك ذلك فى صراخ غاضب ، خاصةً وأن المشهد كان يجرى على مرأى من « عازف » الكونت الذى يستطيع أن يستنتج من ذلك أن حظ الموسيقيين لدى المالك ليس بالحظ السعيد • وأضاف المالك حانقا :

ـ اذهب ، يا ناكر الجميل ، ولا أحب أن أراك بعد الآن أبدا • ماذا كنت لولاى ، انت وآلتك ، الكلارينت ، التى لا تكاد تعرف العزف عليها ؟ أنت هنا تأكل ، وتشرب ، وتلبس ، وتتقاضى أجرا ، وتعيش كما يعيش الوجهاء من الناس • أنت فنان ، ثم تأبى أن تفهم هذا كله وأن تقدره حق قدره • اذهب • لقد هيجت غضبى •

لقد كان المالك يطرد هكذا جميع من يثور عليهم ، لأنه كان يخشى نفسه ، ويخاف سورات حنقه • وماكان ليحب أبدا أن يقسو فى معاملة « فنانيه » ، كما كان يسمى موسيقييه •

وظنّ أن الأمر قد انتهى ، ما دامت الصفقة لم تتم . ولكن ها هو عازف الكونت ، بعد شهر من ذلك ، يخلق لعمى ، من تلقاء نفسه فى هذه المرة ، لا بوحى من الكونت ، مشكلةً جديدة . وهى الآن مشكلة رهيبة. انه يشى بزوج أمى على أنه قاتل الايطالى ، وعلى أنه أقدم على قتله أملا فى الاستيلاء على ميراث ضخم ، ويؤكد أن الوصية انما كتبت بضغط واكراه ، وانه مستعد للبرهان على ذلك بشهود . وعبثا حاول الكونت والمالك أن يدافعا عن زوج أمى وأن يتوسلا الى متهمه ، بكل الأساليب ، أن يكف عن اتهامه ، فقد أصر على الاتهام اصرارا قويا لم يتزحزح عنه . ثم بيّنا له أن تشريح جثة المتوفى ، رئيس الجوقة ، قد تم وفقا للأصول ، وان وشايته تخالف البداهة ، وانه انما أقدم على ما أقدم عليه حبا فى الانتقام أو بداعى الغضب ، لأنه لم يحصل على الآلة التى كان يريد الحصول عليها (فمن أجله اذن كان يريد الكونت أن يشترى الآلة) . لكن الموسيقى ظل متمسكا برأيه ، وأخذ يقسم أنه على حق ، وأن السكتة القلبية لم يكن سببها السكر بل السم ، وطالب باجراء تحقيق جديد . وكان من الجد فى اتهامه بحيث لم يكن بد من استئناف التحقيق : فقُبض على يافيموف وأودع سجن المدينة . وبدىء تحقيق جديد شغل المنطقة كلها وأثار اهتمامها الشديد ، وانتهى الى الحكم على الكمانى بتهمة الوشاية الكاذبة .. ومع ذلك فانه ظل مصرا على رأيه ، وظل يدافع عن هذا الرأى حتى النهاية . لكنه اضطر أن يعترف بأنه لم يكن يملك من الأدلة غير ما أمدّه به خياله ، وبأنه لفق القصة كلها من شكوكه واستدلالاته . ومع ذلك ، ورغم أن اختتام التحقيق برهن على براءة يافيموف برهانا

قاطعا ، فقد ظل متهمه على يقين من أن يافيموف هو قاتل المسكين ، رئيس الجوقة ، وانه ربما لم يستعمل السم فى قتله ، لكنه قتله بوسيلة من الوسائل ! .. ولم يمكن تنفيذ الحكم الذى أصدر على العازف بالسجن ، فقد أصيب فجأة بنزيف فى الدماغ ، ففقد عقله ، ثم مات فى مستشفى السجن !

وكان المالك ، طوال المدة التى استغرقتها هذه القضية ، يعامل عمى أكرم المعاملة . لقد أتعب نفسه من أجله كأنه ابنه : مضى يراه غير مرة ليواسيه ، وأعطاه مالا ؛ وآتى له بأحسن سيجاره ، منذ علم أن يافيموف يحب التدخين . حتى اذا ظهرت براءة يافيموف أقام مأدبة للجوقة كلها .

لقد كان يعتبر قضية يافيموف قضية الجوقة كلها ، لأنه كان يحترم الأخلاق الحسنة التى يتمتع بها موسيقيوه ، احترامه لمواهبهم ، بل وأكثر من ذلك .

وانقضت على ذلك سنة ، حين شاع فى المنطقة أن عازفا شهيرا على الكمان ، وهو فرنسى ، قد وصل الى مركز المنطقة ، وأنه ينوى اقامة بضع حفلات موسيقية . فلم يلبث المالك أن أخذ يسعى سعيا حثيثا ليدعوه الى بيته . وكان له ما أراد ، فوعده الفرنسى بالمجىء ، وو زّعت الدعوات على جميع سكان المنطقة تقريبا ، وكان كل شىء معدا لاستقبال الفرنسى ، حين وقع فجأة مالم يكن فى الحسبان .

ففى ذات صباح ، عُلم ان يافيموف قد اختفى دون أن يترك أثرا يدل عليه ! .. وأخذوا يبحثون عنه دون أن يظفروا بطائل . لقد أصبحت الجوقة فى وضع حرج ، اذ تعوزها الان كلارينت . ولكن بعد ثلاثة أيام تلقى المالك من الفرنسى رسالة يتحلل فيها من وعده بالمجىء ، ويقول ، بلهجة متعالية وان لم تكن مقنعة، انه سيكون بعد الآن شديدالحذر

فى علاقاته مع أشخاص يملكون جوقة موسيقية ، ويبدى أسفه على أن موهبة عظيمة تعيش تحت رحمة انسان عاجز عن تقديرها حق قدرها ، ويذكر ان متل يافيموف ، وهو الفنان الموهوب وأحسن عازف على الكمان رآه فى روسيا ، اوضح برهان على صدق كلامه .

صعق المالك لدى قراءة هذه الرسالة . انه يطعن فى الصميم . كيف ؟ كيف يمكن أن يفترى عليه يافيموف ، يافيموف نفسه ، هذا الذى عنى بأمره كل تلك العناية ، واسدى اليه كل ذلك المعروف ، فاذا هو يقول فيه هذا الكلام السيىء لفنان أوروبى يحرص هو على حسن رأيه فيه أشد الحرص ؟

ثم ان الرسالة عجيبة من ناحية أخرى . ان الفرنسى يدعى ان يافيموف ، وهو الفنان الموهوب ، انما هو عازف على الكمان لم يعترف له بمواهبه ، وا ثره على العزف على الة اخرى . وبلغ تاثر المالك بهذه الرسالة أنه قرر الذهاب فورا الى المدينة للقاء الفرنسى . لكنه فى تلك اللحظة نفسها تلقى كلمة من الكونت يدعوه فيها الى الذهاب اليه ، دون تأخر ، ويذكر له أنه على علم بالأمر ، وأن الفنان الفرنسى هو الآن فى بيته مع يافيموف ، وانه لاستيائه من وقاحة يافيموف وأكاذيبه ، قد أصدر أوامره بمنعه من الخروج . وأضاف الكونت الى ذلك أن لا بد من مجيء المالك اليه ، وأن الاتهام الذى لفقه يافيموف قد أثر فيه شخصيا ، وان الأمر يبدو له من الخطورة بحيث لا بد من توضيحه بأسرع ما يمكن .

أسرع المالك الى الكونت ، فلقى عنده الفرنسى ، واذ ذاك شرح له المالك قصة يافيموف من أولها الى آخرها ، وأضاف أنه لم يكن ليدور فى خلده ان هذا الرجل يتمتع بموهبة رفيعة لأنه ، خلافا لما يقول الفرنسى ، قد كان عنده عازفا رديئا على الكلارنيت ، وأن هذه هى المرة

الأولى التى يسمع فيها أن الموسيقى الذى هجره عازف على الكمان ، وأضاف الى ذلك أيضا أن يافيموف لم يكن عبدا ، وإنه كان يتمتع بحرية تامة ، وانه كان فى وسعه دائما أن يتركه لو كان يسىء اليه حقا !

صُعق الفرنسى من الدهشة • ونودى على يافيموف الذى تبدلت معالم وجهه حتى ما يكاد يُعرف ، فاتخذ موقف التعالى ، وأخذ يجيب فى سخرية واستهزاء ، ويؤكد صدق ما أسلف للفرنسى • وقد أثار ذلك حفيظة الكونت الى أبعد حد ، فقال بلا لف ولا دوران ان يافيموف حقير ، وانه واشٍ كذاب يستحق أرذل العقاب • فأجابه عمى قائلا :

ـ مهلاً يا صاحب السعادة ، فان لى معك شأنا منذ مدة طويلة ، واننى لأعرفك حق المعرفة ، فبفضلك أوشكت أن يُحكم علىّ بتهمة القتل • انى لأعلم من ذا الذى دفع « الكسيس نيكيفوريتش » ، الموسيقى الذى كان يعمل عندك ، الى الوشاية بى !

وخرج الكونت عن طوره لدى سماعه هذا الاتهام الفظيع ، وكان هنالك ، عرضا ، موظف جاء لبعض الأمور ، فلما سمع هذا الكلام قال انه لا يمكن أن يترك هذا كله دون توضيح ، وان وقاحة يافيموف المهينة تستند الى تهمة باطلة وضيعة ، وانه يرجو أن يسمح له بمحاسبة هذا الشخص على الفور فى البيت نفسه • وأظهر الفرنسى استياء شديدا وقال انه لا يفهم هذا النكران للجميل • فأجاب عمى غاضبا بأنه يفضل أن يحاكم ، وأن عودة أخرى الى القضاء آثر عنده من الحياة التى عاشها حتى ذلك الحين فى جوقة المالك ، وهى حياة لم يستطع أن يتركها قبل الآن لفقره الشديد • وما ان فرغ من كلامه حتى أوقفوه وقادوه الى خارج الصالة ثم سجنوه فى غرفة بعيدة ، على أن يقودوه فى اليوم التالى الى المدينة •

وفى حوالى منتصف الليل ، رأى السجين باب غرفته يفتح ، ورأى المالك يدخل مرتديا ملابس البيت ومحتذيا نعل البيت وممسكا بيده قنديلا. كان واضحا انه لم يستطع أن ينام ، وأن عذابا مبرحا أخرجه من سريره فى مثل هذه الساعة . ولم يكن يافيموف نائما ، فجعل يحدق فيه دهشا . ووضع المالك قنديله ، وجلس الى مقعد أمام يافيموف ، وقد ظهرت عليه علائم التأثر العميق .

ـ « ياجور » ، لماذا أهنتنى هكذا ؟

ولم يجب يافيموف . وكرر المالك سؤاله . وكان كلامه يختلج بعاطفة عميقة ، بغم غريب !

وأخيرا أجاب عمى قائلا ، وهو يقوم بحركة تشير الى العجز :

ـ لا أدرى يا سيدى لماذا تجرأت عليك هكذا . لا شك أن الشيطان هو الذى أضلنى . لا أدرى أنا نفسى ما الذى دفعنى الى هذا كله . على أن حياتى عندك لم تكن بالحياة يا سيدى ، لم تكن بالحياة .. هذا هو السبب فى أن الشيطان تملكنى ودفعنى الى ما دفعنى اليه .

فأجاب المالك :

ـ ياجور ، عد الى ، سأنسى كل شىء ، سأغفر كل شىء ، اسمع : ستكون كبير العازفين على الكمان فى الجوقة ، وسأدفع لك أكثر مما أدفع للآخرين .

ـ كلا يا سيدى ، كلا ، لا تزد على ما قلت ، ليس لى مكان عندك . قلت لك ان الشيطان قد تملكنى . سأوقد فى بيتك نارا ان بقيت فيه . تمر بى لحظات من القلق الخانق أوثر فيها أن لا أكون قد ولدت . والآن لن

أستطيع أن أجيب • الافضل أن تتركنى يا سيدى • لقد ألم بى هذا كله منذ تعلق بى ذلك الشخص الجهنمى !

ـ من هو هذا الشخص ؟

ـ ومن عساه يكون غير ذلك الذى فطس كما يفطس كلب ضائع ، ذلك الايطالى المنحوس •

ـ أهو الذى علمك العزف على الكمان يا عزيزى ياجور ؟

ـ نعم ، وعلمنى أشياء أخرى ، ليزيد شقائى • ليتنى لم أعرفه •

ـ وهل كان قديرا فى العزف الى هذا الحد يا عزيزى ياجور ؟

ـ كلا ، لم يكن يجيد العزف كثيرا ، لكنه كان يحسن التعليم • لقد علمت نفسى بنفسى • أما هو فلم يزد على أن يرشدنى• نعم، لقد كان أفضل لى أن تكون ذراعى يابسة من أن أتعلم هذا الفن • لقد أصبحت الآن لا أعرف ماذا أريد • تستطيع أن تقول لى يا سيدى : « ماذا تريد يا ياجور ؟ يمكن أن أعطيك كل ماتريد » • أما أنا ، يا سيدى ، فلن أجيبك بكلمة ، لأننى لا أعلم أنا نفسى ماذا أريد • كلا ، يا سيدى ، الأفضل أن تتركنى • أقول لك هذا للمرة الثانية • أحب أن أتصرف تصرفا يرسلنى الى أبعد مكان ممكن ، فينتهى كل شىء •

فقال المالك بعد لحظة من صمت :

ـ لن أتركك هكذا يا ياجور * • اذا كنت لاتحب أن تعود الىّ ، فلك ذلك • أنت حر ، ولا أستطيع أن أحجزك ، لكننى لن أتركك الآن قبل أن تعزف لى شيئا ، يا ياجور • خذ كمانك ، أناشدك الله ، واعزف قليلا • افهمنى • اننى لا آمرك أمرا ، ولا أحاول أن أكرهك اكراها ،

وانما أتوسل اليك باكيا • أناشدك الله ، يا عزيزى ياجور ، أن تعزف لى ماعزفته للفرنسى • أطعنى • انك عنيد مثلى • لكل منا طبعه ، ياعزيزى ياجور • لقد فهمت أنا عواطفك ، فحاول أن تفهم أنت عـواطفى • لا أستطيع أن أعيش ما لم أسمعك تعزف مسرورا ما عزفته للفرنسى •

ـ ليكن ما تريد • لقد عاهدت نفسى على ألا أعزف أمامك ياسيدى ، على ألا أعزف أمامك أبدا • ولكنك أثرت فى قلبى الآن ، فسأعزف لك ، وحدك ، وهذه هى المرة الأولى والأخيرة يا سيدى ، ولن تسمعنى بعـد ذلك أبدا ، فى أى مكان ، ولو دفعت من أجل ذلك ألف روبل !

عندئذ أمسك يافيموف بكمانه ، وأخذ يعزف مقطوعة من تأليفه كان قد استمد موضوعها من أغان روسية قديمة (ويؤكد «ب» أن هذه المقطوعة هى أول وأحسن أثر ألفه عمى للكمان ، وانه لم يعزف فى حياته شيئا آخر بمثل هذه القوة) ـ وكان المالك أثناء ذلك ، وهو من أولئـك الذين لا يستطيعون أن يسمعوا موسيقى دون أن يتأثروا ، كان يبكى من فرط الانفعال • فلما انتهى يافيموف من عزف المقطوعة ، نهض المالك من مكانه، وأخرج من جيبه ثلاثمائة روبل ، فمدّ يده بها الى عمى وهو يقول :

ـ الآن تستطيع أن تمضى ، يا ياجور • ســأخرجك من هنـا ، وسأتولى تسوية الأمر مع الكونت • ولكن اسمع جيدا : اياك أن تلقانى يوما ، ولو فى طريق • أمامك مستقبل واسع ، واذا التقينا يوما وجهـا لوجه ، فسيسىء ذلك الينا كلينا • والآن وداعا ! •• بل اسمع : نصيحة أخرى أسديها اليك قبل أن تمضى ، نصيحة واحدة : لا تدمن على الشراب •• وخذ نفسك بالدراسة الدائمة ، والعمل المستمر ، ولا تغتر • أقول لك هذا نصيحة أب لابنه • أعود فأحذرك ! اعمل دائما ، واياك والحانات،

فانك ان ألم بك حزن ، أو أصابتك خيبة (وما أكثر ما ستصاب بخيبات) فأخذت تشرب ، مضيت الى دمارك ، وساءت حالك ، وكنت تعرض نفسك لأن تفطس فى أى مكان ، فى قاع حفرة ، كصاحبك الايطالى • والآن وداعا • بل انتظر • عانقنى •

وتعانق الرجلان • ثم مضى عمى حرا طليقا •

ولم يكد يتحرر حتى سارع الى تبديد روبلاته الثلاثمائة فى مركز المنطقة ، وأخذ يصاحب رواد أقذر الحانات وأحقرها ، وكانت نتيجة ذلك أن اضطر بعد قليل ، وقد أصبح وحيدا بلا مال ولا من يحميه ، أن ينخرط فى جوقة حقيرة لمسرح متجول ، وعين فى هذه الجوقة الكمانى الأول ـ ولعله كان الكمانى الوحيد ! ـ وطبيعى أن هذا لا يتفق مع أهدافه التى كان يرمى اليها فى أول الأمر • لقد كان يريد أن يمضى بأقصى سرعة الى بطرسبرج ، وآن يدرس هنالك ، وأن يجد عملا مناسبا ، وأن يصبح فى تلك المدينة العظيمة فنانا مرموقا • ولم تجر حياته فى المسرح المتجول بلا عقبات • فانه لم يلبث أن تخاصم مع رئيس الفرقة ، وترك المسرح المتجول ، وفقد عندئذ كل شجاعة ، واضطر تحت تأثير اليأس ، أن يكتب الى سيده القديم يذكر له وضعه ويسأله بعض المال ، رغم أن ذلك يجرح كبرياءه جرحا عميقا ، الا انه لم يتلق أى جواب على رسالته تلك ، وكان قد كتبها بلهجة عنيفة • فكتب رسالة أخرى ذليلة ، يعترف فيها بفضل سيده عليه ، ويسميه باسم حامى الفنون ، ويتوسل اليه مرة أخرى أن يهبّ الى نجدته • ووصله الجواب : أرسل اليه المالك أخيرا مائة روبل ، مع بضعة أسطر بخط خادمه ، يحذره فيها من طلب المعونة بعد الآن • وحين تلقى عمى هذا المبلغ اعتزم أن يسافر فورا الى بطرسبرج ، لكنه بعد أن سدد ديونه كان ما بقى له من المال لا يفى بنفقات السفر •

وهكذا ظل فى الأقاليم ، وانخرط مرة أخرى فى جوقة صغيرة • وفى هذه المرة أيضا لم يتفاهم مع أفراد الجوقة • وأخذ ينتقل من عمل الى آخر ، وقد قر فى رأسه أن يمضى الى بطرسبرج بأقصى سرعة ممكنة ، وبأية وسيلة من الوسائل • لكنه قضى على هذا فى الاقاليم ست سنين طوالا • واخيرا استولى عليه اليأس • ولاحظ ، على رعب وهول ، انه كان يفقد موهبته شيئا فشيئا فى هذه الحياة البائسة المشوشة التى لم يكن يلقى فيها الا ذل بعد ذل • وفى ذات صباح ترك عمله ، وحمل كمانه تحت ذراعه، وسافر الى بطرسبرج وهو يكاد يتسول طوال الطريق • وهناك أقام فى شونة ، ولم يلبث أن اتصل بـ « ب » الذى كان قد وصل من ألمانيا وكان يحلم هو الآخر بمستقبل عريض • وسرعان ما قامت بينهما صداقة • وما يزال « ب » حتى الآن يتحدث عن صداقتهما فى ذلك الوقت بتأثر عميق• لقد كان كل منهما شابا ، وكانت تطوف فى رأس كل منهما أحلام واحدة، ويهدف الى عين الغاية التى يهدف اليها الآخر • الا أن « ب » كان لايزال شابا فى زهرة شبابه ، ولم يكن قد عانى حتى ذلك الحين كثيرا من الفقر والذل • وكان ألمانياً فوق كل شىء وقبل كل شىء ، يمضى الى غايتـــه بعناد ومثابرة ، ويعرف قواه تمام المعرفة ، ويكاد يعرف مقدما ماسيصبحه، فى حين أن رفيقه الذى ناهز الثلاثين وبلغ منه الارهاق مبلغه ، كان قد فقد كل جلد ، وكان قد أتلف صحته وقواه خلال تلك الأعوام الســتة التى اضطر أن يكسب فيها قوت يومه بالعمل تارة فى مسرح صـــغير بالعاصمة ، وتارة فى جوقة حقيرة • لقد كانت الفكرة الثابتة التى تسيطـر عليه أيامذاك هى أن يخرج من هذا الوضع الحقير ، أن يدخر قليلا من المال ليلحق ببطرسبرج • الا أن هذه الفكرة الغامضة الغائمة كانت نوعا من نداء داخلى مبهم فقد سناءه على مرّ السنين ، شيئا بعد شىء ، فى نظر يافيموف نفسه ، حتى أصبح وصوله الى بطرسبرج أشبه بوصول انسان

يتحرك بلا ارادة ، أو انسان تحركه رغبة قديمة أصبحت عادة ، وكأنما قد أعشته الرحلة ، فأصبح لا يكاد يعرف ماذا جاء يعمل فى بطرسبرج • كان فى حماسته شىء من الكسل والمرارة ، فهى لا تزيد على أن تجعله يفتر بنفسه ، الى أن يستعيد الثقة بقواه الأولى ، بحمياه القديمة ، بالهامه الماضى الذى لم ينضب •

وكانت حماسته الدائمة هذه تبهر صاحبه البارد الرصين « ب » ، حتى بلغ من شدة اعجابه بعمى أن اعتقد أنه سيصبح فنانا عبقريا ، ولم يستطع أن يتصور مستقبل رفيقه على غير هذا النحو • ومع ذلك فان « ب » لم يلبث أن فتح عينيه ، وأدرك الحقيقة ، ورأى بوضوح أن هذه الحماسة الفائرة المحمومة ليست الا يأسا لا شعوريا من موهبة ضائعة ، موهبة لعلها لم تكن ، حتى فى أول أمرها ، بالموهبة الخارقة • ورأى أن كل هذا لم يكن الا مزيجا من عماوة ، وغرور فارغ ، وزهو فى غير محله ، وخيال طائش ، وأحلام فى عبقرية يخال المرء أنه يحملها فى نفسه • وقد تحدث «ب» قائلا : « ولكننى لم أكن أستطيع أن أمتنع عن العجب لطبيعة رفيقى الغريبة • لقد ظل المسكين ، خلال سبع سنين طوال، يجتر أحلام مجده المقبل دون أن يشعر أنه كان يفقد المبادىء الاولية فى الموسيقى ، بل والتكنيك الذى لا بد منه لمبتدىء • وكان ، مع ذلك ، يرسم للمستقبل فى خياله المضطرب ، أضخم المشاريع الوهمية • كان يريد أن يصبح أحد أوائل العازفين على الكمان فى العالم • وكان يعد نفسه منذ ذلك الحين عبقريا من هذا الطراز ، بل كان ، وهو الذى يجهل أبسط مبادىء الطباق ، يعتقد أنه خلق ليكون مؤلفا موسيقيا • الا ان ما كان يدهشنى أكثر من أى شىء آخر هو أن هذا الرجل ، رغم ضعف المامه بالتكنيك الموسيقى ، كان يملك معرفة بالموسيقى واضحة ، معرفة «غريزية» ان صح التعبير • لقد كان احساسه بالموسيقى من القوة ، وكان فهمه

للموسيقى من العمق بحيث لا بد أن يخدع عن حقيقة قيمته ، وأن يعد نفسه لا ناقدا عميقا نافذ الحدس فحسب، بل أحد جهابذة الفن وعبقريا من عباقرته أيضا • وكان يتفق له ان يقول لى بلغته البسيطة الخشنة ، وهو الذى كان غريبا عن كل ثقافة ، حقائق تبلغ من العمق اننى كنت أقف حيالها مشدوها ، لا أفهم كيف كان فى وسعه أن يدركها ، هو الذى لم يقرأ فى حياته شيئا ، ولا تعلم شيئا • ولااكتم اننى استفدت منه كثيرا ، وانتفعت بنصائحه فيما حققت من تقدم • وكنت مطمئنا الى مصيرى • لقد كنت ، أنا أيضا ، شغوفا بفنى متعلقا به أشد التعلق ، رغم اننى كنت أعرف أن مواهبى ليست بالمواهب الفذة ، واننى سأكون عاملا من عمال الفن ، وكنت راضيا بذلك قانعا به ، ولكننى أستطيع أن أعتز بأننى لم أقبر ماجبتنى به الطبيعة ، بل ضاعفته مائة مرة • ان الناس ليثنون على مرونتى فى العزف وعلى ما حصلته من براعة تكنيكية مدهشة • لكننى أعترف بأننى أدين بهذا العمل المتواصل العنيد الذى أخذت به نفسى ، أدين به لمعرفتى الواضحة بقيمتى الحقيقية ، أدين به لنفورى من كل ما يمت بصلة الى الطمع والزهو ، الى القناعة الهينة والكسل ، الى كل هذه الصفات التى تنتج عن رضى المرء عن نفسه • »•

وقد حاول « ب » أن يسدى النصح ، بدوره ، الى هذا الرفيق الذى طالما أصغى هو الى نصائحه باحترام ، الا أن رفيقه كان يضيق بنصائحه ذرعا ويغضب منها غضبا شديدا • ولم تلبث صداقتهما أن اعتراها الفتور • ولاحظ «ب» أن عمى يزداد استسلامه للخمول والحزن والضجر شيئا بعد شىء ، وأن وثبات حماسته أصبحت أندر من ذى قبل ، وأصبح يعقبها نوع من القلق القاتم المحطم • وأخيرا هجر يافيموف كمانه أسابيع طويلة• ولم يكن السقوط النهائى ببعيد • اذ لم يلبث أن انهارالمسكين انهيارا تاما • وتحقق كل ما تنبأ به المالك !

فها هو ذا يافيموف يدمن على السكر ادمانا لا يردعه عنه شيء • وكان « ب » ينظر الى ذلك وقد امتلأ قلبه رعبا • ولم يبق لنصائحه من أثر البتة ، حتى أصبح يتحاشى أن يوجه اليه أى نقد •

ووصل يافيموف من ذلك شيئا فشيئا الى استهتار لا يعرف الخجل : انه يعيش الآن عالة على « ب » ، ولكن ذلك لا يشعره بشيء من الاسف أو الندامة ، حتى لقد كان يتصرف كما لو كان من حقه أن يعيش عالة عليه !

وكانت أسباب الرزق تنضب شيئا بعد شيء • لقد كان « ب » يعطى بعض الدروس فى الموسيقى ، او كان يقوم بالعزف فى حفلات ساهرة لدى بعض أهل التجارة من الالمان ، أو لدى بعض الموظفين الفقراء ، وكان لا يتقاضى الا أجرا ضئيلا ، الا أنه أجر على كل حال • وكان يافيموف يأبى أن يرى حالة الفقر التى يعانيها رفيقه • وكان يعامله فى كثير من الصلف والكبرياء ، حتى لقد تمضى أسابيع طويلة دون أن يكلف نفسه عناء التحدث الى رفيقه بكلمة واحدة •

وفى ذات يوم قال « ب » لعمى ، فى كثير من الرقة واللطف ، ان من الأفضل له ألا يهمل كمانه كثيرا حتى لا يفقد مرونة أصابعه • لكن يافيموف غضب غضبا شديدا • وكأنما تخيل أن صاحبه سيركع متوسلا اليه أن يعود الى كمانه ، فقال انه هجر كمانه عمدا ، وانه لن يمسه بعد الآن أبدا • وفى مرة أخرى احتاج « ب » الى زميل يعزف فى حفلة ساهرة دعى اليها ، فطلب الى يافيموف أن يصحبه ، الا أن هذا العرض أثار فى يافيموف حنقاً هائلا ، فقال لصاحبه فى احتقار وازدراء انه ليس ممن يعزفون فى الشوارع ، وانه ليس من التفاهة ، كصاحبه «ب»، بحيث يرضى أن يدنس فنه النبيل بالعزف لأناس من أصحاب « الدكاكين » وكان

تعلق أحدهما بالآخر قد بلغ من القوة أن تصرفات يافيموف الغريبة ، وعيوبه الواضحة كانت لا تزيد « ب » الا تعلقا بصديقه . لقد كان « ب » يفهم صديقه ويقرأ ما فى نفسه . كان يوجس النهاية التى سيصير اليها كل هذا .

وقد تعانق الاثنان ساعة الانفصال ، بل وقع كل منهما فى ذراعى الآخر ، وأخذا يبكيان . وفى تلك الساعة صرخ يافيموف قائلا ، من خلال الدموع والشهيق ، انه ليس الا انسانا شقيا ، ليس الا انسانا ضالا ، وانه كان يعرف ذلك منذ مدة طويلة ، ولكنه فى هذه اللحظة انما يدرك أنه على شفا الهاوية ، كمحتضر . وختم كلامه ، وقد امتقع لونه ، بقوله :

ـ اننى لا أملك أية موهبة .

وتأثر « ب » من ذلك تأثرا رهيبا . ثم قال لصديقه :

ـ اسمع يا ياجور بتروفتش . أنت مخطىء . انك بهذا اليأس تدفع بنفسك دائما الى الانهيار . انك لا تملك جلدا ولا شجاعة . تدعى الآن أن ليس لك موهبة . لكن هذا يرجع الى حزنك . ليس صحيحا انك لا تتمتع بموهبة . أنت تتمتع بالموهبة . أؤكد لك أن الموهبة لا تعوزك . هذا واضح من قدرتك على فهم الموسيقى والاحساس بها . وأستطيع أن أبرهن لك على ذلك بالرجوع الى حياتك نفسها . لقد ذكرت لى أنك تألمت فى حياتك كثيرا ، وهذا يدل على انك منذ ذلك الحين ، تحمل فى نفسك هذا اليأس نفسه . فى ذلك الوقت ، أدرك فيك استاذك الاول ، ذلك الانسان الغريب الذى طالما حدثتنى عنه والذى أيقظ فى نفسك حب الموسيقى ، أدرك فيك الموهبة الموسيقية . لكنك لم تكن تعرف أنت نفسك ماذا يجرى فى أعماق نفسك . لم تكن تشعر بالراحة والطمأنينة عند المالك ، وكنت تجهل ماذا تريد . ومات أستاذك قبل الأوان ، وتركك

لامال ومطامع غامضة مبهمة ، ولم يكشفك لنفسك ، وهذا أهم ما فى الامر .. كنت تشعر ان عليك ان تسلك سبيلا أخرى ، سبيلا أرحب . كنت تشعر ان حياة أخرى تنتظرك ، لكنك لم تكن تعرف الطـــريق اليها . ويئست ، فصرت تكره كل ما حولك . ان السنين الست التى قضيتها فى بؤس متلاحق لم تذهب ســـدى ، فقد تعلمت فنك ، وفكرت ، وعرفت قواك ، حتى أصبحت تفهم فنك وقيمتك . يا صديقى لا بد من الصـبر والشجاعة . ان ما خصتك به الطبيعة أعلى كثيرا مما خصتنى به آنا . انك فنان أكثر منى مائة مرة ، ولكننى أسأل الله أن يهب لك جزءا مما وهب لى من صبر . اعمل ، ودع الشراب ، كما نصحك بذلك صـــاحبك المالك الممتاز .. واستأنف من البداية ، استأنف من الالف باء . ما الذى يقعدك؟ الفقر ؟ العوز ؟ ولكن الفقر هو الذى يصنع الفنان . وهو أمر لا بد منه فى البداية . انك الآن انسان مهمل ، لا يحتاج اليك أحد ، ولا يحتاج أحد أن يعرفك .. تلك هى الحياة . وسترى فى المستقبل قساة آخرين حين يُعرف من أنت ، وحـــين تُعرف قيمتـــك . ســـيخنقك الحسد وستخنقك النذالات وحماقات الناس أكثر مما يخنقك الفقر . ان الموهبة فى حاجة الى حب ، انها فى حاجة لأن تُفهم ، وسترى كيف سيعاملونك حين تشارف على تحقيق غايتك . سيدوسونك بالأقدام ، سيحتقرون هذا الذى تكون قد اكتسبته بالعمل الشاق ، بالحرمان والجوع وسهر الليل .. لن يشجعك رفاقك الآتون ، ولن يواسوك . لن يدلوك على مافيك من عناصر الخير والصدق . بالعكس ، سيحصون عليك كل غلطة ، ولن يروا غير عيوبك ، ولن يبينوا لك الا ما أنت فيه مخطىء ، سيفلعون ذلك وفى نفوسهم فرح خبيث . واذا تظاهروا لك بأنهم لايحفلون بأمرك بل يزدرون شأنك كانوا فى الحقيقة يفرحون لكل ما تقع فيه من أخطاء (كأن الانسان معصوم من الخطأ) ! .

ثم انك امرؤ لا تتحمل شيئا ، انت انسان صلف فى غير داع الى صلف • وأنت لذلك معرض فى كل لحظة لأن تجرح كبرياء طبل منفوخ •• ذلك هو سر شقائك ، لانك ستظل وحدك ، وهم العدد الكبير• سيعذبونك بوخزات الابر • لقد بدأت أنا نفسى أشعر بذلك • هيا يا عزيزى ، انهض من كبوتك الآن • ولست أعزل من كل سلاح • انك تستطيع أن تكسب رزقك • لا تحتقر التمارين اليدوية المبتذلة : ليس يضيرك أن يكون عزفك أولَ الأمر كنشر الخشب ثقلا ، فلطالما نشرت أنا الخشب سهرات برمتها فى بيوت أولئك البائعين التافهين • الا انك لا تملك الجلد اللازم ، وانت لهذا مريض •

ثم انك تعوزك البساطة • انك تنتقد ، وتسرف فى التفكير : رأسك وحده هو الذى يعمل • انت جريء فى الكلام ، حتى اذا كان عليك أن تمسك بقوسك ارتعشت خوفاً وهلعاً •

ان كبرياءك قوية ، ثم أنت لا تجرؤ على تحقيق شيء • كن شجاعا وعليك بالصبر ، وخذ نفسك بالتمرين ، واذا أعوزتك القوة حقا ، فعليك يومئذ بالمغامرة : ان فيك حماسة ، وان نفسك لتفيض بالعاطفة ، وربما بلغت هدفك على هذا النحو • وهبك لم تبلغه ، فامض مع ذلك الى أمام • لن تخسر فى ذلك شيئا ، بل سيزداد امتلاكك ناصية فنك • أجل يا صديقى ، ان « المغامرة » أمر عظيم ، بالنسبة الينا معشر الفنانين !

◆◆◆

وقد أصغى يافيموف فى أول الأمر الى صديقه القديم منفعلاً أعمق الانفعال • وحين كان «ب» يتكلم كانت وجنتا يافيموف الشاحبتان تتنعشان وتحمران شيئا فشيئا • والتهبت عيناه ببريق من الجرأة والامل غير معهود فيه •

ولكن سرعان ما انحدرت هذه الجرأة النبيلة مرة أخرى الى

الاستهتار ثم الى الوقاحة ، فلما أنهى «ب» كلامه كان يافيموف قد أخذ يتململ • ومع ذلك فقد شد على يد صاحبه بحرارة ، وشكره • الا انه انتقل فجأة من مشاعر الذل العميق والحزن الشديد الى التعالى والكبرياء والصلف ، فصرخ فى وجه صاحبه بلهجة متحدية ، قائلا : « لا تصدع رأسك بالاهتمام بمصيرى • انى أعرف ما ينبغى لى أن أعمل ، وسترى قريبا عند من سأعمل ! سأحيى فى القريب حفـلات موسيقية رائعـة ، وسأحصل على المجد والمال معا » •• ولم يعترض «ب» على هذا الكلام ، بل اكتفى بأن هز كتفيه • وعندئذ افترق الرفيقان القديمان •• الى حين طبعا ••

فان يافيموف سرعان ما بدد المال الذى تركه له رفيقه ، وعاد عبئا عليه مرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة •• فعاشرة •• الى أن نفد صبر « ب » • حتى اذا عاد يافيموف مرة ، أوعز «ب» أن يقال له ان صاحبه ليس فى البيت • ومنذ تلك اللحظة لم يعد يراه !

◆◆◆

وانقضت على ذلك بضع سنين • وفى ذات يوم ، بينما كان « ب » عائدا من عمله ، اصطدم ـ فى زقاق صغير ، على باب احدى الخمارات المنحطة ـ بسكران رثّ الثياب يناديه باسمه • كان هذا السكران هـو يافيموف ، ولكن وجهه كان قد تغير وشحب حتى لا يكاد يُعرف • واضح اذن انه لم يدع حياته المضطربة الفاسدة ، حتى لقد تركت هذه الحيـاة على وجهه طابعا لا يمحى •

وشعر « ب » بكثير من السعادة لهذا اللقاء ، وهمّ أن يتكلم ، لكن يافيموف لم يدع له فرصة الكلام ، بل جرّه الى داخل الخمارة ، وهناك ، فى حجرة صغيرة مدخنة استطاع « ب » أن ينعم النظر فى يافيموف • لقد

كان صاحبه فى خرق بالية ، وكان حذاؤه ممزقا ، وكان سرواله ملطخا بآثار الشراب ، وكان شعره قد ابيض وقلت غزارته .

ابتدره «ب» قائلا :

ـ كيف أنت ؟ وأين أنت الآن ؟

وظهرت على وجه يافيموف علائم الاضطراب ، وبدا عليه الارتباك . وكانت أجوبته على أسئلة «ب» مفككة متقطعة ، حتى خيل الى «ب» انه أمام انسان مختل . واعترف يافيموف أخيرا انه لا يستطيع الكلام قبل أن يقدَّم له شيء من الشراب ، وان صاحب هذه الحانة أصبح يرفض أن يقدم له الشراب ديناً منذ مدة طويلة .. احمر وجه « يافيموف » وهو يقول هذا الكلام ، رغم محاولته أن يتجلد .. وكان منظر هذا كله يثير الشفقة والحزن والألم ، فاهتزت نفس الصديق الطيب ، وفاضت حنانا ورحمة . لقد كانت مخاوفه اذن فى محلها . وأمر يافيموف بشراب .. فما ان احتساه حتى تغير وجهه !!

وكان من الهوان على نفسه بحيث تفجر الدمع من عينيه عرفانا بالجميل ، وحاول أن يقبّل يد «ب» المحسن اليه . وصعق «ب» حين علم أثناء الغداء أن صاحبه البائس قد تزوج ! .. الا أن دهشته تجاوزت كل الحدود حين قال له « يافيموف » ان امرأته هى السبب فى انهياره ، وانها قتلت موهبته .

فسأله «ب» :

ـ وكيف ذلك ؟!

فأجاب :

ـ انقضت سنتان ، يا عزيزى ، لم ألمس خلالهما كمانى . انها امرأة

من طبقة منحطة ، امرأة عامية تافهة .. قتلها الله ! .. ان كل ما نستطيع أن نعمله معا ـ أنا وهى ـ هو أن نتضارب !

ـ ولكن اذا كانت كذلك ، فلم تزوجتها ؟

ـ كنت أتضور جوعا حين عرفتهـا ، وكانت تملك ألف روبل . وفقدت عقلى ، فتزوجت . وهى التى تهالكت على ، وتمسكت بعنقى .. لم أدفعها الى ذلك . وذهب المال بسرعة يا عزيزى ، أما بقية الموهبـة ، فقد ضاعت هى الاخرى !

لاحظ « ب » أن يافيموف كان فى حاجة لأن ينتحل لنفسه الاعذار .

وأردف يافيموف يقول :

ـ لقد هجرت كل شىء ..

وهنا صرح بأنه فى المدة الأخيرة كاد يصل الى كمال امتلاكه ناصية فنه ، وانه لو شاء لما استطاع « ب » أن يلحق به ، رغم أنه أحد أوائل العازفين على الكمان فى العاصمة !

وفوجىء « ب » بهذا الكلام ، فسأله :

ـ ولماذا هجرت اذن كل شىء ؟ أما كان عليك أن تبحث عن عمل ؟

فأجاب يافيموف ، وهو يحرك يده علامة الاحتقار

ـ عبثا . أين منكم من يفهم الموسيقى ؟ ماذا تعرفون من الموسيقى ؟ لا شىء .. لا شىء البتة .. قصاراكم ان تنفخوا لحنا راقصا فى باليه .. انكم لم تروا ولم تسمعوا عازفا على الكمان مجيدا . فعلام أفسد عليكم راحتكم ؟ ظلوا اذن حيث أنتم ، ما طاب لكم ذلك !

ودعم « يافيموف » كلامه مرة أخرى بحركة من يده ، وترنح على

مقعده ثملا ، ثم دعا « ب » ان يصحبه الى بيته ، وألح فى الدعوة • الا أن « ب » رفض ، واكتفى بأن أخذ عنوانه ، مؤكدا انه سيأتى لزيارته فى الغد • وأخذ يافيموف ـ وقد اكتظت معدته ودارت في رأسه الخمرة ـ ينظر الى رفيقه القديم نظرة ساخرة ، ويحاول أن يلذعه لذعا قويا بأية وسيلة • فلما نهض « ب » يريد الانصراف ، هب « يافيموف » فتناول فراءه الغالى وقدمه اليه ، كما يفعل الخادم مع عظيم من العظماء • وبينما كانا يجتازان القاعة ، توقف يافيموف ليقدم صاحبه للخدم وللجمهور ، قائلا انه أول عازف على الكمان فى العاصمة ، بل العازف الوحيد •• والخلاصة أنه كان فى منتهى الوقاحة •

ومع ذلك ، مضى « ب » يزوره فى صباح الغد ، فى الغرفة الحقيرة الوحيدة التى كنا نسكنها جميعا •• كنت يومئذ فى الرابعة من عمرى ، وكان قد انقضى على زواج « يافيموف » بأمى سنتان • ولقد كانت أمى شقية حقا • كانت قبل أن تتزوج أبى تعمل مربية ، وكانت على جانب من ثقافة ، الا أنها لفقرها تزوجت موظفا عجوزا هو أبى •• ولم تعش معه الا سنة واحدة ، مات أبى بعدها فجأة • وبعد موته وزعت تركته الهزيلة بين وارثيه ، فأصاب أمى قدر زهيد من الدراهم ، وبقيت أمى وحيدة معى •• وكان من الصعب أن تجد من يستخدمها مربية بعد أن أصبحت تحمل على ذراعيها طفلا •

وفى تلك الأثناء ، عرفت يافيموف صدفةً ، فأحبته وافتتنت به ، والحق يقال • ذلك انها امرأة شديدة الحماسة ، حالمة ، فصدقت ما كان يكيله يافيموف لنفسه من الثناء على مواهبـــه ، وما كان يتحـدث به عن مستقبله اللامع •

وساعدها الخيال فانطلقت تداعبها آمال رائعة •• وراق لها أن تكون مرشدا وسندا لرجل عبقرى ، فتزوجته •

ولكن ما ان انقضى على زواجها به شهر واحد ، حتى تبددت جميع أحلامها وجميع امالها ، ليحل محلها الواقع المحزن • ذلك أن يافيموف ـ ولعله تزوجها من أجل روبلاتها الالف ـ تنكر لها منذ نفد المال ! •• وكانما راق له أن يتعلل عن اخفاقه بهذه الحجة ، فطفق يعلن لكل من يلقاه أن زواجه قد قتل مواهبه ، وانه يستحيل ان يعمل فى غرفة خانقة ، ومن حوله أسرة جائعة ، وانه ما من الهام موسيقى يمكن أن تواتيه فى جو كهذا الجو ••• وأخيرا ، أن القدر قد تآمر عليه منذ طفولته وان ذلك كله واضح وضوح النهار •• ولعله انتهى ـ هو نفسه ـ الى تصديق شكاواه ، فلقد كانت هذه الحجة الجديدة تغريه أيما اغراء •

ان هذه الموهبة الشقية ، هذه الموهبة المتعطلة ، كانت تبحث ـ على غير شعور ـ عن علة خارجية تلقى عليها تبعة كل ما تلقاه من اخفاق ، وكل ما تعانيه من بؤس ••

ولم يكن يافيموف قادرا على أن ينظر الى الحقيقة الرهيبة وجها لوجه ، فيعرف انه فيما يتصل بفنه قد انتهى الى الأبد ، ومنذ مدة طويلة •• كان يكابر ويتمزق تمزق المريض حاصرته أحلام الحمى •• كان فى حرب مستمرة على الحقيقة المخيفة • فاذا اتفق له أن تفتحت عيناه لحظة من الزمن ، فاستشف هذه الحقيقة ، كان يذعر حتى ليشعر انه على شفا الجنون •• كان يستحيل عليه أن يتنازل عن أحلامه التى كانت حياته نفسها خلال مدة طويلة ، فظل يعتقد ـ حتى لفظ أنفاسه الاخيرة ـ ان ساعته لم تحن بعد ، وان مجده آت لا ريب فيه •

وكان فى الساعات التى يتضعضع فيها ايمانه هذا، يندفع الى الشراب، فاذا ضباب السكر يطرد همومه وينفى قلقه • ولعله لم يكن يدرى الى أى حد كانت حاجته الى امرأته شديدة • لقد كان وجودها حجة يتعلل

بها عن اخفاقه، حتى لقد رسخ فى عقله أخيرا أن حياته لن تستأنف مجراها السليم الا بعد أن يقبر هذه المرأة التى ضيعته !

ولم تكن أمى تفهمه .. فهى امرأة حالمة ، حتى انها لم تستطع أن تتحمل الصدمة الاولى حين تبدت لها الحقيقة المرة . وقد أصبحت سريعة الاهتياج ، كئيبة المزاج ، كثيرة التأنيب والتقريع ، فكانت المشاجرات بينهما لا تنقطع ، وكان هو يجد لذة فى تعذيبها ، وكانت لا تنى تحثه على البحث عن عمل . الا أن عماوة عمى ، وطبعه الشاذ ، وما رسخ فى عقله من ان امرأته هى السبب فى ضياعه .. كل ذلك جعل منه انسانا لا يعرف الرحمة الانسانية ، فلا سبيل للعاطفة الى قلبه . فكان لا ينقطع عن الضحك عليها ، وكان يقسم بصراحة قاسية انه لن يمس كمانه مادامت امرأته على قيد الحياة. ولم تطق أمى هذه الحياة ، رغم انها كانت تحب زوجها حبا عنيفا ، ورغم أنها ظلت تحبه الى آخر لحظة من حياتها ، فاعتلت صحتها ، وأصبحت لا تفارقها الاوجاع ، ولا يفارقها الذعر والفزع . الا أن ذلك كله لم يعفها من تبعة اطعام الاسرة ، وحاولت أن تستضيف سكانا يطعمون عندها بأجر ، الا أن زوجها كان يسرق دراهمها خلسة ، وكثيرا ما اتفق لها ان وضعت الصحون فارغة أمام هذين الشخصين اللذين تناضل من أجلهما .

وحين أتى « ب » لرؤيتنا ، كانت أمى منهمكة فى غسل الثياب وترقيع الملابس العتيقة .. تلك هى الحياة الشقية التى كنا نعيشها فى ظلمات غرفتنا الحقيرة .

وتأثر « ب » لرؤية شقائنا . فما كان منه الا أن قال لعمى :

ـ اسمع . انك لا تقول الا هراء وسخفا .. فلا تعد على مسامعى قصة موهبتك الميتة .. ما عملك هنا ما دامت هى التى تطعمك ؟

فأجاب عمى :

ـ لا شىء !

الا أن « ب » لم يكن يتصور ، بعد ، كل ما تعانيه أمى .. فكثيرا ما كان أبى يعود الى البيت فى صحبة أناس حقيرين ممن لا عمل لهم الا التسكع فى الازقة .. ويالهول ما كان يجرى فى البيت عندئذ !

وأخذ « ب » يعظ رفيقه القديم طويلا . وصرح له ـ أخيرا ـ بأنه ان لم يرعو عن غيه ويسلك سلوكا شريفا ، فلن يمد له يد المعونة ، وقال له ـ بلا لف ولا دوران ـ انه لن يعطيه شيئا من المال ، ما دام سيبدده فى الشراب . ثم طلب اليه أن يمسك بكمانه فيسمعه عزفه ليحكم على قدرته . ومضى عمى لاحضار كمانه ، فانتهز « ب » هذه الفرصة ، ومدّ الى أمى خلسة بعض المال ، الا أن أمى لم تشأ أن تقبله ، فتلك هى المرة الأولى التى تتلقى فيها صدقة ! .. عندئذ مد « ب » المال الىّ أنا ، فأخذته ، وانفجرت أمى المسكينة باكية .. وأتى عمى بكمانه ، الا انه طلب أن يقدّم اليه قليل من الخمر ، قائلا انه لا يستطيع أن يعزف بدون ذلك .

وجيء له بالخمر فشرب ، وسرعان ما انطلقت أساريره وانتعش . ثم قال متجها الى « ب » وهو يخرج من الدرج دفترا كبيرا غطاه الغبار :

ـ باسم الصداقة ، سأعزف لك شيئا من تأليفى .

ثم قال وهو يشير الى الدفتر :

ـ هل ترى ؟ .. هذا كله من تأليفى ! .. ولكنه من عجينة أخرى غير ألحان « الباليه » التى تعزفونها .

وأخذ « ب » الدفتر ، وقلب بعض صفحاته صامتا . ثم أخرج من جيبه دفترا موسيقيا ، وطلب الى عمى أن يدع الآن مؤلفاته ، وأن يعزف له قطعة عيّنها له من دفتره هو .

وانزعج عمى من ذلك قليلا . الا انه لخوفه من أن يضيع هذا

الحامى الجديد ، نفذ ما طلب اليه • وأدرك « ب » عندئذ أن رفيقه القديم الذى يتباهى بأنه لم يلمس كمانه منذ زواجه ، كان ـ فى الواقع ـ قد تمرن كثيرا أثناء ذلك ، فتحسن عزفه تحسنا واضحا خلال فترة انفصالهما !

ليتكم ترون الفرح الذى فاض فى وجه أمى المسكينة فى تلك اللحظة !•• لقد أخذت تتأمل زوجها فى كثير من التباهى والاعتزاز •• وسر الصديق الطيب « ب » سرورا صادقا هو الآخر ، ووعد أن يجد لعمى عملا • وكانت له ـ فى ذلك الحين ـ علاقات بذوى الشأن ، فما لبث أن أعمل هذه العلاقات ، فأوصى بعمى خيرا ، بعد أن استقطعه عهدا على نفسه أن يصلح سيرته ويقوم سلوكه • واشترى « ب » لعمى ثيابا لائقة ، وقدمه لأشخاص من أصحاب النفوذ يتوقف عليهم ايجاد العمل الذى كان يريد أن يحصل له عليه • والحق أن « يافيموف » لم يكن يتصلف ويتكبر الا بالكلام ، أما فى أعماق نفسه ، فقد ملأه فرحا هذا العرضُ الذى تقدم به اليه صديقه القديم •

وقد روى « ب » ـ فيما بعد ـ كيف كان يشعر بخجل شديد حين كان عمى يطفق يتملقه ويتزلف اليه ويتذلل له ويغمره بسيل من عبارات التعظيم والاجلال ، خوفا على نعمه أن يقطعها عنه • والحق أن « يافيموف » فهم أنهم يريدون أن يردوه الى الطريق السوى ، ففرح لذلك حتى انقطع عن الشراب •• وأخيرا وجدوا له عملا فى جوقة أحد المسارح ، واجتاز المسابقة بنجاح باهر لأنه استطاع خلال شهر من الدأب والعمل ، أن يسترد كل ما كان فقده خلال ثمانية عشر شهرا من القعود عن العمل • وقطع على نفسه عهدا أن لا يكف عن العمل بعد ذلك ، وأن يقوم بواجباته الجديدة على نحو دقيق منظم • الا أن حالة أسرتنا لم

تتحسن • فان عمى لم يعط أمى من رواتبه قرشا واحدا ، بل كان ينفقها كلها على موائد يدعو اليها أصحابه الكثيرين ، الذين لم يلبث عددهم أن أصبح كبيرا جدا •

ولكنه كان يتجنب الاشخاص الذين يتمتعون بموهبة حقيقية ، ويجالس خاصة موظفى المسرح وأفراد « الكورس » وغيرهم ممن يستطيع أن يسيطر عليهم •

واستطاع أن يوحى اليهم باحترام خاص لشخصه ، اذ بين لهم — منذ البداية — ان الناس لا يفهمونه وانه يتمتع بمواهب فذة ، وان امرأته هى السبب فى ضياعه ، وان رئيس جوقتهم — أخيرا — لا يفهم فى شئون الموسيقى شيئا البتة ! •• وكان يسخر من جميع فنانى الجوقة ، ومن اختيار المسرحيات التى تمثل ، ومن مؤلفيها • وأخيرا ، أخذ يشرح نظرية جديدة فى الموسيقى • ثم تشاجر مع زملائه ومع رئيس الجوقة ، وكان فظا مع رؤسائه ، حتى اشتهر بين الجميع بأنه انسان مختل ، مزعج ، لا يصلح لشىء •• هكذا عرف يافيموف كيف يتصرف على النحو الذى يتعب جميع الناس ، فما يطيقون بعد ذلك احتماله !

والحق أن ثمة ما يثير الاستغراب فى هذه الادعاءات المتطرفة ، تصدر عن موسيقى فى مثل اهماله ، وعن عازف فى مثل عجزه ، لاسيما حين كان يمدح نفسه بمثل هذا الافتخار ، وبمثل تلك اللهجة الجازمة القاطعة •• ولم يستثن من اتهاماته صديقه «ب» ، بل أخذ يشيع عنه تهما حقيرة ووشايات وضيعة ، يبتكرها ثم يذيعها على انها حقائق لا تقبل الشك • وانتهى ذلك كله الى أن تعكر الجو بين عمى وبين «ب» • ولم تنقض ستة أشهر على عمله فى الجوقة على هذا النحو الفوضوى المستهتر ، حتى اضطروا الى اخراجه • الا انه لم يدع أروقة المسرح بهذه السهولة

وسرعان ما أصبح يُرى من جديد ، بخرقه البالية القديمة ، بعد أن باع أو رهن ملابسه المناسبة ، وطفق يتردد على زملائه القدماء ، لا يعنيه آن يعرف هل يسرهم أو يزعجهم أن يستقبلوا زائرا مثله • فكان ينقل اليهم الأقاويل ، ويروج عندهم الحكايات السخيفة ، ويشكو اليهم حياته يوما بعد يوم ، ويدعو كلا منهم الى زيارته في بيته للاعجاب بزوجته المجنونة •

وطبيعي أنه كان يجد دائما بينهم من يسره أن يقدّم لزميل له مطرود قدحا من الشراب ليسمعه يلفق أسوأ الأقاويل • ثم ان حديث يافيموف كان بارعا يفيض ملاحظات مرةً لاذعة تفتن هذا النوع من المستمعين • وكانوا يعاملونه كمهرج شبه مجنون ، يحضونه على الثرثرة تزجية للوقت وملئا للفراغ • وكان يحلو لهم أن يستثيروا غضبه ، بالتحدث أمامه عن عازف جديد وصل الى العاصمة • فسرعان ما كان يتغير وجهه ، ويشرد لبه ، ويعضه الحسد ، ويسأل عن هذا العازف الجديد من هو وما هي مواهبه • وأعتقد أن ذلك الوقت كان بداية جنونه الحقيقي ، بداية الفكرة الثابتة التي حاصرت عقله واستبدت به ، أعني ايمانه بأنه أول عازف على الكمان ، في بطرسبرج على الاقل ، وأن الحظ هو الذي خانه، وأنه مضطهد مهان، وأنه ضحية أنواع شتى من المؤامرات وان الناس لا يفهمونه ، وانه لذلك مجهول • وكانت هذه الفكرة الاخيرة تروق له وتتملق غروره ، فهناك أناس يحبون أن يعتقدوا أنهم مضطهدون مهانون ، حتى يستطيعوا أن يتفجعوا جهارا ، وأن يتأسوا في سرهم بعبادة عبقريتهم المجهولة • وكان « يافيموف » يعرف جميع العازفين من أولهم الى آخرهم ، ويزعم أنه ما من أحد منهم يستطيع أن يضارعه • وكان الهواة الذين يعرفون لوثته يحبون أن يثنوا أمامه على عازف من العازفين ليحضوه على ابداء رأيه •

وكانوا يستعذبون ضغينته ، ويستلطفون ملاحظاته المحكمة وكلماته

اللاذعة الفكهة التى كان يطلقها فى التهكم على عزف خصمه الخيالى ! • وكانوا كثيرا ما لا يفهمونه ، الا انهم كانوا يعتقدون أنه ما من أحد فى العالم يستطيع أن يصف مشاهير الموسيقيين فى تلك الآونة وصفا « كاريكاتوريا » فى مثل براعته وفكاهته ، حتى ان الفنانين الذين كان يسلط عليهم لسانه المر كانوا يخشونه بعض الشىء ، لأنهم يعرفون السم الذى يقطر من أحاديثه ، ويشعرون بما فى ملاحظاته من أحكام صائبة ! •• واعتاد الناس أن يروه فى أروقة المسرح وكواليسه •• وكان المستخدمون يدعونه يدخل دون اعتراض ، كشخص لا غنى عنه • لقد أصبح « ترسيت » * هذا المكان •

ودامت هذه الحياة سنتين أو ثلاث سنين ، الى أن سئمه جميع الناس ، حتى فى هذا الدور الأخير ، وعندئذ طرد طرداً نهائيا • واختفى عمى بعد ذاك سنتين كاملتين اختفاء تاما ، لا يعلم أحد ممن يعرفونه الى أين مضى • الا ان «ب» صادفه مرتين على حال من البؤس والشقاء استدرت شفقته ، فتغلبت الرحمة فى قلبه على الاشمئزاز ، فناداه مرة ، الا أن عمى ارتبك ، وتظاهر بأنه لم يسمعه وشد قبعته المشوهة الرثة على رأسه حتى غطت عينيه ، وتابع سيره • وفى صباح أحد الاعياد جاء خادم « ب » يقول له ان صديقه القديم على الباب أتى يقدم اليه تهانيه بالعيد وتمنياته• فخرج «ب» للقائه • كان يافيموف فى حالة سكر شديد ، فلما رأى «ب» خرّ راكعا حتى كاد يلامس الارض اظهارا لذله ، وتمتم بضع كلمات ، وأبى أن يدخل • وكان لسان حاله طبعا يقول : ليس من حقنا نحن أهل الشقاء أن نعاشر عظماء فى مثل منزلتكم •و كل مايسمح لنا به ، نحن صغار الناس ، ان نفعل ما يفعله الخدم : تتملق واقفين على

عتبة الباب ، وتخر راكعين ثم تنصرف • ذلك كان سلوكه المزرى • ولم يره «ب» منذ ذلك الحين الا بعد مدة طويلة ، أى يوم وقعت الواقعة التى اختتمت بها هذه الحياة الشقية المريضة الفاسدة • لقد كانت فاجعة فظيعة• انها لا ترتبط ارتباطا وثيقا بمشاعر طفولتى فحسب ، بل بحياتى كلها ، وسأروى لكم الآن كيف وقعت • ولـكن لا بد لى ، قبل كل شىء ، أن أذكر ماذا كانت طفولتى ، وماذا كان بالنسبة الىّ ذلك الرجل الذى خلّف فى عواطفى الاولى أثرا مؤلما الى هذا الحد ، ذلك الرجل الذى سبب موت أمى المسكينة •

الفصل الثاني

تبدأ ذكرياتى الا متأخرة جدا ، فى نحو التاسعة من عمرى • لاأدرى كيف يمكن ذلك • الا أن كل ما انقضى قبل هذا العهد لم يدع فى نفسى أى أثر يمكن أن أذكره الآن • ولكننى فى مقابل ذلك أستطيع أن أرى بوضوح تام كل ما وقع بعد الثامنة والنصف من من عمرى ، يوما بيوم ، دون أى انقطاع ، كأنه وقع بالامس • صحيح اننى أستطيع أن أتذكر بعض الحوادث التى سبقت هذه المرحلة ، الا أن ذكرياتى عن هذه الحوادث أشبه بأحلام مريض : ما زلت أرى ـ مثلا ـ سراجا صغيرا يعس فى ركن مظلم الى جانب أيقونة قديمة • وما زلت أعلم أننى كنت ذات يوم فى الشارع ، فداسنى حصان ، وقيل لى اننى بقيت بعد ذلك طريحة الفراش طوال أشهر ثلاثة • وما زلت أذكر أيضا أننى أثناء ذلك المرض استيقظت ذات مرة مذعورة (وكنت أنام مع أمى على فراش واحد) وان أوهامى والسكون وقرقعة فأر فى ركن الغرفة أرعبتنى أشد الرعب ، فقضيت بقية الليل أرتعد منكمشة على نفسى تحت الغطاء ،

دون ان اجرؤ على ايقاظ امي (وهـــذا ما يجعلني افترض انني كنت اخشاها اكثر مما اخشى سائر المخاوف مجتمعة !) •• الا انني منذ اللحظة التي شعرت فيها بذاتي ، أصبح نموي سريعا وعجيبا ، حتى أنني أحسست بكثير من المشاعر التي ليست من الطفوله في شيء • لقد اضاء كل شيء امام نظري ، وسرعان ما اصبح كل شيء مفهوما • ان اللحظة التي بدات فيها ذكرياتي الحقيقية قد تركت في نفسي اثرا حادا من الالم ، وكان هـــذا الاثر يزداد يوما بعد يوم ، حتى اضفى على جميع حياتي التي قضيتهـا بين عمي وأمي ، أعنى على طفولتي كلها ، لونا قاتما غريبا !

يخيل الي الان انني كانما استيقظت فجاة من نوم ثقيل ، استيقظت في غرفة كبيرة منخفضه السقف ، قذرة ، تفوح منها روائح الاختناق ، جدرانها ملطخة بلون رمادي قذر ، وفي احـدى زواياها تنتصب مدفاة روسية قديمة • والنوافذ تطـل على الشـارع ، او فل على سـطح البيت المقابل ، وهي جميعها آشبه بشقوق ، لشدة ضيقها وامتدادها عرضا ، وحوافيها تبلغ من البعد عن أرض الغرفة أنني احتجت ، فيما أذكر ، الى أن أضع كرسيا والى أن أضع فوق الكرسي مقعدا حتى أستطيع أن أصل الى هذا المكان الذي كنت أحب أن أجلس فيه حين لا يكون في البيت أحد • لقد كان المنظر يمتد من هذه النوافذ على نصف المدينة • لقـد كنا نعيش تحت السقف من عمارة كبيرة تتألف من ستة طوابق ، وكان أثاث بيتنا كله لا يزيد على « ديوان » من قماش مشمع أصبح مزقا مغبرة باهتة ، وعلى طاولة كبيرة من خشب أبيض وكرسيين ، وعلى سرير أمي ، وخزانة صغيرة ، وأخرى متداعية أسندت الى زاوية من زوايا الغرفة ، وحاجز من ورق تمزق •

انني أتذكر ذلك المساء ، عند الشفق • كان كل شيء قد تبعثر على

أرض الغرفة : المقشة ، خرق المسح ، أوانينا التى من خشب ، زجاجة مكسورة ، وأشياء أخرى أيضا .. وأمى تبكى مرتعدة من شدة الهيجان، وعمى جالس فى أحد أركان الغرفة ، يرتدى ردنجوته السرمدى . وكان عمى يرد على كلام أمى هازئا ساخرا ، وكان ذلك يزيد غضب أمى .

وفجأة تعود المقشة والأوانى الى رقصها العنيف . وأخذت أصرخ غارقة فى الدموع ، واندفعت الى أمام أحاول أن أباعد بينهما . كنت فى حالة ذعر هائل . وأحطت عمى بذراعى أريد أن أغطيه بجسمى لأحميه. كنت أعتقد ، لا أدرى لماذا ، ان أمى هى المخطئة فى غضبها عليه ، وانه ليس بمذنب . ووددت لو أتشفع له ، وأن أحتمل عنه كل قصاص .

كنت أخاف أمى خوفا شديدا ، فكان يتراءى لى انه ما من أحد الا ويخشاها كما أخشاها أنا .

وشدهت أمى فى أول الأمر ، ثم أمسكت بيدى وجرتنى الى ماوراء الحاجز . واصطدمت يدى بالسرير فآلمتنى ألماً شديداً ، الا أن الخوف كان أشد من الألم ، فلم أحرك ساكنا ، ولا ظهرت على وجهى علامة من علامات الألم .

وما زلت أذكر أن أمى خاطبت أبى بعد ذلك بلهجة عنيفة وهى تشير الىّ باصبعها (سأسميه بعد الآن أبى فى قصتى هذه ، لأننى لم أعلم أنه ليس أبى الا بعد مدة طويلة) . ودام هذا المشهد ساعتين طويلتين كنت أحاول عبثا خلالهما ، وأنا أرتجف من القلق ، أن أحرز كيف سينتهى الأمر .

وأخيراً هدأت المشاجرة ، وانصرفت أمى . وعندئذ نادانى أبى

فقبلنى ، وداعب رأسى ، وحملنى الى ركبتيه بينما كنت أشد جسمى اليه برفق وحب .

كانت تلك فيما أعتقد أول ملاطفة أبوية . ولعلها هى السبب فى أن ذكرياتى اصبحت منذ تلك اللحظة واضحه هـذا الوضـوح . ولاحظت بجلاء تام اننى اكتسبت عطف أبى بالتحزب له . ولعل هـذه هى المرة الاولى التى قام فيها فى ذهنى أن امى كانت تجعل حياة أبى قاسية شاقة . ومنذ استقرت هذه الفكرة فى نفسى اصبحت تعذبنى وتزيدنى عذابا يوما بعد يوم .

وشعرت نحو أبى ، منذ تلك اللحظة ، بحب ليس له حدود ، حب غريب ليس من الطفولة فى شىء . حتى لأستطيع أن أقول ان هذه العاطفة تشتمل على شىء مما تشعر به الام نحو ابنها من حب وقلق ، ان لم يكن مضحكا أن توصف عاطفة طفل بمثل هذا . كان يتراءى لى أن أبى حقيق بالرثاء ، معذب ، مضطهد ، وأن من الظـلم أن لا أحبه حبـا قويا ، وأن لا أواسيه ، وأن لا أظهر له أية عاطفة ، وأن لا أهب له نفسى مخلصـة صادقة . ومع ذلك فاننى لا أعرف الآن لِمَ كانت الفكرة التى استقرت فى ذهنى يومئذ هى أن أبى أشقى الناس وأكثرهم عذابا . ما الذى ألهمنى هذه الفكرة ؟ كيف استطعت ، أنا الصغيرة ، أن أنفذ الى أعماق نفسـه فأدرك الآلام التى كان يعانيها ثمرة لاخفاقه ؟ لقد نفذت مع ذلك الى هذه الآلام ، وان كنت قد بدلت صورتها طبعا ، وجعلتها فى مستوى خيالى . والى الآن لا أدرى من أين أتانى هذا الحدس . لعل قسوة أمى الشديدة علىَّ هى التى دفعتنى الى التعلق بأبى ، تعلقى بانسان يعانى مثـل الشقاء الذى أعانيه ، وفقا للصورة التى رسمتها نفسى له .

رويت الى الآن يقظتى الأولى من نوم الطفولة ، والحادث الأول فى

حياتي . وقد جرحني هذا الحادث جرحا عميقا ، ومنذ ذلك اليوم أخذ نموي يتم بسرعة عجيبة ، بسرعة مرهقة ، وأصبحت لا أكتفي بالمشاعر التي تصلني من الخارج بل صرت أفكر ، وأحكم ، وألاحظ . فاذا كل ما يحيط بي يرتسم في ذهني وفقا للصورة الخيالية التي كان يكررها أبي، والتي كان لا بد أن أعدها الحقيقة الخالصة . وأدركت أشياء كثيرة عجيبة. أدركت مثلا (لا أفهم الآن كيف تم لي ذلك) انني أعيش في أسرة عجيبة ، وأن أبويّ لا يشبهان الناس الذين كان يتفق لي أن ألقاهم . كنت أتساءل : « لماذا يختلف مظهر الناس الذين أراهم عن مظهر أبوي ؟ لماذا أرى في وجوههم فرحا .. على حين أنه ما من أحد يضحك يوما في بيتنا ، في ركننا النائي ، ما من أحد يعرف الفرح سبيلا الى نفسه !؟ » لست أدري الآن ما الذي كان يدفعني ، أنا الطفلة التي لم تتجاوز التاسعة من عمرها ، الى ملاحظة الناس بمثل هذا الانتباه الشديد ، والى الاستماع الى كل كلمة يقولونها بمثل هذه المرارة اللاذعة ، حين كنت ألقاهم عرضا على سلم البيت ، أو في الشارع ، أو حين كنت أمضي الى أحد الحوانيت ، ملفعةً بثوب أمي ، لأشتري ببضعة قروش قليلا من السكر أو الشاي أو الخبز ؟ .. وفهمت ـ لا أدري كيف ـ أن شقاء لا يحتمل يختبىء في بيتنا ، في هذا البيت الحقير . وكنت أعصر ذهني باحثة عن علة ذلك ، ولا أدري ما الذي ساعدني على حل اللغز على النحو التالي : قلت في نفسي أن أمي هي المسئولة ، انها سبب شقاء أبي . وهذا يضطرني الى التساؤل مرة أخرى : كيف أمكن أن ترسخ هذه الفكرة الشيطانية في نفسي . ومهما يكن من أمر فان تعلقي بأبي أخذ يزداد ، وأخذ يزداد كرهي لأمي ، وما زالت هذه الذكرى تحدث لي ألما عميقا حتى الآن .

وهذا حادث آخر عجّل تعلقي بأبي أكثر من الحادث الأول : ذات

مرة ، فى نحو الساعة التاسعة من المساء ، أرسلتنى أمى الى السوق لشراء قليل من الخميرة ، أثناء غياب أبى عن البيت • ووقعت فى الشارع وانا عائدة الى البيت فانسفح على الارض كلُّ ما كان يحويه الفنجان • وتصورت ، اول ما تصورت ، جامَ الغضب الذى ستصبه أمى على راسى ، وشعرت الى جانب ذلك بالم فظيع فى ذراعى اليسرى ، ولم استطع أن أنهض على قدمى ، وتجمع حولى « المتفرجون » • وحاولت امراة أن تنهضنى ، ومر صبى وهو يركض فلكمنى على رأسى ومضى ، وأنهضونى أخيرا ، فلملمت قطع فنجانى ، ومضيت مرتعشة مرتجفة لا أكاد أقوى على السير • وفجاة لمحت أبى • لمحته فى وسط جمهور تجمع أمام المنزل الجميل الذى يقابل بيتنا • كان هذا المنزل الذى يقطنه أناس أغنياء يتألق بضياء رائع • وأمام باب البيت كان يقف عدد من العربات • ومن خلال النوافذ كانت تخرج أصوات موسيقى • وأمسكت بطرف ثوب أبى ، وأريته فنجانى المكسور ، وذكرت له ، باكيةً ، اننى خائفة من العودة الى البيت • لا أدرى الان لِمَ كنت على ثقة من أنه سيصحبنى وأنه سيدافع عنى ، لا أدرى من أين أتانى هذا اليقين ، ومن ذا الذى أوحى الىَّ بأنه سيحمينى ، وأنه يحبنى أكثر مما تحبنى أمى كثيرا • لا أدرى كيف اتجهت اليه دون أن يساورنى أى خوف • وأمسك أبى بيدى ، وأخذ يواسينى ، ثم قال لى انه سيرينى شيئا • ورفعنى بين ذراعيه • لم أستطع أن أرى شيئا ، لأنه شد ذراعى المجروحة ، فآلمنى ألما هائلا • غير أننى لم أصرخ ولم أتوجع ، لأننى كنت لا أحب أن أزعجه فى شىء • وسألنى ملحا هل أرى شيئا • وحاولت ، جهد اليائس ، أن أجيبه بما يحب ، فقلت له اننى أرى ستائر حمرا • وحين أراد أن يحملنى الى الجانب الآخر من الشارع ، بالقرب من البيت ، رأيتنى أبكى فجأة على رغم ارادتى وأخذت أتوسل اليه ، وقد أحطت عنقه بذراعى ، أن يصعد بى الى البيت

بسرعة • انني أتذكر الان أن مداعبات أبي في تلك اللحظة كانت تؤلمني، فانني لم احتمل ان يحبني ويداعبني احد هذين اللذين أود أن احبهما كل الحب ، في وقت اخاف فيه الاخر وأخشى ان أمثل بين يديه • الا أن أمي لم تكد تغضب ، وأمرتني أن أمضي الى فراشي وأنام • وأذكر أن ألم ذراعي أخذ يشتد ويشتد ، حتى سبب لي حمى شديدة • ورغم ذلك كانت سعادتي عظيمة جدا ، لأن الامر انتهى بسلام ، حتى لقد حلمت طوال الليل بالبيت الذي يقابل بيتنا وبستائره الحمر •

لذلك كانت صورة هذا البيت أول ما مثل في خاطري حين استيقظت في صباح اليوم التالي • وما كادت أمي تنزل الى فناء المنزل ، حتى تسللت خافة النافذة لاتامل ذلك البيت مرة أخرى ، وكنت أفكر فيه منذ زمان طويل ، وكنت أحب أن أنظر اليه في المساء خاصة ، حين تضيء الأنوار في الشارع ، فتصطبغ بلون الدم ، تحت الاشعة الخاصة التي تسقط عليها من خلال نوافذه العالية المغللة بالستائر الارجوانية ، والمضاءة اضاءة قوية •

وأمام الباب ، تقف دائما عربات فاخرة شدت اليها خيول رائعة • كان كل شيء يثير في نفسي حب الاستطلاع : الصراخ ، الازدحام ، القناديل المبرقشة ، النساء المتبرجات ينزلن من العربات • كان خيالي يخلع على هذا كله جوا سحريا مترفا كجو الاساطير • وفي ذلك اليوم على وجه الخصوص ، بعد لقائي بأبي على عتبة هذا البيت ، ازداد البيت في نظري فتنة وسحرا • وكانت صور الروعة قد بدأت تتخاطر في ذهني الهائم • انني أعيش بين أناس شاذين كأبي وأمي ، فلا عجب أن أصبحت شاذة عجيبة ، أنا الأخرى ، فما من ذلك مهرب • من ذلك أن رؤية أمي وهي تتحمل هذا العناء كله في سبيل اعالتنا ، وما كنت أسمعه من تقريعها أبي دون انقطاع على انها وحدها تعمل ، كل ذلك كان يشغل بالي

ويصدعه . فكنت أتساءل ، بالرغم منى : لماذا لايساعدها أبى أبدا ، ولماذا يعيش بيننا كأنه غريب عنا ؟ ان بعض كلمات أمى أيقظت فى نفسى هذه الفكرة . وكانت لى مفاجأة كبيرة يوم فهمت أن أبى شخص « موهوب » ، انه « فنان » . ورسخت هذه الكلمة فى ذاكرتى ، وسرعان ما استقر فى ذهنى ان الفنان مخلوق عجيب ، لا يشبه غيره من الناس . لعل سلوك أبى هو الذى انتهى بى الى هذه النتيجة ، أو لعل كلمة سمعتها ثم نسيتها هى التى رسّخت فى نفسى هذه الفكرة . ومهما يكن من أمر فان هناك عبارة قالها أبى ذات يوم بحرارة قوية ورسخت فى ذاكرتى لا تبرحها قال : سيأتى يوم لن يكون هو فيه انسانا رثاً بل سيداً محترما ورجلا غنياء سيأتى يوم يبعث فيه بعثا جديدا ، هو اليوم الذى تموت فيه أمى ! ..أذكر اننى ما ان سمعت هذه الكلمات حتى انتابنى فى أول الأمر رعب شديد ، فلم أستطع أن أبقى فى الغرفة . فهربت الى الممر البارد ، وانكمشت الى جانب النافذة ، وقد اعتمدت وجهى بين يدى ، وأخذت أشهق وأنتحب . ثم لما فكرت فى الأمر مليا ، وهبّ الخيال الى نجدتى ، وجدتنى آلف رغبة أبى الكريهة هذه . وكنت ، من جهة أخرى ، لا أستطيع أن أظل مدة طويلة أمام سر لا يمكن فهمه ، وكان لا بد لى من أن أستقر على افتراض يرتاح اليه عقلى ، وهكذا وجدتنى أعتقد (لا أدرى كيف تم ذلك) أنه متى ماتت أمى فسيترك أبى هذا البيت الحقير ، ويمضى بى الى مكان آخر . أما أين يكون ذلك المكان ، فذلك ما لم أستطع أن أتخيله واضحا الى آخر لحظة . والذكرى الوحيدة التى بقيت لى عن المكان الذى سنمضى اليه (وكنا سنمضى اليه من أجلى أنا طبعا) هو أنه سيكون مكانا رائعا فخما عظيما . لقد خلقت من أحلامى الخيالية واقعا حيا . وتراءى لى اننا سنصبح أغنياء فى طرفة عين ، فما احتاج أن أذهب الى شراء بعض

الحاجات من الدكاكين ، وكان هذا العمل كريها جدا الى نفسى ، فقد كان أولاد البيت المجاور يتحرشون بى كلما خرجت ، وكنت أخشاهم خاصة حين أحمل قليلا من الحليب أو الزبدة ، فأسقط ما أحمل على الأرض ، وأتعرض لعقاب أمى القاسى • وتراءى لى أن أبى سيشترى لنفسه ثيابا جميلة • وتخيلت أننا سنمضى بعد ذلك الى البيت الذى يقابل بيتنا ، فنقيم فيه • نعم ، ان البيت الغنى ذا الستائر الحمر الذى رفعنى أبى أمام نوافذه ذات يوم من أجل أن يرينى ما بداخله ، قد هبّ كذلك لنجدة خيالى • وحللت المسألة على الفور : سيكون هذا البيت بيتنا ، وسنمكث فى حناياه فى عيد دائم ، فى سعادة أبدية • ومنذ تلك اللحظة صرت اذا جاء المساء أقف على نافذة بيتنا أتأمل القصر المسحور فى شوق ما بعده شوق : فأرى وصول العربات ، وأرى الزوار فى أجمل الحلى ، وأسمع أصوات موسيقى عذبة تخرج من خلال النوافذ ، وأتأمل الظلال التى تتخاطر على الستائر ، وأحاول أن أحرز ما يعمله الناس فى هذا البيت الذى كان فى نظرى جنة ، وعيدا أبديا ، وصرت أحتقر مسكننا الوضيع ، وأحتقر الخرق البالية التى أرتديها •

• • •

وذات يوم غضبت أمى فأمرتنى أن أنزل عن النافذة ، حيث أطلق لأحلامى العنان على عادتى • فما لبثت أن اعتقدت أن أمى انما تمنعنى من التفكير فى هذا البيت ومن النظر اليه لأن مستقبلنا لا يحلو لها ، ولأنها تريد أن تحول بيننا وبينه • وظللت طوال السهرة أرقب أمى بحذر •

كيف أمكن أن أكون فى مثل هذه القسوة على انسان لقى من العذاب الأبدى ما لقيت أمى ؟ اليوم فقط أصبحت أدرك انها كانت تعيش فى جحيم ، اليوم فقط أدرك ، وقلبى يتمزق من الأسى ، أنها شهيدة • على اننى فى تلك الفترة القاتمة من طفولتى الغريبة ، فى تلك الفترة من

حياتى التى كنت انمو فيها نموا غير طبيعى ، كثيرا ما كان ينقبض صدرى الما ورحمه ، كثيرا ما كان يثور ضميرى كلما تراءى لى اننى اظلم امى • الا ان القلق والخوف والريبة ظلت اقوى من كل شىء اخر • والحق اننا كنا بعيدين احدانا عن الاخرى • فلست أذكر اننى تمنيت فى يوم من الايام ان اخلو بها • لذلك كانت أية ذكرى من ذكرياتى تسمم الان نفسى وتجعلنى أرتعد من شدة الألم •

أذكر مرة (ولا شك أن ما سأرويه أمر مبتذل ، الا أن ذكريات من هذا النوع هى التى تعاودنى الان وتعذبنى) أن أمى أرادت ذات مساء ، اثناء غياب ابى ، ان ترسلنى الى الدكان اشترى لها قليلا من الشاى والسكر • ولكنها قبل أن ترسلنى فكرت طويلا ، ولم تعزم أمرها ، وجعلت تعد ، بصوت عال ، المبلغ الضئيل الذى كانت تملكه قطعاً نقدية صغيرة • اعتقد أنها ظلت تعد هذا المبلغ خلال نصف ساعة كاملة دون أن تفرغ من ذلك • لقد كانت المسكينة تصاب فى بعض اللحظات بنوع من التبلد ، نتيجةً لما كانت تقاسيه من آلام • واذا صدقت ذاكرتى ، فقد تمتمت أمى لا أدرى بماذا ، دون أن تكف عن عد دراهمها ببطء وعناية كبيرة• كأن الكلمات كانت لاتوافيها • وكانت شفتاها دكناوين، ووجنتاها كابيتين مكفهرتين ، ويداها مرتجفتين ، وكانت لا تنى تهز رأسها ، على عادتها حين تتخذ قرارا •

وأخيرا قالت وهى تنظر الى : « كلا •• مستحيل •• خير لى أن أنام •• أليس كذلك ؟ هل تحبين أن تنامى يا نيتوتشكا ؟ » • ولم أجب • عندئذ رفعت أمى رأسى ، ونظرت الىّ فى رفق ولطف وحب ، وأشرقت فى وجهها ابتسامة صافية تفيض بحنان الأم ، فما رأيتنى الا وقلبى يخفق•

لقد نادتنى بقولها نيتوشكا ، وهذا يشير الى انها فى تلك اللحظة أحبتنى حبا خاصا • كانت هى التى تخيلت فيما مضى ان تغير اسمى ، وهو آنا ، فتناديني بهذا الاسم المصغر الذى يشير الى الحب ، وحين كانت تناديني بهذا الاسم المصغر كان ذلك يعنى أنها على استعداد لأن تلاطفنى وتداعبنى • وانفعلت انفعالا قويا حتى اشتهيت أن أطوق عنقها بذراعى ، وآن أشاركها البكاء •

وداعبت رأسى طويلا ، ولعلها فعلت ذلك على نحو آلى دون أن تشعر ، وظلت تكرر : « صغيرتى انا ، حبيبتى نيتوشكا » • وتفجرت من عينى الدموع ، الا اننى تجلدت لأحبسها •• كابرت جهدى حتى لاأدعها ترى انفعالى ، رغم ما يسبب ذلك لى من ألم •

كلا ! لا يمكن أن يكون هذا مجرد قسوة منى • لا يمكن أن أشعر نحو أمى بالعداوة لمجرد قسوتها علىّ ! لقد كان يدفعنى الى كرهها هذا الحب الموحّد الشديد الذى اشعر به نحو أبى • لقد كان يتفق لى ، فى بعض الأحيان ، أن أستيقظ من نومى ليلا ، فى الركن الذى أنا فيه ، على حصيرتى الصغيرة ، تحت غطائى الرقيق ، وقد تملكنى شعور مخيف • كنت ما زلت أتذكر فى ذلك الحين ، وأنا شبه نائمة ، انى قبل هذه المدة بقليل ، كنت أنام مع أمى ، وكنت أقل خوفا حين أستيقظ ، وكان يكفينى أن أشد نفسى اليها ، وأن أغمض جفنى ، وأن أعانقها بقوة ، حتى أنام على الفور • ثم لقد كنت أشعر اننى ، رغم كل شىء ، لا أستطيع أن أمنع نفسى عن حب أمى فى السر • وأدركت بعد ذلك أن كثيرا من الاطفال قد يفقدون مشاعر الرحمة فقداناً رهيباً ، وأنهم اذا أحبوا شخصا أحبوه وحده ولم يعبأوا بمن عداه • فكذلك كانت حالى أنا •

وكان يسطر على منزلنا الحقير ، فى بعض الأحيان ، صمت رهيب

يدوم اسابيع برمتها ، وذلك حين يسام أبى وأمى مشاجراتهما • كنت أعيش بينهما حياتى كلها دون ان انبس بكلمة، غارقة فى افكارى وحزنى، ساعيه وراء خيالات أحلامى • وكنت ، لفرط ما تأملتهما ، افهم ما يكن كل منهما للآخر ، وأفهم هذا البغض الاصم المستمر الذى يرين بينهما ، وافهم هذه الحياة الفاسدة التى يعيشانها فى كوخنا الحقير •

وطبيعى ان أفسر ذلك كله على النحو الذى أستطيعه ، ما دمت أجهل أسبابه ولا اعرف نتائجه • لقد كان يتفق لى خلال سهرات الشتاء الطويلة أن أظل قابعة فى ركنى ساعات كاملة أتأملهما، وكنت أحاول وأنا أطوّف بصرى فى وجه أبى ان أحزر مايفكر فيه ، وما يشغل باله • وكان وضع أمى يدهشنى فى بعض الاحيان ادهاشا يبلغ حد الفزع : كانت تسير فى الغرفة جيئة وذهابا خلال وقت لا ينتهى ، وكان يتفق لها ذلك حتى فى الليل ، حين يمضها الارق ، فكانت تدندن وتشير بيديها كأنها وحدها لا يراها أحد ، فهى تارة تضع يديها على صدرها ، وتارة تعضهما وقد تملكها يأس رهيب ، وتارة تجرى دموعها على وجهها ، ربما دون أن تعلم لذلك سببا ، فقد كانت تفقد وعيها فى بعض الاحيان • لقد كانت تعانى مرضا خطيرا أهملته اهمالا تاما •

وازدادت وطأة وحدتى وصمتى حتى أصبحت لا أجرؤ على أن أخرج منهما • وانقضت سنة كاملة على تيقظ شعورى ، وعلى استرسالى فى التأملات والاحلام ، وعلى تمزقى صامتة بين مطامح غامضة نشأت فىّ بغتة ، وأصبحت متوحشة كأنما أنا عشت فى وسط غابة • وأخيرا انتبه أبى الى وضعى هذا ، فاستدعانى وسألنى لماذا أحدّق فيه كل هذا التحديق • ولا أدرى الآن بم أجبته • الا أنه ، بعد لحظة من تفكير ، وعدنى ، وهو يداعب يدى ، أن يحضر لى كتاب الابجدية فى الغد ، وأن يعلمنى القراءة •

وانتظرت هذا الكتاب بفارغ صبر ، وحلمت به الليل كله ، دون أن أدرك ما هى الابجدية على وجه الدقة • وفى اليوم التالى بدا أبى يعلمنى القراءة • وفهمت ما يطلب الىّ فى طرفة عين ، وتقدمت فى دروسى بخطى سريعة ، لعلمى أن ذلك يسر أبى ، وكانت تلك أسعد مرحلة فى طفولتى البائسة • وحين كان أبى يثنى على سرعة فهمى ، ويداعب رأسى ويقبلنى، كنت أطفق أبكى من شدة الفرح •

وازداد أبى حبا لى شيئا بعد شىء • وأصبحت أجرؤ على أن أكلمه ، وأصبحنا كثيرا ما نمضى نثرثر معا ساعات طوالا • وكان يتفق لى أن لاأفهم شيئا مما يقول ، ولكننى كنت أتظاهر بفهم كل شىء ، خشية أن يظن أبى اننى أضيق بحديثه • واعتاد أن يقضى السهرة معى ، فأصبح يعود الى البيت عند الغروب ، فما ان يصل حتى أحمل أبجديتى وألحق به ، فيجلسنى أمامه على المقعد ، حتى اذا فرغنا من الدرس أخذ يقرأ لى بصوت عال • وكنت لا أفهم شيئا مما يقرأ • الا اننى أضحك دون انقطاع، لاعتقادى بأن ذلك يسره سرورا عظيما • ولم أكن مخطئة فى اعتقادى ذلك : فقد أولع بى حقا ، وكان يفرحه أن يسمعنى مغرقة فى الضحك • وفى ذات مساء ، قص على ، بعد الدرس ، حكاية من حكايات الجن • كانت تلك أول حكاية أسمعها • وغمرتنى هذه الحكاية بفيض من الفتنة والسحر • على أن خيالى لم يكن فى حاجة الى مثلها ليفتن ويسحر • كل ما فى الأمر اننى تقبلت الآن هذه الحكاية على انها جد ، وخلقت من الوهم واقعا • فاذا البيت ذو الستائر الحمر يتراءى لى ، لا أدرى كيف ، واذا الشخصية الاساسية فى الحكاية تتقمص أبى وهو يقص علىّ الحكاية ، واذا أمى تظهر لتحول بيننا وبين السفر لا أدرى الى أين ، واذا أنا أعيش مع أحلامى الرائعة وقد حم رأسى وغلى برؤاه العجيبة المستحيلة• وتداخل

هذا كله وتشابك ، ثم لم يلبث أن كون سديما لاشكل له ، سديما جعلنى، خلال مدة من الوقت ، افقد صوابى وأفقد شعورى بالواقع ، واعيش بين السحب .

وأحرقتنى رغبة قوية فى أن أسال أبى عما يخبئه لنا المستقبل ، عما ينتظر هو نفسه ، عن الامكنة التى سيقودنى اليها ، عن الموعد الذى سنترك فيه بيتنا الحقير . كنت واثقة من جهتى ، ان هذا كله لن يتأخر كثيرا ، ولكن كيف وعلى أية صورة ؟ عبثا حاولت أن أبحث عن جواب على هذا السؤال المرهق . وكان يتراءى لى فى بعض اللحظات ، ولا سيما أثناء السهرة ، ان ابى سيطلب الىّ فجأة ، بحركة خفية ، أن أمضى الى الممر ، فاذا انا أنهض خلسة ، دون أن تلاحظ أمى ذلك ، فأتناول آبجديتى عابرة ، واتابط اللوحة (وهى صورة مطبوعة لا قيمة لها كانت متدلية على جدار الغرفة بدون اطار منذ زمن لا أول له ، وكنت قد عزمت على أن أحملها معى) ، ثم نمضى دون أن نحدث ضجة ، نمضى الى غير رجعة ، لا الى البيت ولا الى أمى . وذات مرة ، لم تكن أمى فى البيت ، فأردت انتهاز لحظة رأيت أبى فيها فرحا جدا (يتفق له ذلك بعد أن يحتسى قليلا من الشراب) ، فاقتربت منه لأدير الحديث حول هذا الموضوع الحبيب الىّ . وسرعان ماظفرت باضحاكه . عندئذ أحطت عنقه بذراعى ، وشددت نفسى بقوة اليه ، ورحت أسأله (وقد أخذ قلبى يخفق من شدة الخوف مما سأقوله من أمور سرية رهيبة) رحت أسأله فى تمتمة وفى كلام متهدج ، عن المكان الذى سنمضى اليه ، وعن موعد السفر أهو قريب ، وعما سنحمله معنا ، وعن حياتنا كيف ستكون ، وعن البيت ذى الستائر الحمر هل نسكنه ؟

ـ أى بيت ؟ أى ستائر حمر ؟ ماذا تقولين أيتها الحمقاء الصغيرة ؟

وشعرت برعب لم أشعر به من قبل ، وأخذت أشرح له اننا لن نبقى

هنا في هذا البيت الحقير بعد موت أمي ، وانه سيأخذني بعد موتها الى مكان آخر نعيش فيه سعيدين ، غنيين • وأكدت له أخيرا أنه هو الذي وعدني بذلك • وكنت على يقين ، وأنا أقول له هذا الكلام ، من أن أبي قد حدثني عن هذه الأشياء ، أو انني قدرتها تقديرا على الأقل •

وأردف أبي يقول :

ـ أمك ؟ تموت ؟ حين تموت ؟ ماذا تقولين أيتها البلهاء الصغيرة الباسمة ؟

قال ذلك وهو ينظر الىّ مشدوها ، مقطبا ما بين حاجبيه الكثيفين المبيضين ، مكفهر الوجه على حين فجأة •

ثم وبخني ، وظل مدة طويلة يقرعني ويقول انني طفلة بلهاء لا أستطيع أن أفهم شيئا •

لست أتذكر الآن ألفاظ التأنيب التي صبها على رأسي ، ولكن استياءه كان شديدا جدا •

على أنني لم أفهم قوله ، ولا فهمت هذا الحزن الذي شعر به حين أدرك انني أصغيت الى كلامه وترجمت الى لغتي الخاصة عبارات البغض التي كان يكيلها لأمي •

ومهما يكن من أمر سلوكه حينذاك ، ومهما تكن آراؤه الشخصية السيئة في أمي ، فمما لا شك فيه أن كلامي قد شدهه • أما أنا فانني لم أستطع أن أفهم غضبه ، وشعرت بحزن مر ، وانفجرت باكية ، واعتقدت أن ما ينتظرنا هو من الخطورة بحيث لا يجوز لي ، أنا الطفلة الغبية ، أن أتحدث عنه ولا أن أفكر فيه • على انني ان لم أفهم شيئا من غضب أبي ، فقد شعرت انني أهنت أمي ، ولو شعورا غامضا مبهما ، حتى أن الخوف

والارتياع بلغا منى مبلغا جعل الشك ينشب اظافره فى أعماق نفسى • وحين رآنى ابى باكية معذبة ، اخذ يواسينى ، ومسح دموعى بكمه ، وأمرنى أن اكف عن البكاء • وبقينا بعد ذلك جالسين مدة من الزمن صامتين ، وكان باديا على وجه أبى انه يفكر منقبض الاسارير • ثم اخذ يتكلم من جديد ، الا ان كل ما قاله بدا لى غير واضح ، رغم ما حاولته من تركيز انتباهى ؛ والكلمات القليلة التى بقيت فى ذاكرتى الى الان من حديثه تجعلنى أستنتج أنه تحدث عن مواهبه العظيمة ، عن كونه فنانا كبيرا ، عن أن الناس لا يفهمونه ، الخ • وما زلت أذكر انه سألنى هل أفهم ما يقول ، فلما أجبته بما يرضيه حملنى على ان اكرر على مسامعه أنه موهوب فقلت « موهوب » •• وكاد يبتسم لدى سماعه هذه الكلمة ، ولعله ابتسم لانه رأى من المضحك أن يتحدث معى فى موضوع خطير فى نظره الى هذا الحد• وانقطت محادثاتنا بوصول كارل فيودورفتش • فما لبثت أن استعدت مرحى وأخذت أضحك ، حين قال لى أبى مشيراً اليه :

ـ هل ترين ؟ هـــذا كارل فيـودروفتش ! انه لا يملك ذرة من موهبة !

كان كارل فيودروفتش انسانا عجيبا • مازلت أتخيله كأننى رأيته بالامس • (ولا عجب ، فان الناس الذين عرفتهم فى حياتى حتى ذلك الحين كانوا قلة) • وكان الرجل ألمانيا ، أتى الى روسيا تهزه رغبة شديدة فى الانتساب الى هيئة الباليه ببطرسبرج • الا أن رقصه كان من الرداءة بحيث لم يمكن أن يسند اليه فى الفرقة أى دور مهما يكن ثانويا ، على انهم كانوا يستخدمونه أحيانا فى بعض الادوار الجماعية ، مع فرســـان فيرون مثلا ، الذين يبلغ عددهم العشرين ويجب عليهم أن يصرخوا معا فى لحظة من اللحظات هاتفين وفى أيديهم خنـــاجر من ورق مقوى :

« لنمت فى سبيل الملك » . ولكن لا شك فى انه ليس على وجه الارض ممثل واحد بلغ شغفه بدوره مثلما بلغ شغف كارل فيودروفتش بدوره !

على أن أفظع تعاسة فى حياته كلها هى انه لم يستطع أن ينخرط فى هيئة الباليه . كان يعتقد ان فن الرقص يفوق جميع فنون الدنيا ، وهو من هذه الناحية يحرص على فنه حرص أبى على كمانه . وقد تصادق الرجلان حين كانا يعملان معا فى المسرح . ومنذ ذلك الحين لم يدع هذا الممثل البسيط أبى أبدا . فكانا يلتقيان فى كثير من الاحيان ، يتفجعان معا على حياتهما المحطمة ، ويشكوان غدر البشر . ولقد كان هذا الالمانى أكثر الناس عاطفية ، فكان يحمل لأبى أعنف مشاعر الصداقة وأخلصها . الا ان أبى لم يكن يقدره كثيرا ، وانما يحتمله لانه لم يكن له صديق غيره فى ذلك الحين . ثم ان أبى كان يرفض ، لتعصبه ، أن يسلم بأن الرقص فن من الفنون . وكان ذلك يجرح كبرياء الالمانى المسكين الى حد البكاء. فما يكاد هذا البائس يتحمس للرقص حتى يأخذ أبى يسخر منه ، ويهزأ بفنه ، فيمس بذلك وترا حساسا فيه . ولقد سمعت « ب » فيما بعد يتحدث كثيرا عن كارل فيودروفتش هذا ، وقد روى لى كثيرا من التفاصيل عن صداقة هذين الشخصين اللذين لم يخلق أحدهما للآخر ، واللذين كانا اذا احتسيا قليلا من الخمر معا ، يذرفان الدموع على حظهما العاثر وعلى ان الناس لا يفهمونهما !

وكنت اذا رأيتهما يبكيان آخذ فى الشهيق والنحيب ، أنا ايضا ، دون سبب يدعو الى ذلك . وكان ذلك يقع فى غياب أمى دائما . لقد كان الالمانى يخافها خوفا كبيرا ، حتى أنه كان اذا جاء قبع فى الممر مدة ، الى أن يخرج أحدنا فاذا علم ان أمى موجودة فى البيت ، طار لبه من الخوف وهرب يتدحرج على السلم بسرعة . وكان يأتينا دائما بقصائد

ألمانية تنال أعجابه ، وتثير حماسته ، فيأخذ ينشدنا اياها بصوت عال ، ثم يترجمها الى الروسية ترجمة خرقاء لنفهمها • وكان ذلك يفرح ابى كثيرا ، ويجعلنى أضحك فى بعض الاحيان ضحكا قويا • وفى ذات مرة وقع بين أيديهما كتاب روسى أعجبا به كلاهما أيما اعجاب بل افتتنا به افتتانا ، حتى انهما كانا كلما وقعا عليه بعد ذلك يعيدان قراءته • وكان هذا الكتاب ، فيما أذكر ، درامة شعرية لمؤلف روسى شهير • وقد رسخت الأبيات الأولى من هذه الدرامة فى ذاكرتى رسوخا قويا ، حتى انى بعد انقضاء سنين كثيرة على ذلك صرت كلما وقع هذا الكتاب بين يدى مصادفة أتعرف عليه بلا عناء • وكانت هذه الدرامة تدور حول رسام كبير ، يدعى « جرينارو أو لاكوبو » ، يشكو حظه الشقى ويصرخ فيما يصرخ قائلا : « ان الناس لا يعرفون قيمتى » ، ثم يصرخ فى موضع آخر قائلا : « ان الناس يعرفون قدرى » ، وفى موضع يقول : «ليس لى من موهبة» ، وفى موضع آخر يقول : « ان لى مواهب عظيمة » • وخاتمة الدرامة محزنة • لاشك أن هذا الكتاب ليس له من قيمة • غير أنه ـ وتلك هى المعجزة ـ كان يفعل فعل السحر فى هذين القارئين اللذين يجدان بينهما وبين بطله الرئيسى صفات مشتركة كثيرة • وكان كارل فيودوروفتش يبلغ من الانفعال انه يقفز من مكانه ، ويعدو الى الطرف الآخر من الغرفة ، ثم يتجه الىَّ (وكان يناديني « مادموازيل ») والى أبى ، متوسلا الينا ، وقد تفجر الدمع من عينيه ، أن نكون جمهورا له نرى رقصه ونحكم عليه • ثم يأخذ يقوم بأنواع شتى من خطوات الرقص ، صارخا فينا أن نعلن رأينا فى رقصه صراحة : أهو فنان أم لا ؟ هل يستطيع أحد أن يزعم أنه ليس بموهوب ؟ وكان أبى فى مثل هذه الأحوال يأخذه مرح مباغت ، ويومىء الىَّ بعينيه خلسة أنه سيسخر من الالمانى ، وأن الامر سيكون مضحكا جدا • وكانت تنتابنى رغبة فى الضحك مجنونة ، حتى يشير ابى

الىّ بيده مهددا ، فأمسك عن الضحك • ومازلت حتى الآن لا أستطيع أن أتذكر هذه المشاهد دون أن أضحك • ومازلت أرى المسكين كارل فيودوروفتش كأنه أمامي : انه قصير القامة ، نحيل مفرط فى النحول ، مبيض الشعر ، انفه كبير أحمر أشبه بمنقار الغراب ، اما ساقاه فمقوستان تقوسا بشعا جدا ولكنه كان يتباهى بشكلهما الجميل، حتى لقد كان يرتدى سروالا ضيقا يلتصق بهما ابرازا لمفاتنهما • وحين كان يتجمد على حركة أخيرة ، باسطا يديه نحونا ، مبتسما ابتسامة الراقصين على المسرح حين يفرغون من احدى رقصاتهم ، كان أبى يظل صامتا لحظة من الزمن ، كأنه عزم على ان لا يعلن رأيه • الا أنه كان يفعل ذلك عمدا ليدع الراقص في وضعه ذاك ، مترنحا على قدميه ، جاهدا أن يحافظ على توازنه فى كثير من العناء • وأخيرا يلتفت أبى الىّ فى هيئة رزينة رصينة ، كأنما ليدعونى أن أكون شاهدا على حكمه الصادق الذى لا تحيز فيه ، وتلك هى اللحظة التى كان فيها الراقص يثبت بصره فىّ أنا أيضا ، وقد فاضت عيناه بمعانى الحياء والتوسل ، واخيرا يقول له أبى ، متظاهرا بالاستياء من الاعتراف بالحقيقة المرة :

ـ كلا ، ياكارل فيودوروفتش • لم تتقنها بعد !

وعندئذ يطلق كارل فيودوروفتش من أعماق صدره آهة حرى ، الا أنه يتجلد ، ثم يطلب الينا بحركات سريعة ان ننتبه اليه مرة أخرى ، زاعما ان الحظ لم يحالفه فى المرة الأولى ، متوسلا ان نصبر عليه ونصدر حكمنا فى هذه المرة الجديدة • ثم يركض من جديد الى الطرف الآخر من الغرفة • وكان في بعض الاحيان لفرط حماسته يبلغ من شدة الوثب ان رأسه يصطدم بالسقف ، فيحدث له ألما شديدا جدا ، الا انه كان يحتمل الألم ببطولة ، كاسبارطى ، ثم يتجمد مرة أخرى فى وضع من الاوضاع، مبتسما ، مادا يديه نحونا ، طالبا أن نصدر رأينا فى رقصته هذه المرة •

ولكن أبى كان لا يعرف الرحمة ، فكان يجيب بنفس اللهجة الساخرة التى أجاب بها فى المرة الأولى ويقول :

ـ كلا ، يا كارل فيودوروفتش ، لم تحسنها بعد ، رغم كل ماعملت!

وكنت عندئذ لا أستطيع ان أضبط نفسى ، فأطلقها قهقهة مجلجلة يرد عليها أبى بقهقهة مثلها ، ويشعر كارل فيودوروفتش فجأة أننا انما نسخر منه ، فيحمر وجهه خجلا ، ويقول لابى وقد فاضت عيناه بالدموع وسرت فى لهجته عاطفة عميقة مضحكة فى آن واحد ، عاطفة كانت تحملنى بعد ذلك على أن أرثى لحاله :

ـ انك لست بصديق .

ثم يتناول قبعته ، ويهرب وهو يقسم أغلظ الايمان انه لن يعود أبدا . الا أن هذا النوع من المخاصمات لم يكن يدوم طويلا ، فاذا بصاحبنا يعود بعد بضعة أيام ، واذا بالصديقين يستأنفان قراءة تلك الدرامة التى يحبانها ، واذا بالدموع تترقرق من جديد ، واذا الساذج كارل فيودوروفتش يطلب الينا أن نكون حكما بين مواهبه وبين الجمهور ، ولكن بعد أن يتوسل الينا أن نكون جادين فى الحكم ، كما يليق بأصدقاء مخلصين بدلا من أن نسخر منه .

وفى ذات مرة أرسلتنى أمى الى الدكان اشترى لها شيئا من الأشياء ، وعدت ممسكةً بالنقود الصغيرة التى ردها لى البائع ، فلقيت أبى هابطا على السلم ، فابتسمت له كما كنت أبتسم كلما لقيته ، وكنت فى الواقع أعجز من ان لا أبتسم له . الا أنه وقد انحنى علىَّ يريد تقبيلى، لمح النقود التى أقبض عليها بيدى ـ (نسيت أن اذكر اننى تعودت ان اقرأ فى وجهه ما يدور فى خلده ، حتى أصبحت ادرك رغباته من أول نظرة . وكنت اذا

رأيته حزينا ينهشنى الالم نهشا • وكان حزنه يزداد حين تفرغ يده من الدراهم فراغا تاما ، فما يستطيع أن يحتسى قليلا من الخمر ، بعد أن أصبح الكحول حاجة لا يستغنى عنها) ـ فى تلك اللحظة التى لقيته فيها على السلم لاحظت ان به شيئا خاصا • كانت نظرته قاسية ، وكانت عيناه متجمدتين ، حتى أنه لم يرنى فى اللحظة الأولى • الا انه حين رأى النقود البراقة التى أمسكها بيدى ، احمر وجهه فجأة ، ثم شحب ، ثم مد يده ليأخذها ، ثم ما لبث ان كبح حركته هذه • واضح ان صراعا قام فى نفسه • وكأنما سيطر أخيرا على نفسه ، فأمرنى أن أصعد • وهبط هو بضع درجات على السلم ، الا انه توقف بعد ذلك فجأة ، وناداني •

لقد كان فى حالة انزعاج فظيع •

ـ اسمعى يا نيتوتشكا • أعطينى هذه النقود • وسأردها اليك فيما بعد • ستعطين اباك هذه النقود يانيتوتشكا ، اليس كذلك ؟ انك ابنة طيبة ، أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟

كنت كأنما أوجست أنه سيفعل ذلك • الا أن صورة الغضب الذى ستصبه أمى على رأسى ، وخوفى ، ولاسيما خجلى عليه وعلى نفسى ، كل هذا صدنى عن ان أمد اليه المال • ولاحظ هو ذلك فورا فبادر الى القول :

ـ على كل حال ، لا داعى ، لا داعى ••

ـ بل خذ يا بابا ، سأقول لأمى اننى أضعته ، سأقول ان أبناء الجيران اختطفوه !

ـ حسنا ، حسنا • كنت أعرف ذلك ، أعرف انك ابنة طيبة ذكية •

قال ذلك ، دون ان يكتم فرحه حين أحس بالدراهم فى يده ، وعادت الابتسامة الى شفتيه المرتعشتين ، وأضاف :

ـ انك ابنة صغيرة رائعة ، أنت ملاك صغير • أنت ملاكي الصغير ، هات يدك الصغيرة ••

وتناول يدي يريد تقبيلها ، غير انني انتزعتها منه بقوة • واجتاحني شعور غريب بالشفقة يمازجه شعور بالخجل والعار آخذ يعذبني ! ••• فتركت ابي دون أن استأذنه ، وركضت ركضا حتى بلغت باب البيت ، كأنما يدفعني الخوف دفعا •ودخلت وقد تملكني ذعر مجنون • كان خداى كأنهما من جمر ، وكان قلبي يخفق خفقانا عنيفا • لم يكن شيء من هذا قد وقع لي قبل الآن • ومع ذلك زعمت لأمي ، بجرأة ، أن القطعة النقدية سقطت من يدي في الثلج فلم أستطع أن أجدها• وكنت أتوقع أن تضربني، ولكنها لم تضربني رغم انها استاءت استياء شديدا أخرجها عن طورها في أول الأمر ، لشعورها بفقرنا الفظيع ، فأخذت تقرعني وتؤنبني ، لكنها ما لبثت أن استعادت رباطة جأشها ، واكتفت بأن تلومني على اهمالي ، وقالت انني لو كنت أحبها حقا لعرفت كيف أحافظ على دراهمها • وآلمتني هذه الملاحظة أكثر من الضرب • لقد كانت أمي تعرفني حق المعرفة ، فلاحظت أن حساسيتي أصبحت مرهفة الى حد مرضي ، وانها ان لامتني على هذا النحو المرير ، واتهمتني بأنني لا أحبها ، كان ذلك أوقع في نفسي ، وأولى بأن يجعلني في المستقبل أكثر تيقظا وانتباها •

وعند هبوط الليل ، في الساعة التي يعود فيها أبي الى البيت ، مضيت الى الممر أنتظره على عادتي • كنت في هذه المرة مضطربة أشد الاضطراب • كانت الندامة تملأ كياني كله ، وتقلقني أعنف القلق • وعاد أبي أخيرا ، فسررت بعودته سرورا كبيرا ، كأنما هو يحمل الي العزاء والسلوى • وكان ثملا بعض الشيء ، فقد نظر الي حين رآني نظرة حائرة وغريبة في آن واحد ، وبعد أن قادني الى ركن من الممر ألقى على باب

الغرفة نظرات خائفة ، وأخرج من جيبه قطعة من الحلوى اشتراها لى ، ثم حذرنى من أن أسرق بعد الآن شيئا من نقود أمى ، قائلا ان هذا أمر سيىء ، معيب . وأضاف ان هذا حدث فى هذه المرة لأن بابا كان فى حاجة ماسة الى بضعة دراهم ، وان بابا سيعيد هـــذه الدراهم ذات يوم ، وانني أستطيع يومئذ أن أقول لأمى انني وجدت ما أضعته ، وأن سرقة الدراهم من ماما شيء فظيع ، ينبغى أن لا أعود اليه قط ، بل أضاف انه سينتبه الى هذا الامر بعد الان ، وانني ان أطعته فسوف يأتيني بحلوى أخرى .. بل ذهب الى أبعد من ذلك وقال ان علىّ أن آرثى لحال أمى ، المريضـة ، البائسة ، التى تعمل وحدها لتطعمنا نحن الثـــلاثة . واستمعت الى كلام أبى ، وأنا أرتجف من الخوف ، وقد فاضت دموعى . بلغ انفعـــالى من القوة أننى لم أستطع أن أجيب ولا أن أتحرك . ثم دخل البيت بعـد أن أمرنى بأن لا أبكى وبأن لا أذكر شيئا مما حدث . ولاحظت عندئذ أنه كان فى حالة انزعاج هائل ، هو الآخر . وقضيت السهرة كلها فزعة ، كأنما أنا أترقب خطرا كبيرا ، ولأول مرة لم أجرؤ على أن أنظر الى أبى ، وعلى أن أقترب منه . وكانت أمى تسير فى الغرفة جيئة وذهابا ، وتحدث نفسها كأنها غائبة عن وعيها ، على عادتها . كانت وطأة المرض عليهـا فى ذلك اليوم أقسى ، كانت تعانى نوبة حادة من الاوجاع . وأخيرا انتابتنى حمى من شدة الانفعال الاصم الذى كنت أكابده . وحين أظلمت الغرفة لم أستطع أن أنام ، وهاجمتنى أحلام مزعجة مخيفة ، فأخـــذت أشـهق باكية . واستيقظت أمى على أصوات شهيقى ، فنادتنى اليها وسألتنى عما بى . وبدلا من أن أجيب ، ازداد شهيقى قوة . عندئذ أشعلت أمى الشمعة ، واقتربت منى تحاول تهدئتى ، لاعتقادها بأن حلما أفزعنى ، وأخذت تقول : « كفى كفى ، أيتها الحمقاء .. أتبكين بسبب حلم ؟ كفى ، كفى . » ثم قبلتنى وأرادت أن تأخذنى الى سريرها أنام الى جانبها . ولكننى رفضت . لم

أستطع أن أضع ذراعى على عنقها ، ولا أن أتبعها . كان عذابى يتجاوز كل الحدود ، وودت لو أعترف لها بالحقيقة ، وما كنت لأستطيع أن أمسك عن ذلك ، لولا اننى تذكرت أبى ، وتذكرت أنه حذرنى من افشاء السر !

وقالت أمى ، وهى ترتب سريرى وتغطينى بمعطفها العتيق ، اذ لاحظت اننى أرتعش من الحمى :

ـ مسكينة أنت يانيتوتشكا ! أعتقد أنك مريضة مثل أمك .

ثم تأملتنى بحزن شديد فلم أملك أن أحتمل نظرتها ، فأغمضت عينى ، واستدرت الى جهة الحائط . لا أدرى متى نمت ، الا أن صورة أمى المسكينة وهى تكلمنى ظلت ماثلة أمامى وأنا بين النوم واليقظة . لم أكن شعرت قبل ذلك بألم ثقيل الى هذا الحد . كان صدرى منقبضا انقباضا خانقا ، الا اننى شعرت بتحسن فى صباح اليوم التالى ، وأخذت أتحدث مع أبى دون أن أشير الى حوادث الامس ، لشعورى بأن اشارة كهذه لن تسره . وما لبث أن انبسطت أساريره ، فقد كان هو الآخر ينظر الىّ فى قلق أصم ، حتى اذا رآنى مسرورة ، عاد اليه صفاؤه بل عاد اليه مرح ساذج . وبعد قليل ، خرجت أمى من البيت فلم يستطع أبى أن يكبح جماح نفسه فأخذ يقبلنى بقوة حتى كدت أجن من شدة الفرح ، فصرت أبكى وأضحك فى آن واحد ! .. ثم أخبرنى أنه ، مكافأة على اننى كنت ابنة طيبة عاقلة ، سيرينى شيئا جميلا جدا ، شيئا يسرنى كثيرا أن أراه . ثم فك أزرار سترته فأخرج مفتاحا صغيرا كان معلقا على رقبته بخيط أسود ، وألقى علىّ نظرة غريبة كأنما يريد أن يقرأ فى عينى السرور الذى كان لا بد ـ فى رأيه ـ أن أشعر به . وفتح الصندوق فأخرج منه ، فى كثير من الحذر ، علبةً سوداء ذات شكل غريب ، لم أرها قبل ذلك

أبدا . ولمس العلبة بنوع من الرهبة غير مألوف فيه ، وامحت الابتسامة من وجهه ليحل محلها فجأة مظهر الرصانة والجلال . وأخيرا فتح العلبة الغريبة بالمفتاح ، وأخرج منها شيئا غريب الشكل لم أره قبل ذلك أيضا . وتناول الشيء بيديه في عناية أشبه بالاجلال قائلا : ان هذا هو كمانه . ثم حدثني بصوت خافت رصين حديثا لم أفهمه . والشيء الوحيد الذي بقي في ذهني هو ما كنت أعرفه من قبل من أن أبي فنان ، ومن انه موهوب ، ومن انه سيعزف على كمانه في يوم من الايام ـ بَعْدَ هذا اليوم أو قرب ـ ومن اننا سنصبح يومئذ أغنياء نعيش حياة سعيدة رخية لا يكدرها شيء . وسالت دموع أبي على خديه ، وتملكني أنا انفعال شديد ، وأخيرا طبع على كمانه قبلة رقيقة ثم مده الىَّ لأفعل مثلما فعل . ثم لاحظ انني أتمنى لو أرى الآلة عن كثب ، فأجلسني على سرير أمي ، ووضع الآلة بين يدي . الا انني شعرت أنه كان يرتجف خوفا على الآلة أن أكسرها ، ومع ذلك نقرت على الاوتار نقرا خفيفا ، فأخرجت صوتا ضعيفا ، فرفعت نظري الى أبي قائلة :

ـ هذه موسيقى ..

فقال ، وهو يفرك يديه ، وقد أشرق وجهه فرحا :

ـ نعم ، نعم ، موسيقى . انك صغيرة ذكية ، شجاعة .

غير أنني لاحظت بوضوح ، رغم مداعبته وحماسته ، انه يرتعد خوفا على آلته ، واستولى علىَّ الخوف أنا أيضا ، فبادرت أردها اليه .. فأعادها الى علبتها بعناية كبيرة ، وأغلق العلبة ثم أرجعها الى مكانها في الصندوق . ووعدني وهو يداعب رأسي أنه سيريني الكمان مرات أخرى كلما كنت عاقلة مطيعة مثلما أنا الآن .

هكذا طرد الكمان حزننا كلينا • ومع ذلك همس أبى فى أذنى ، حين أتى المساء ، أن لا أنسى ما أوصانى به أمس •

وعلى هذا النحو كبرت فى بيتنا البائس • وكان حبى لأبى (والافضل أن أقول « هيامى » بأبى ، لأننى لا أعرف كلمة قوية تستطيع أن تعبر تعبيرا كاملا عن هذه العاطفة الجارفة التى كانت تعذبنى وتدفعنى نحو أبى دفعا) أقول : كان هيامى بأبى يشتد ويشتد حتى أصبح نوعا من الهوى المرضى ! •• صرت لا أجد فى الحياة من متعة غير أن أفكر فيه، وأن أحلم به •• صرت لا أفكر الا فى شىء واحد ، هو أن أعمل كل ما أستطيع عمله لأهيىء له ولو أقل مسرة • كم من مرة انتظرت عودته على السلم ، وأنا أرتجف من البرد ، لا لشىء الا أن أحس وجوده وأراه قبل الموعد بلحظة • وكنت أجن من الفرح حين يتفق له أن يمسنى بمداعبة عابرة • على ان فتور عاطفتى نحو أمى كثيرا ما كان يسبب لى حزنا أشبه بالعذاب • كنت اذا نظرت اليها امتلأت نفسى هولا • الا اننى لم أكن أستطيع أن أظل محايدة فيما كان يقوم بين أبوى من خصومات لا تنقطع • كان لابد لى أن أختار احدهما فأتحزب له • وقد تحزبت لهـذا الانسان نصف المجنون ، لأنه كان فى نظرى انسانا بائسا مضـطهدا ، ولأنه قد خاطب خيالى منذ البداية • ومع ذلك ، من يدرى ؟ لعلى تحزبت له لغرابتـه الشديدة ، وحتى لغرابة مظهره ، فان هذا المجنون لم يكن صارم الوجه حزين الملامح كأمى ، بل كان يضحك ويهرج كأنه طفل ، ولعلنى أحببته لأننى لم أكن أخشاه كما كنت أخشى أمى ، ولأننى لم أكن أحترمه كما كنت أحترم أمى ، بل أنظر اله نظرتى الى ندٍ من أندادى ، أو الى ترب من أترابى •• حتى لقد شعرت شيئا فشيئا اننى سيطرت عليـه ، اننى

أخضعته ، وانني أصبحت له حاجة لا غنى عنها • ولم يصبنى زهو وغرور، ولكنه الشعور بالظفر • وكنت من شدة تقديرى لمنزلتى فى نفسه بحيث كدت فى بعض الأحيان أن أدل عليه ، وأتظرف له • الحق أن فى تعلقى الغريب هذا شيئا يذكر بالروايات • الا أن هذه الرواية لم يقدر لها أن تدوم طويلا ، فانني ما لبثت أن فقدت أبى وأمى • لقد انتهت حياتهما بفاجعة فظيعة ما زالت ذكراها محفورة فى نفسى ترهقها وتمضها ، واليكم كيف وقعت الفاجعة :

الفصل الثالث

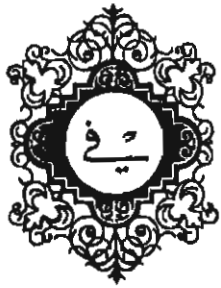

تلك الفترة ، راج فى بطرسبرج أن العازف الشهير على الكمان « س » سيصل الى العاصمة وشيكا ، فأحدث هذا النبأ فى بطرسبرج ضجة كبيرة ، واهتز له العالم الموسيقى اهتزازا كبيرا ، وأقبلت المغنيات والشعراء والرسامون ومحبو الموسيقى يختطفون تذاكر الحفلة اختطافا ، بل وأقبل على ذلك أناس ممن يصرّحون فى كبرياء متواضعة بأنهم لا يفهمون من الموسيقى شيئاً ! .. كانت صالة الحفلة لا تتسع لعُشر هؤلاء المتحمسين الذين كانوا على استعداد لأن يدفعوا ثمن تذكرة الدخول خمسة وعشرين روبلا . ان شهرة « س » ، وشيخوخته التى يتوجها المجد ، وموهبته النضرة التى لم تجففها الايام ، وما ذكر عنه من أنه لم يمسك قوسه أمام الجمهور الا نادرا منذ زمن ، ومن انه يقوم بآخر جولة له فى أوروبا قبل أن ينقطع عن العمل نهائيا ، كل ذلك كان له أثره فى حفز الناس الى حضور الحفلة . الخلاصة : لقد اهتزت بطرسبرج لهذا النبأ اهتزازا قويا عميقا .

وقد سبق أن قلت أن وصول كل عازف جديد على الكمان، أو كل موسيقى شهير ، كان يولد فى ابى شعورا مؤلما . كان دائما اول المقبلين على سماع اى فنان يمر بالمدينة ، ليحكم على موهبته. وكثيرا ماكان يمرضه التناء الكثير على القادم الجديد ، ثم لا يجد الراحة والطمأنينة الا حين يستطيع أن ياخذ على عزفه عيبا من العيوب ، فاذا هو يطفق يذيع رايه فيه ، اينما استطاع ذلك ، فى سخرية مرة لاذعة . لقد كان هذا المهووس المسكين لا يرى فى الدنيا الا موهبة واحدة ، هى موهبته ، ولا يرى فى الدنيا الا فنانا واحدا ، هو شخصه . ومع ذلك فان وصول « س » ، الموسيقى العبقرى ، قد أحدث فى نفسه نوعا من الرعب . وينبغى ان نذكر هنا انه ليس بين الموسيقيين المشهورين الذين مروا ببطرسبرج خلال السنين العشرة الاخيرة موسيقى واحد يمكن أن تقاس موهبته بعبقرية « س » . كان أبى اذن لا يعرف شيئا البتة عما عسى أن يكون عزف موسيقى كبير عرف فى أوروبا كلها بأنه من كبار الفنانين .

وقد رووا لى انه ما ان أذيع نبأ وصول « س » الى بطرسبرج ، حتى ظهر أبى من جديد فى كواليس المسرح ، وقالوا لى أيضا انه كان يبدو منفعلا أشد الانفعال ، وانه كان يسائل الناس قلقاً عن « س » ، وعن الحفلة المزمع احياؤها ، وهو أشد ما يكون اضطرابا . وكان ابى قد غاب عن هذه الامكنة منذ مدة طويلة ، فلما ظهر فيها من جديد أثار انتباه الناس والتفاتهم ، ثم ما لبث أن قال له أحدهم مستفزا :

ـ اسمع يا ياجور بتروفتش ، لن تسمع فى هذه المرة ، ياعزيزى ، موسيقى « بالبه » . وانما ستسمع موسيقى تحرمك لذة الحياة !

وقد أكدوا لى ان لونه قد امتقع لدى سماع هذه الكلمة . الا انه حمل نفسه على الابتسام وقال :

ـ سنرى • ليس فى وسع غريب آت من بعيد أن يخدع الناس فى حقيقة أمره مدة طويلة • أظن أن « س » قد عزف فى باريس • والفرنسيون هم الذين أطاروا اذن صيته ، ونحن نعرف قيمة هؤلاء الفرنسيين !

على هذا النحو كان يتجمع حوله الناس ، ويأخذون فى الضحك • لقد كان المسكين يشعر بالحنق يعضه عضا ، الا انه كان يتحامل على نفسه، ويتجلد ، ويؤكد انه ليس فى نيته أن ينتقد ، وأن الانتظار لن يطول ، ما دامت الحفلة ستقام بعد غد •

وقد روى لى « ب » انه ، فى ذلك المساء نفسه ، لقى الامير «ك» ، وهو من هواة الموسيقى المعروفين الذين يفهمون الفن ويتذوقونه تذوقا عميقا ، وكان الاثنان يسيران معا وهما يتحدثان عن القادم الجديد ، فاذا « ب » يلمح أبى فجأة ، عند منعطف أحد الشوارع ، واقفا أمام أحد المخازن يحدق فى اعلان ملصوق على البلور ، يعلن بأحرف كبيرة عن حفلة « س » •

فقال «ب» للامير وهو يدله على أبى :

ـ هل ترى هذا الشخص ؟

فسأله الامير :

ـ من هو هذا الشخص ؟

ـ انك تعرفه • هو يافيموف الذى حدثتك عنه غير مرة ، والذى أردت أن تتفضل عليه بحمايتك •

فهتف الامير قائلا :

ـ آ ... أهذا هو ؟ نعم لقد حدثتنى عنه كثيرا .. يقال انه انسان عجيب ، لكم يشوقنى أن أسمعه .

فأجاب « ب » :

ـ كلا ، ان ذلك لايستحق العناء . ان الاستماع اليه مؤلم . لاأدرى ما هو الاثر الذى يمكن أن يحدثه فى نفسك . أما أنا فانه يمزق قلبى تمزيقا . ان حياته ماساة محزنة . اننى أعرف حقيقة نفسه . ورغم انحداره الى الدرك الاسفل ، لم تمت عاطفتى نحوه موتا تاما . لقد قلت منذ هنيهة ، يا سيدى الامير ، ان سماعه لا بد أن يكون أمرا شائقا . هذا صحيح . الا انه يحدث فى النفس شعورا مؤلما قبل كل شىء . انه أولا انسان شاذ ، وهو عدا هذا مجرم ثلاث مرات : مجرم فى حق نفسه اذ أفسد حياته ، ومجرم فى حق امرأته وفى حق ابنته اللتين أفسد حياتهما أيضا . اننى أعرفه . لو أدرك جريمته لمات على الفور .. وهذا هو الامر الفظيع فى المأساة كلها : انه منذ ثمانى سنين يكاد يدرك ذلك ، وهو منذ ثمانى سنين فى صراع مع ضميره !

ـ وهو يعيش حياة بائسة ؟

ـ نعم . والبؤس سعادة له ، لأنه حجة يتعلل بها ، فهو يستطيع الآن أن يزعم لكل انسان ان الفقر هو الذى يحول بينه وبين الوصول الى قمة المجد ، وانه لو كان غنيا لاستطاع أن يتفرغ لفنه ، ولأمكن أن يعرف الناس عندئذ ، على الفور ، من هو وما قيمته . لقد تزوج يحدوه أمل عجيب هو أن تستطيع الروبلات الالف التى كانت تملكها زوجته أن تقيله من عثرته . لقد تصرف على هذا النحو كانسان مجرد من الحس العملى ، كشاعر ، وكان هذا شأنه فى سائر حياته على كل حال . هل تعرف ماذا يردد فى كل يوم منذ ثمانى سنين ؟ انه يدعى أن امرأته هى المسئولة عن

جميع مبائسه ، انها هى التى تمنعه من الوصول الى المجد . ثم هو يعقد ذراعيه ويأبى أن يعمل ، ولو انتزعت منه امرأته لأصبح بلا سلاح البتة . هذه سنين ثمان لم يلمس خلالها كمانه ، لماذا ؟ لأنه كلما أمسك بقوسه شعر فى أعماق نفسه انه لا شىء . حتى اذا عاد فأراح قوسه فى مكانه ، رجعت اليه آماله كلها ، وأصبح واثقا من انه موهوب . ذلك انسان حالم : انه يتخيل أن معجزة ستتحقق فجأة فتجعل منه موسيقيا شهيرا . شعاره : « اما أن أكون قيصر ، واما أن لا أكون شيئا ! » .. كأنما يستطيع المرء أن يصبح قيصر فى طرفة عين ! .. وحين يصبح شعور كهذا الشعور هو الشاغل الوحيد الذى يملأ رأس فنان ، لا يبقى هذا الفنان فنانا ، لأنه يكون قد فقد الغريزة الفنية الاساسية ، أعنى حب الفن للفن ، هذا الحب الذى لا شأن له بالمجد ولا بغير ذلك . أنظر الى « س » مثلا : انه متى أمسك بقوسه غاب عن كل شىء فى الوجود الا الموسيقى ، والشىء الذى يحتل المكانة الاولى عنده بعد الموسيقى انما هو المال . أما المجد فانه لا يأتى الا فى المرتبة الثالثة فيما أعتقد . انه آخر مشاغله . هل تعرف ما الذى يشغل بال هذا البائس يافيموف فى هذه اللحظة ؟ انه يكرر على نفسه هذا السؤال السخيف ، المضحك ، المحزن : أهو متفوق على « س » أم أن « س » متفوق عليه ؟ لا شىء غير هذا السؤال يشغل باله . لأنه يظل مقتنعا رغم كل شىء بأنه أعظم موسيقى فى العالم ! .. ولو برهنت له على انه ليس أعظم موسيقى فى العالم فأنا كفيل لك بأنه سيموت على الفور ، كأن صاعقة سقطت على رأسه ؟ .. لا شىء أفظع من التحرر من فكرة ثابتة ، وخاصة حين يكون المرء قد وقف عليها حياته كلها ، فى ايمان خطير عميق .. على أن يافيموف قد بدأ بداية صادقة فى الواقع .

فقاطعه الامير قائلا :

ـ لا شك أن مشاهدة انفعاله لدى سماع « س » أمر شائق .

فأجاب « ب » سادرا :

ـ نعم . بل لا . انه سيستعيد ثقته بنفسه فورا . لأن جنونه أقوى من الحقيقة . سيجد لنفسه مهربا على الفور .

ـ تعتقد ؟

وفى هذه اللحظة وصلا الى أبى الذى أراد أن يتوارى حالا . الا أن « ب » أمسك به وأخذ يكلمه . ساله هل ينوى آن يذهب الى الحفلة ليسمع « س » ، فأجاب أبى ـ بلهجة من لا يحفل بهذا الموضوع ـ قائلا انه لا يدرى هل يذهب أو لا يذهب ، وانه مشغول بأمر أهم من حفلات الموسيقيين الاجانب ، وانه سينظر فى الامر على كل حال ، وانه لا مانع عنده من الذهاب اذا وجد فى وقته ساعة من فراغ ، وانه قد يذهب مع ذلك . قال هذا ثم ألقى نظرة على « ب » وعلى الامير ، ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة ، ورفع قبعته ، وحنى رأسه ، وتركهما زاعما أنه فى عجلة من أمره ! ..

أما أنا فكنت قد لاحظت اضطراب أبى منذ الليلة البارحة .

كنت أجهل سبب هذا القلق الذى عصف به ، على وجه الدقة ، الا اننى رأيت ذلك القلق الفظيع يقضمه قضما . حتى ان أمى لاحظت ذلك . وكانت يومئذ مريضة جـدا ، بل كانت لا تكاد تقـوى على الوقوف على قدميها . وكان أبى لا ينى يدخل ويخرج بلا انقطاع . وفى الصباح جاءه ثلاثة أشخاص أو أربعة من رفاقه القدماء ، فاستغربت ذلك ، ولا سيما انه لم يكن يغشانا أحد تقريبا ، عدا كارل فيودوروفتش ، بعد أن هجرنا جميع الناس منذ انقطع أبى عن التردد على كواليس المسرح . وأخيرا جاء كارل

فيودوروفتش راكضا ، لاهثا ، يحمل فى يده « برنامجا » . كنت اشهد هذه الحركة غير المألوفة ، وأصغى اليها ، بانتباه عميق ، وأنا فى حالة تأثر وانفعال ؛ كأننى السبب فى هذا القلق الذى أقرؤه فى وجه أبى . وددت لو أعرف ما الأمر ، وسمعت لأول مرة اسم « س » ، ثم فهمت انه لا بد من خمسة عشر روبلا على أقل تقدير لمشاهدة حفلة « س » . وأذكر أيضا أن أبى لم يستطع أن يكبح سورة اضطرابه ، فكان يقوم بحركات كثيرة ، ويردد قائلا انه يعرف هذه العبقريات التى تأتى من البلاد الاجنبية، انه يعرف هذه المواهب الفذة ، يعرف قيمتها ، ويعرف « س » أيضا ؛ يعرف انه يهودى بائس ، جاء الى روسيا ـ كغيره ـ باحثا عن المال ، وان الروسيين أناس سذج يصدقون جميع الاكاذيب ؛ لا سيما حين يكون الفرنسيون ملفقيها ! .. وكنت قد تعلمت معنى هذه الكلمات : « لاموهبة له » . وبعد أن ضحك الزائرون كثيرا ، انصرفوا الى شأنهم ، وتركوا أبى لهياجه العنيف . وأردت أن أسليه عن حزنه فاقتربت منه ، وأمسكت بالبرنامج وقرأت فيه بصوت عال اسم « س » . ثم نظرت الى أبى جالساً على الطرف الآخر من الطاولة مستغرقاً فى التفكير ، وقلت له ضاحكة : « لا شك أن هذا الرجل مثل كارل فيودوروفتش ، لن يخرج منه شىء حسن ، هو الآخر » .. فانتفض أبى كأنما استولى عليه خوف مفاجىء ، وانتزع البرنامج من بين يدى ، وأخذ يصرخ ويضرب الارض بقدمه ، ثم تناول قبعته وهم بالخروج ، الا أنه ما لبث أن عدل عن ذلك ، والتفت الىّ ، ودعانى أن أوافيه فى الممر . وهناك قبلنى وأخذ يردد لى ، بنوع من الارتباك ، بنوع من الخوف لم يستطع أن يكبحه ، اننى ابنة طيبة عاقلة ، واننى لاأحب له طبعا أن يتألم ، وانه يعوّل علىّ فى أمر هام . ولكنه لم يقل لى ما هو هذا الامر الهام . على ان حديثه آلمنى ، فقد

أدركت ان كلماته وملاطفاته ليست صادقة ، وكان هذا وحده كافيا لاشاعة الاضطراب فى نفسى ، وهكذا أصبح قلقى عليه عذابا ممضا .

وفى اليوم التالى ـ وهو اليوم الذى سبق موعد الحفلة ـ بدا لى ابى أثناء الطعام منهك الاعصاب محطما . لقد حدث فى نفسه تغير رهيب . كانت نظراته تنتقل بينى وبين أمى بغير انقطاع . ولشد ما كانت دهشتى كبيرة حين رأيته يتحدث الى أمى ، لا سيما وانه كان لا يكاد يخاطبها بكلمة واحدة . وبعد أن فرغنا من الطعام لاطفنى كثيرا ، وجعل يدعونى فى كل لحظة الى الممر منتحلا مختلف الاعذار ، وهناك يأخذ ينظر من حوله كانما هو يخشى أن يقبض عليه بالجرم المشهود ، فاذا اطمان الى انه ما من أحد يراه ، طفق يداعب رأسى ويقبلنى ويردد على مسامعى انىابنة طيبة ، واننى أحب بابا من غير شك ، واننى سأفعل كل ما يطلبه الى مافى ذلك ريب . فأسلمنى هذا الى قلق لا يطاق . حتى اذا دعانى الى الممر أخيراً ، للمرة العاشرة ، اتضحت الامور : فى هذه المرة نظر أبى الى جميع الجهات نظرة مرتابة ، ثم سألنى وقد تقبض وجهه ، هل أعرف أين خبأت أمى الخمسة والعشرين روبلا التى أتت بها فى صباح الامس ؟ .. فما ان سمعت هذا السؤال حتى شعرت كأننى أموت من شدة الخوف ، الا أن أبى وقد سمع صوتا على السلم ، ارتاع فتركنى حيث أنا وهرب . ولم يعد الا فى المساء ، حيث جلس على كرسى وقد بدا عليه الاضطراب وانشغال البال ، وأخذ ينظر الىّ بنوع من الحياء الوجل . وتملكنى خوف شديد حتى صرت أحاول أن أتحاشى نظرته . وأخيرا نادتنى أمى ، وكانت فى السرير طوال اليوم من وطأة المرض ، فأعطتنى قطعة نقدية ، وأرسلتنى أشترى لها من الدكان قليلا من الشاى والسكر . كان الشاى لا يشرب الا نادرا فى بيتنا ، اذ كانت أمى لا تسمح لنفسها بهذا الترف ، ونحن فيما نحن فيه من الفقر ، الا حين تشعر أنها مريضة محمومة .. فأخذت

الدراهم ، وما ان خرجت الى الممر حتى جعلت أعدو ، خشية أن يلحق بى أبى • الا ان ما كنت أخشاه قد وقع : فقد أدركنى أبى فى الشارع وأعادنى الى السلم وهناك قال لى بصوت مرتعش :

ـ نيتوتشكا ، حبيبتى ، اسمعى ، أعطينى هـذه الدراهم ، وغدا سوف •••

فارتميت على ركبتيه وأخذت أتوسل اليه قائلة :

ـ بابا ، بابا ، لا أستطيع • لا يجوز • ان ماما فى حاجة الى الشاى• لا يجوز أن تسرق ماما • كلا لايجوز • مرة أخرى ••

فدمدم كأنما هو يهذى :

ـ آ • لا تريدين ؟ لا تريدين ؟ حسنا •• الآن أتركك •• ابقى مع ماما • أما أنا فسأذهب وحدى • هل تسمعين ، أيتها الابنة السيئة ؟ هل تسمعين ؟

ـ بابا • خذ • ما العمل ؟ ستبكى أمى أيضا • وستؤنبنى أيضا •

قلت هذا وأنا أرتعد من الخـوف ، وأضرب كفا بكف ، وأتعلق بذيله •

لم يكن أبى يتوقع هذه المقاومة • على انه أخذ المال ، ولم يستطع أن يحتمل نحيبى ، فتركنى على السلم وهرب • وصعدت السلم • الا أن قواى خانتنى على باب مسكننا ، فلم أجرؤ على الدخـــول ، لم أستطع الدخول • كنت فى حالة ذعر شديد واضطراب فظيع • كان قلبى كأنما انخلع • ووضعت وجهى بين ذراعىّ كما فعلت فى المرة الاولى يوم سمعت أبى يتمنى موت أمى • وبلغ منى الذعر أن أقل صوت على السلم كان

يجلنى كقطعة من الثلج ترتجف • وأخيرا سمعت وقع خطوات سريعه تصعد السلم فعرفت انه أبى •

قال أبى هامسا :

ـ هذا أنت ؟

وارتميت على عنقه •

ـ خذى • خذى دراهمك • ولست أباك بعد الآن • هل تسمعين ؟ لا أريد أن أكون أباك • اذهبى الى أمك • لا أريد أن آخذك معى •

فلما أنهى هذا الكلام دفعنى عنه ، وهرب مرة أخرى هابطا السلم • فركضت وراءه باكية ، أريد أن أمسك به ، وصرخت محتجة :

ـ بابا • أبت العزيز • سأفعل كل ما تريد • أنت تعلم اننى أحبك• خذ • خذ الدراهم • خذها !

الا انه كان قد غاب • بلغت من شدة الذعر أننى ظللت السـهرة كلها محمومة لا أستطيع حراكاً • وأذكر أن أمى كلمتنى ، وجاءت بى الى جانبها ، الا اننى كنت أشبه بمن فقد وعيه ، فما أرى شيئا ولا أسمع شيئا • وأدى ذلك كله الى نوبة : فأخذت أبكى وأعول ، وارتعبت أمى فلم تدر ماذا تصنع • ووضعتنى فى سريرها • وكنت خائفة مما أتوقع ان يقع بين دقيقة وأخرى ، فاذا أنا أنام ، لا أدرى كيف ، متشبثة بعنقها • وانقضى الليل على هذا النحو ؛ فلم أستيقظ الا فى ضحى اليوم التالى ، بعد أن غادرت أمى البيت الى عملها • ورأيت مع أبى فى البيت رجلا غريبا ، وكان الاثنان يتحدثان بصوت عال جدا • وانتظرت أن يذهب الزائر بصبر فارغ ، حتى اذا مضى وأصبحنا وحدنا ، ارتميت على عنق أبى باكية منتحبة، أتوسل اليه أن يغفر لى سلوك البارحة •

فسألنى بلهجة قاسية :

ـ هل تصبحين عاقلة كما كنت فى الماضى ؟

فأجبت :

ـ نعم ، يا أبت • أعدك بذلك • سأقول لك أين تخبىء أمى دراهمها •• لقد وضعتها أمس مساء فى هذه العلبة ، على الرف •

فصرخ أبى منتفضا :

ـ أين ؟ أين ؟

وقفز من مكانه وسألنى مرة أخرى :

ـ أين الدراهم ، تقولين ؟

ـ العلبة مقفلة بالمفتاح ، يا أبت • انتظر حتى هذا المساء • سترسلنى أمى لتبديل الورقة النقدية بقطع صغيرة ، رأيت ذلك بنفسى •

ـ اننى فى حاجة الى خمسة عشر روبلا ، يانيتوتشكا • هل تسمعين؟ خمسة عشر روبلا فقط ! هاتيها اليوم ، وسأردها اليكغدا • وسامضى حالا أشترى لك حلوى ، وجوزا •• ولعبة أيضا • وغدا ، غدا على التاكيد ، أرد اليك الدراهم •• وسأشترى لك حلوى فى كل يوم ، اذا كنت عاقلة فاعطينى خمسة عشر روبلا !

ـ كلا ، يا بابا ، لا أريد حلوى • لن آكل الحلوى اذا جئتنى بها ، سأردها اليك •

قلت ذلك محتجة باكية ، وقد تمزق قلبى من القلق •

أدركت فى تلك اللحظة أن ليس فى قلبه ذرة من رحمة بى ، وانه

لا يحبنى ما دام لا يقيم لعاطفتى نحوه وزنا ، وما دام يظن اننى اخضع لارادته طمعا فى الحلوى ! .. ومع اننى كنت طفلة ، استطعت ان انفذ الى أعماقه نفاذا بلغ من القوة اننى شعرت منذ تلك اللحظة ان عبادتى اياه قد تسممت الى الابد . شعرت اننى لن استطيع ان احبه بعد الان ! .. شعرت اننى فقدت بابا الحبيب القديم الى الابد . اما هو فقد سره وعدى ، بل سحره . لقد رأى اننى مستعدة من اجله لكل شىء ، ويعلم الله ماذا كانت تعنى كلمة « كل » هذه فى خيالى ! كنت اعلم قيمة هذه الدراهم عند أمى المسكينة ، وكنت أعرف العذاب الذى ستلقاه حين تفقدها ، فكان ضميرى يعول من اليأس . الا أن أبى لم يلحظ شيئا من ذلك . كنت أفهم كل شىء . غير أن أبى كان لايرى فى الا طفلا فى الثالثة من عمره . وتملك أبى فرح هذيانى ، فغمرنى بالقبل ، وتوسل الىّ أن لا أبكى ، وأكد لى ، مداعبةً لخيالى ، اننا سنسافر الى مكان بعيد عن ماما فى بحر اليوم نفسه . ثم أخرج البرنامج من جيبه ، وذكر لى ان الرجل الذى سيمضى الى سماعه هذه الليلة انما هو عدوه ، بل أحد أعدائه الألداء ، الا أن عدوه لن يستطيع أن ينتصر عليه ، لا هو ولا غيره . لا شك أنه هو الطفل ، لا أنا ، ما دام يحدثنى بهذه اللهجة عن أعدائه ! .. ولما رأى أننى ظللت صامتة لا أجيب ولا أبتسم كما أبتسم عادة ، تناول قبعته ، ومضى ، كمن حان وقت ذهابه . الا انه قبل أن يتركنى ، قبلنى مرة أخرى . وتبسم لى ، وأشار الىّ اشارة الاتفاق ، كأنه غير واثق منى كل الثقة ، فهو يريد أن يعمل ما ينبغى عمله ليمنعنى من التفكير والتردد .

◆◆◆

سبق أن قلت انه تغير منذ الأمس تغيرا كبيرا حتى لكأنه شخص آخر . كان لا بد له من الحصول على المال لشراء تذكرة ، مهما كلف

الأمر . فقد كان يعتقد أن هذه الحفلة سيكون لها فى حياته تاثير حاسم ، حتى انه حين آراد أن يستولى على الدراهم القليله التى كنت أمسكها بالامس ، لم ينتبه من شدة اضطرابه الى أنها لا تكفى لشراء التذكرة . وقد تجلى اضطراب عقله المحموم هذا ، على نحو أوضح ، اثناء الطعام . كان عاجزا عن أن يستقر فى مكانه ، ولم يلمس الطعام ابدا ، فكان ينهض ، ثم يعدل عن رأيه ، ثم يجلس مرة أخرى ، أو كان يهم أن يمضى ، فيتناول قبعته ثم تستولى عليه حيرة غريبة ، فيبقى فى مكانه لا يتحرك ، ويدمدم بكلام يخرج من بين أسنانه ، أن يلقى علىّ نظرة سريعة ، ويغمزنى بعينه ، ويقوم بحركات واشارات يظهر لى بها حرصه على الحصول على الدراهم الموعودة بسرعة .. لكأنه يحقد علىّ لاننى لم أسرقها من أمى بعد . وأخيرا لاحظت أمى اضطرابه الشاذ ، وجعلت تنظر اليه نظرة استغراب . أما أنا فكنت أشعر بخوف كخوف شخص حكم عليه بالاعدام ! ... فلما نهضنا عن المائدة ، اختفيت فى ركن من أركان الغرفة وأنا أرتعد من الحمى ، وأخذت أعد الدقائق بانتظار اللحظة التى اعتادت أمى أن ترسلنى فيها الى السوق . رباه ! اننى لم أعان فى حياتى بعد ذلك تجربة قاسية هذه القسوة ، وستظل هذه الدقائق محفورة فى ذاكرتى الى الأبد . ان فى الحياة ساعات كأنها تتجمع فيها آلام سنين طويلة برمتها.. كنت أعلم اننى قادمة على اقتراف عمل سيىء . ألم يحاول أبى نفسه أن يوقظ فى نفسى غرائز الخير فى المرة الأولى حين دفعنى الى فعل الشر دون تفكير، ثم هاله عمله فبين لى خطيئتى ، ونصحنى بأن لاأعود اليها ؟ أليس فى وسعه اذن أن يدرك الآن ان من الصعب أن يغش نفسا ظمأى الى المشاعر الواضحة ، نفسا أوجست الخير والشر وفكرت فيهما طويلا ؟ على اننى أدركت انه اذا كان يدفعنى الآن الى اقتراف الشر مرة أخرى ، فيضحى بطفلة بائسة لاحيلة لها فى الدفاع عن نفسها ، ويعرضنى

كذلك لفساد الضمير ، فلا شك انه خاضع لسلطان ضرورة هائلة ! ..
ثم تساءلت من الركن الذى كنت مختبئة فيه : « لماذا يريد ان يكافئنى على عمل ساقوم به طواعية ؟ » .. وهاجمتنى احساسات جديدة ، وآمال جديدة ـ خرجت لا أدرى من أين ـ وحاصرتنى أسئلة جديدة . ثم اذ بى فجأة لا افكر فى أمى ، ولا فى الالم الذى ستعانيه حين تفقد آخر درهم مما حصلته بعرق الجبين . وفجأة تركت أمى العمل الذى كانت آخذة نفسها به فى عناء ، ونادتنى . فاقتربت منها وأنا أرتعد ارتعادا شديدا ، فأخذت الورقة النقدية من الخزانة الصغيرة وناولتنى اياها وهى تقول :

ـ اذهبى يا نيتوتشكا . ولكن أرجوك ، أناشدك الله ، أن تنتبهى الى المبلغ الذى سيرده اليك البائع . اياك أن يسرقوك ، وحذار أن تضيعى شيئا .

فألقيت على أبى نظرة متوسلة . الا أنه هز رأسه ، وابتسم ابتسامة تشجيع ، وأخذ يفرك يديه من فراغ صبره ، فان الساعة تدق الآن السادسة ، وستبدأ الحفلة فى السابعة . لقد سبب له الانتظار ، هو الآخر ، ألما كثيرا .

ووقفت على السلم أنتظره . لقد بلغ انفعاله وتعجله من القوة أنه أسرع ورائى دون أى احتياط أو تحفظ . وناولته الدراهم . كان السلم مظلما جدا ، فلم أستطع أن أتبين وجه أبى ، الا أننى شعرت بأنه يرتجف وهو يتناول المال . وظللت متجمدة فى مكانى لا أستطيع حراكا ، ولم أنتبه الى نفسى الا حين طلب الىّ أن أصعد الى البيت لآتيه بقبعته . كان لا يريد أن يعود الى البيت .

فقلت له بصوت منقطع ، وكان أملى الاخير هو أن يدافع عنى ، قلت :

ـ بابا ، لماذا لا تصعد معى ؟

ـ لا ... اصعدى وحدك .

ثم هتف ، بعد تفكير ، قائلا :

ـ انتظرى انتظرى . انتظرى ريثما آتى اليك بالحلوى أولا . ولكن اصعدى قبل ذلك ، وأتينى بقبعتى .

شعرت كأن يدا من جليد تقبض على قلبى . فانطلقت من صدرى صرخة ، ثم هربت أصعد السلم ركضا . وحين دخلت الى البيت كنت من الانهيار بحيث لو قلت لأمى ان المال قد سرق لصدقتنى . غير أننى كنت عاجزة عن الكلام . وتهالكت مهدمة على سرير أمى مخبئة وجهى بذراعى . فما انقضت دقيقة على ذلك حتى فتح الباب بهدوء ، وظهر أبى .. لقد جاء لأخذ قبعته . وحزرت أمى فجأة أن شيئا ما قد حدث ، فصرخت بى قائلة :

ـ أين الدراهم ؟ أين الدراهم ؟ قولى . قولى !

ثم حملتنى بقبضة يدها ، ووضعتنى على قدمى فى وسط الغرفة . ولكنى أطرقت ، وسكت ، وأنا لا أكاد أفهم ما وقع لى ، ولا ما يراد منى . وصرخت أمى مرة أخرى قائلة :

ـ أين الدراهم ؟

الا انها اتجهت فجأة نحو أبى ، الذى تناول قبعته ، وسألته :

ـ أين الدراهم ؟ آ ... لقد أعطتك اياها ! .. وضيع . مجرم . مجنون . تريد أن تشقيها هى أيضا ، هى الطفلة . لا . لا . انتظر . لن تذهب هكذا !

ووثبت الى الباب ، فأقفلته بالمفتاح ، ووضعت المفتاح فى جيبها .

ـ هيا . تكلمى . قولى الحقيقة . اعترفى بكل شىء . تكلمى ، تكلمى ، والا فأنا أعرف ماذا أصنع بك !

قالت ذلك بصوت لا يكاد يسمع من شدة الانفعال ، وهى تقبض علىّ ، وتهز ذراعى . فأقسمت فى هذه اللحظة لألزمن الصمت ، ولا أتهم أبى . ورفعت عينىّ نحوه ، مرة أخيرة ، فى حياء . كان يكفينى منه عندئذ نظرة واحدة ، كلمة واحدة ،على نحو ما اتوقع ، على نحو ماأتمنى، حتى أكون سعيدة ، ورغم أى تعذيب ينالنى . الا انه بدلا من ذلك ـ يا رباه ! ـ أمرنى أن أسكت ، باشارة مهددة باردة .. كما لو كان يمكن أن أخشى شيئا من الاشياء فى مثل هذه اللحظة . وشعرت بحلقى يتقبض ، وبأنفاسى تتقطع ، وبساقىّ تلتويان تحتى ، وسقطت الى الارض مغشيا على ، وانتابتنى مرة أخرى النوبة العصبية التى صرعتنى بالامس .

واستيقظت فجأة على طرق باب منزلنا . وفتحت أمى الباب . فرأيت رجلا يرتدى ثيابا موشاة مما يرتديه خدم النبلاء ، رأيته يدخل البيت ، ثم ينظر الينا نظرات تنم عن الدهشة ويسأل عن الموسيقى يافيموف، فيتقدم أبى نحوه ، فيناوله الرجل عندئذ مظروفا ، وهو يقول انه رسول «ب» الموجود الآن فى منزل الأمير سيده . كان المظروف يحتوى على تذكرة ممتازة لحضور حفلة الموسيقى «س» !

ان ظهور الخادم الأنيق الذى يأتى خصيصا من قبل سيده الامير

لدعوة الموسيقى البائس يافيموف ، قد أحدث فى نفس أمى ، فجأة ، تأثيرا كبيرا • قلت فى أول هذه القصة ، ان هذه المرأة البائسة كانت تحب أبى حب العبادة • وكان قلبها ، فى هذه الدقيقة ، رغم السنين الثمانى التى قضتها معه فى شقاء دائم ، لم يتغير أبدا • كانت قادرة على أن تحب زوجها رغم كل شىء • ومن يدرى ! فلعلها اعتقدت فجأة بأن الحظ سيبتسم ، وان كل شىء على وشك أن يتغير • لقد كان يكفى خيالها ظلّ من أمل ، حتى يسترسل فى أحلامه ! لعل عدوى الاحلام المجنونة التى كانت تملأ رأس زوجها قد سرت الى رأسها هى الاخرى ، ولعلها أصبحت مثله تثق بعبقريته ثقة لا تتزعزع ! ومهما يكن من أمر ، فمن المستحيل أن لاتتأثر امرأة ضعيفة بمثل هذه البادرة ، وأن لا تجعلها التفاتة الامير تتخيل فى طرفة عين ألف أمل وأمل • وفى طرفة عين أصبحت مستعدة لأن تلتفت الى زوجها ، لأن تغفر له الحياة البائسة التى قضتها معه ، لأن تغفر له حتى الجريمة الأخيرة التى اقترفها فى حقها وهى افساد طفلتها الوحيدة • لقد أصبحت مستعدة ، فى انطلاقة الحماسة وتجدد الامل ، لان تبرىء زوجها من تلك الجريمة ، فما ترى فيها الا خطيئة بسيطة ، ترجع الى قلة التبصر ، وتأثير البؤس ، وحياة الذل ، وضياع الأمل • الخلاصة : لقد كان كل ما فيها الآن سرورا وامتنانا ، وأصبحت مستعدة لأن تنسى كل شىء فى سبيل زوجها المسكين •

أما أبى فكان لا يستطيع أن يستقر فى مكانه من شدة فرحه • لقد سحرته التفاتة الامير وصديقه «ب» • واقترب من أمى غير متردد ، وهمس فى أذنها بضع كلمات خرجت أمى على أثرها من الغرفة ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل نقودا استبدلتها بالورقة المالية •

فتناول أبى روبلا على الفور ، وقدمه للرسول • وانسحب هذا بعد

اظهار آيات الاحترام المهذب • وخرجت أمي من الغرفة مرة أخرى ، وعادت بعد لحظة « بمكواة » ، فاخذت تكوى قميصا هو أحسن قمصان زوجها ، وتولت بنفسها عقد ربطة عنقه البيضاء التي كانت قد حفظتها في خزانتها ، بعناية ، استعداداً للطوارىء ، مع الرداء الاسود الذي كان قد اشتراه لعمله في المسرح ـ وكان قد أصابه البلى بعض الشيء ـ فلما انتهى أبي من زينته ، تناول قبعته ، وهم أن يخرج ، الا أنه قبل أن يخرج طلب شيئا يشربه • لقد كان ممتقع اللون ، ولم يستطع أن يظل واقفا ، فارتمى على كرسي ، وأتيت له أنا بكأس من الماء • لعل شعور العداوة قد دب من جديد في قلب أمي ، فأخمد حماستها الاولى • ومضى أبي وبقينا وحدنا • ولطوت في أحد أركان الغرفة ، وأخذت أتأمل أمي مدة طويلة ، وأنا صامتة • لم أرها يوما في مثل هذه الحالة : كانت شفتاها ترتجفان ، واحمر خداها الشاحبان فجأة ، ورأيت جسمها يرتعد من حين الى حين • وأخيرا أخذ انفعالها يخرج آهات ، وكلاما متقطعا ، وشهقات صما •

ـ أنا المجرمة ، أنا وحدي المجرمة • ما أشقاني يا رباه ، ماذا ستصبح حين أموت !

قالت ذلك ، وهي واقفة في وسط الغرفة ، كأن صاعقة وقعت على رأسها حين فكرت في ذلك • ثم أردفت تقول ، وهي تضمني الى صدرها وتقبلني :

ـ نيتوتشكا ، صغيرتي البائسة ، من ذا الذي سيعنى بأمرك بعد أن لم أحسن تربيتك ولا ملاحظتك في هذه الحياة التي نعيشها • آه • انك لا تفهمين • هل ستذكرين ما أقوله لك الآن ؟ نيتوتشكا ، قولي ، هل ستذكرينه ؟

فصرخت وأنا أضم يدّي احديهما الى الاخرى باشارة التوسل :

ـ نعم • نعم يا أماه ••

وضمتنى اليها فى قبلة طويلة ، قوية ، كأنما تعذبها فكرة الانفصال عنى •

شعرت كأن قلبى يتمزق •

وسألتها وأنا أبتلع دموعى :

ـ أماه ، أمى الحبيبة : لماذا •• لماذا •• لا تحبين أبى ؟

ولم يسمح لى الشهيق بأن أتم كلامى •

وانطلقت من صدرها صرخة ، ثم استأنفت سيرها فى طول الغرفة وعرضها وقد أخذ حزنها الشديد بخناقها من جديد •

ـ صغيرتى ، صغيرتى المسكينة • رباه • لم ألاحظ أنها شبت من دور الطفولة • انها تفهم الآن كل شىء ، كل شىء • رباه ! أى آثار ستخلف فيها هذه المشاهدة ! وأيةَ قدوةٍ ترى !

ومرة أخرى ، ضربت كفا بكف ، علامة الألم واليأس • ثم عادت الىَّ وارتمت علىَّ ، تغمرنى بسيل من القبل • وأخذت تتناول يدى وتقبلهما ، وتبللهما بدموعها ، وتسألنى أن أصفح عنها ، وأن أغفر لها • لم أر فى حياتى ألماً كهذا الألم • وبدت أخيرا منهوكة القوى ، فسقطت فى نوع من الانهيار • وقضت على هذه الحال ساعة طويلة • ثم نهضت محطمة ، وطلبت الىَّ أن أمضى الى سريرى وأنام • فمضيت الى ركنى ، وتدثرت بغطائى ، ولكنى لم أستطع أن أغفو • لقد كان يعذبنى التفكير فيها ، والتفكير فى أبى • وكنت أنتظر عودة أبى بصبر نافد يمازجه نوع من الرعب • وبعد نصف ساعة تناولت أمى الشمعة واقتربت من سريرى

تريد أن تتأكد انني قد غفوت • فأغمضت عيني تطمينا لها ، وتظاهرت بأنني غارقة في سبات عميق • وبعد أن تأملتني بعض الوقت ، اقتربت من خزانتها سائرة على أطراف الأصابع ، ففتحتها وسكبت لنفسها قدحا من الخمر شربته ، ثم نامت ، تاركة الشمعة مشتعلة والباب مشقوقا ، على عادتها حين يعود أبي متأخرا •

كنت مستلقية على حال من الخدر ، مفتحة العينين رغم النعاس • كنت ما ان أغمض جفني حتى تجتاحني رؤى فظيعة ، فأنتفض مذعورة • وكان خوفي يشتد ويشتد • .

كنت أود لو أصرخ ، الا أن صوتي يختنق في حلقي • وأخيرا ، في ساعة متأخرة جدا من الليل ، سمعت أبي يدفع الباب • لقد كان شاحبا شحوبا فظيعا • كان يهوم في غرفتنا صمت الموت • وكانت الشمعة على وشك أن تذوب كلها ، وهي تضيء مسكننا بنور حزين •

نظرت الى أبي مدة طويلة ، وهو جالس على كرسيه مطرق الرأس، مجمد اليدين على الركبتين في سكون تام • حاولت عدة مرات أن أناديه، الا انني لم أستطع ، فكأنني مشلولة • وأخيرا ، تحول فجأة ، ورفع رأسه، ونهض عن كرسيه ، وظل خلال لحظة من الوقت واقفا في وسط الغرفة ، كأنه بسبيل اتخاذ قرار ما ، ثم تقدم بغتة من سرير أمي ، وانحنى عليها يتنصت ، فلما أيقن أنها نائمة ، اتجه نحو الصندوق الذي يرتاح فيه كمانه ، ففتحه ، وتناول العلبة السوداء ، ووضعها على الطاولة ، ثم نظر مرة أخرى حوله • كان ينظر دون أن يرى ، كانت عيناه في اضطراب لم أعهد مثله فيهما من قبل •

وهم بتناول كمانه ، الا انه سرعان ما تركه ، وعاد الى الباب يقفله ، ثم لاحظ أن الخزانة مفتوحة ، فاتجه اليها بخطى كخطى الذئب ،

وراى القدح ، فملاه خمرا وشربه • ثم عاد مرة ثانية الى كمانه ، فتناوله، ليتركه من جديد ، ومضى الى سرير امى مرة اخرى • وقبعت انتظر ما سيقع ، وانا اشد ما اكون انهيارا ••

واصاخ السمع مدة طويلة جدا ، ثم رفع الغطاء فجاة عن وجه امى، ومد اليه يده يجسه • ارتجفت • وازداد انحناؤه على رأس أمى حتى لامسه بوجهه • ولما نهض عنه رأيت ابتسامة صفراء رهيبة مرعبة تطوف فى وجهه • ثم أرجع الغطاء على رأس النائمة وعلى قدميها المكشوفتين ، بهدوء ورفق وعناية • أخذت أرتعد ، وقد تضاعف خوفى وذعرى : خفت من أمى ، من نومها العميق هذا العمق • خفت من الخطوط المتجمدة التى يرسمها جسمها تحت الغطاء • ودبت فى نفسى فكرة فظيعة وقعت منى موقع الصاعقة •

ولما فرغ أبى من جميع أعمال التمهيد هذه ، عاد الى الخزانة ، وافرغ فى جوفه باقى الزجاجة • كان يرتجف كورقة فى مهب الريح ، حتى اذا عاد الى الطاولة كان من الشحوب بحيث لا يُعرف • وتنال كمانه• لقد رايت هذه الالة من قبل ، وكنت أعرف فيم تستعمل ، ومع ذلك فقد كنت أتوقع أمرا رهيبا ، فظيعا •• وانتفضت حين سمعت أول صوت • لقد أخذ أبى يعزف • الا أن الاصوات كانت تأتى متقطعة • كان يتوقف فى كل لحظة ، كأنما هو يستجمع ذكرياته • وأخذ ينظر الى السرير نظرة غريبة • كان هناك ، على السرير ، شىء يزعجه • وعاد مرة أخرى الى السرير • وأخذت ألتهم بعينى كل حركة من حركاته ، وقد تملكنى خوف لا اسم له !

وفجأة ، أخذت يداه تجسان النائمة ، بسرعة ، وراودتنى الفكرة نفسها مرة أخرى كالصاعقة : لماذا تنام أمى نوما عميقا هذا العمق ؟ كيف لا تستيقظ على يدى أبى تجسانها هذا الجس ؟ وأخيرا رأيت أبى يجمع

كل الأشياء التى تقع تحت يديه : معطف أمى العتيق ، معطفه هو ، قميص نومه ، حتى الملابس التى خلعتها حين نمت ، ثم يضعها جميعا فوق أمى حتى اختفت تحتها تماما • وظلت أمى متمددة ، لم يختلج لها عضو !

لقد كانت تنام نوما عميقا •

وحين فرغ من ذلك ، أطلق آهة من يتخفف من عبء • الآن لن يزعجه أحد • ومع ذلك ما زال هناك شىء يقلقه • وغير مكان الشمعة • وجلس أمام الباب ، مديرا ظهره للسرير • وأخيرا تناول كمانه بحركة يائسة ، وأمسك بقوسه ، وبدأت الموسيقى •

ان هذه الموسيقى لم تكن موسيقى •• ما زلت أتذكر كل شىء تذكرا تاما ، حتى أبسط حركة • ما زلت أتذكر كل ما أسر انتباهى وقتئذ • كلا ، لم تكن تلك موسيقى شبيهة بما سمعت بعد ذلك من موسيقى •• لم تكن تلك أصوات كمان ، لقد كانت صراخا دوى فى منزلنا المظلم لاول مرة • من الممكن أن تكون حالتى المرضية وقتئذ قد ضخمت الأمور، ومن الممكن أن تكون حواسى فى تلك اللحظة مضطربة مشوشة • الا أننى مقتنعة بأننى سمعت آهات وصرخات انسانية ، ونحيبا •• لقد كان يتفجر من هذه الأنغام ألم فظيع ، حتى اذا زمجرت نهاية اللحن ، بدت تلف كل شىء فى آن واحد : كل هول النحيب ، كل عذاب القلق ، كل الاحتضار اليائس •

ولم أستطع أن أتجلد أكثر مما تجلدت • فوثبت من مكانى مرتعدة، وقد أغرق الدمع وجهى ، فارتميت على أبى ، وطوقته بذراعى ، وأنا أعول من الخوف • فأطلق أبى صرخة قوية ، ووضع كمانه على الارض• وكمن فقد صوابه ، أخذ يرسل نظرته التائهة الطائشة فى كل مكان باحثا عن

سلاح ما • ثم تناول كمانه فجأة ، وهمّ أن يهوى به على رأسى ••• ولو قد انقضت ثانية أخرى لهوى بالكمان على رأسى ، فحطمنى فى مكانى • الا أننى صرخت متوسلة :

ـ بابا • بابا •

فتعرف صوتى ، وأخذ يرتجف كورقة ، وتراجع الى الوراء خطوتين •

ثم حملنى من كتفى ، وقال :

ـ آ • أنت هنا • اذن لم ينته كل شىء • اذن ستبقين معى •

فقلت متوسلة من جديد :

ـ أبت • أبت • لا تنظر الى هكذا • لو تعرف كم أنا خائفة ! آه ••

وأثرت فيه دموعى • فوضعنى برفق على الارض ، ونظر الىّ بضع ثوان نظرة فاحصة تريد أن تعرف وأن تفهم • ثم كأن فكرة فظيعة راودته فجأة ، فتفجرت من عينيه المضطربتين دموع سخينة ، وانحنى علىّ • وأخذ ينظر فى وجهى فاحصا • فكررت قائلة ، وأنا شبه مجنونة :

ـ بابا • بابا العزيز • لا تنظر الىّ هكذا • بابا ، لنذهب من هنا ، لنذهب بسرعة • لنذهب •

ـ نعم • لنذهب • لنذهب • آن الأوان • لنذهب يا نيتوتشكا • بسرعة ، بسرعة •

وتحرك حركة من فهم فجأة ما بقى عليه أن يعمله • فألقى على الغرفة نظرة مستديرة ، ولمح وشاح أمى ساقطا على الارض ، فرفعه ،

ووضعه فى جيبه ، ثم رأى قبعتها فحملها أيضا ، وخبأها تحت ثيـــابه ، كمسافر يزمع رحلة طويلة ، فيأخذ كل ما قد يحتاج اليه .

أما أنا ، فبعد أن ارتديت ثوبى بسرعة ، أخـــذت أجمع ما بدا لى ضروريا للرحلة . ثم سألنى أبى :

ـ هل انتهيت من أخذ كل ما يجب ؟ هـــل هـــذا كل شىء ؟ هل انتهيت من كل شىء ؟ اذن فلنذهب بسرعة .

وحزمت متاعى بسرعة ، ولفعت رأسى بوشاح . الا اننى فى اللحظة التى أوشكت أن أخرج فيها ، تذكرت أن على أن أحمل اللوحة المعلقة على الحائط ، ووافق أبى على ذلك فورا . انه الآن هادىء ، يتكلم همساء ويردد أن علينا أن نمضى بسرعة . كانت اللوحة معلقة فى مكان عال جدا من الجدار . فتعاونا معا على وضع كرسى أسندناه الى الحائط ووضعنا فوقه مقعدا صغيرا ، حتى استطعنا بفضل هذه السقالة وبفضل جهودنا المشتركة أن ننزل اللوحة من مكانها . وبعد ذلك لم يبق علينا الا أن نسير . وأمسك أبى بيدى ، الا انه استوقفنى حين أوشكنا أن نجتاز عتبة الغرفة . وحك جبينه مدة طويلة كمن يحاول أن يتذكر ما بقى عليه أن يعمله . وأخيرا وجد ما كان يبحث عنه : مضى الى سرير أمى ، فتناول من تحت مخدتها مفتاح الخزانة الصغيرة ، وراح ينبش فى هذه الخزانة على عجل ، ثم عاد يحمل الىَّ بضعة دراهم وجدها فى قاع الدرج ، وقال لى مدمدما:

ـ خذى هذا ، احتفظى به . لا تضيعيه . حذار أن تضيعيه .

وقد دس الدراهم ، أول الامر ، فى يدى ، الا انه غيَّر بعد ذلك رأيه ، فاستردها منى ؟ ووضعها فى قميصى . ما زلت أتذكر الرعدة التى سرت فى جسمى حين شعرت ببرودة الدراهم على جسدى . أعتقد اننى

فى تلك اللحظة انما أدركت قيمة المال • لقد انتهت كل تحضيراتنا الآن• ومع ذلك استوقفنى أبى مرة أخرى •

قال وهو يستجمع أفكاره فى جهد :

ـ نيتوتشكا • اسمعى يا بنيتى الصغيرة • ولكن نسيت • ماذا ؟ ماذا يجب أيضا ؟ ها • نعم • نعم • تذكرت ، تعالى • هلمى يا نيتوتشكا •

وقادنى الى الركن الذى وضعت فيه الصور ، وأمرنى أن أركع •

ـ صلى يا بنيتى • هذا أولى بك • هذا أولى بك • نعم هـذا أولى بك •

قال ذلك هامسا وهو يرينى الأيقونة ، ويلفنى بنظرة غريبـة • ثم أضاف بصوت متوسل :

ـ صلى • صلى •

فركعت ، وضممت يدى احديهما الى الاخرى ، ثم لم ألبث ـ وقد خنقنى الخوف ـ ان وقعت على الارض لا أعى ، وبقيت على هذه الحال بضع دقائق • ثم استجمعت قواى كلها ، ووجهت عاطفتى كلها الى الصلاة، غير أن الخوف ظل أقوى من كل ذلك ، فنهضت وقد اجتاحنى حـزن فظيع • وددت منذ تلك اللحظة أن لا أتبع أبى ، لقد كان يخيفنى •• وددت لو أبقى • ثم انفرجت شفتاى عن سبب عذابى الشديد فقلت وقد تفجر دمعى غزيرا :

ـ وماما ؟ ماذا بها ؟ أين هى •• أين ماما ؟

ولم أستطع أن أتم كلامى من شدة الانتحاب •

فلما رآنى أبكى ، أخذ يبكى هو الآخر •

ثم أمسك بيدى ، وقادنى الى السرير ، فرفع كومة الملابس • ورفع الغطاء • رباه • انها ترقد ، باردة ، صفراء الوجه •• فارتميت عليها كالمجنونة ، لأطوقها بذراعى • وأمرنى أبى أن أركع مرة أخرى ، وهو يقول هامسا :

ـ انحنى يا بنيتى ، قولى لها وداعا ••

انحنيت باحترام عميق ، وانحنى أبى فى الوقت نفسه • لقد كان شاحبا شحوبا رهيبا ، وكانت شفتاه تتحركان بهمس • قال وهو يشير الى الجثمان بيد مرتعشة :

ـ لست أنا ، يا نيتوتشكا ، لا ، لست أنا • هل تسمعين ؟

لست أنا الذى فعلت هذا • لست بمجرم • تذكرى هذا ، يانيتوتشكا •

دمدمت ، وقد بلغ بى الذعر حداً لم أعرفه من قبل :

ـ لنمض ، يا أبى ، آن الأوان ••

قال :

ـ نعم ، آن الأوان ، آن الأوان •

ثم أمسك ذراعى بقوة ، وقادنى الى خارج الغرفة •

ـ هلمى يا نيتوتشكا • لقد انتهى كل شىء ، الحمد لله •

وهبطنا السلم ، واستيقظ البواب ، ففتح لنا الباب وهو ينظر الينا نظرة ارتياب • واجتاز أبى العتبة بسرعة كبيرة ، تحاشيا لأسئلته ، ولم أستطع أن ألحق به الا بصعوبة • وبعد أن سرنا فى الشارع حتى آخره ، وقفنا عند ضفة القناة • كان الثلج ، خلال الليل ، قد غطى أرض الشارع ،

وكانت خطاى ترتعد ؛ وكنت أركض وراء أبى منهوكة ، متعلقة بأذيال ردائه • كان يحمل كمانه تحت ابطه ، يتوقف فى كل لحظة ليرفعه ، وهو يوشك أن يسقط من الانزلاق •

مشينا هكذا قرابة ربع ساعة • وأخـــيرا هبط أبى على الرصـيف المنحدر ، فلما وصل الى ضفة الماء ، جلس على حافته ، فكان الماء يهـدر على خطوتين منا ، وليس حولنا أى مخلوق • ان الذعر الذى تملكنى فى تلك اللحظة سيبقى منقوشا فى نفسى الى الأبد ! •• ان ما حلمت به خلال السنة الماضية قد تحقق • ها نحن قد هجرنا منزلنا الحقير • ولكن أين هذا مما كنت أتوقعه ، مما كنت آمله ، مما صوره لى خيال الطفلة ، من أجل سعادة هذا الانسان الذى كنت أحبه حبا عنيفا كل هـــذا العنف ، عميقا كل هـــذا العمق ؟ •• ثم ان ذكـرى أمى كانت تلاحقنى ، فكنت أتساءل : « لماذا تركناها هنالك وحدها ؟ لماذا تركنا جثمانها كما يترك شىء لا فائدة فيه ؟ » • كان هذا التفكير يعذبنى •

ولم أستطع أن أحتفظ لنفسى بهذه الأفكار التى تشغل بالى ، فناديت أبى :

ـ أبت • أبت الحبيب ••

ـ ماذا ؟ (قال ذلك بلهجة صارمة) •

ـ أبت الحبيب ، لماذا تركنا أمى هناك ، لماذا تركناها ؟ أبت الحبيب• لنعد الى البيت ، فندعو أحدا يبقى الى جانبها !

فصرخ فجأة وهو ينهض مرتعدا ، كمن واتته فكرة تحل جميـع مشاكله :

ـ نعم يا نيتوتشكا • لا يمكن أن تفعل هكذا • يجب الرجوع الى جوار ماما • ان الجو بارد عليها هناك • اذهبى اليها يا نيتوتشكا ، اذهبى اليها • ليست الغرفة مظلمة • فهناك شمعة مشتعلة • لا تخافى • ادعى اليها أحدا ، وارجعى • اذهبى وحدك • انى منتظرك • لن اتحرك من هذا المكان قبل أن ترجعى •

ومضيت فورا ، الا اننى لم أكد أصل الى الرصيف حتى شعرت كأن ضربة تصيب قلبى ، فالتفت الى الوراء ، فاذا أنا أرى أبى يهرب فى الجهة الأخرى • لقد تركنى • تركنى فى لحظة كهذه ! •• فصرخت بكل قواى ، وأخذت أعدو وراءه عدوا سريعا ،وقد تملكنى خوف مجنون • •الا انه كان أسرع منى ركضاً فما لبث أن غاب عن بصرى ، وأنا ألهث مهدودة القوى خائرة •• ووجدت قبعته فى الطريق • لقد سقطت عن رأسه وهو يركض • فحملت القبعة ، وتابعت عدوى • شعرت بأنفاسى تتقطع ، وبساقىّ تترنحان تحتى • أحسست أن ما يقع لى الآن ليس أمرا طبيعيا ، وأنه لا بد أن يكون أضغاث أحلام •• ان ما أعانيه لشبيه جدا بما يشعر به الحالم ، حين يريد الافلات من شخص يلاحقه ، فتأبى أقدامه السير ، وينتهى به الامر الى الاغماء • كانت تمزقنى مشاعر فظيعة • كنت أشفق على أبى : كان صدرى يختنق اذ أتذكر أنه بلا معطف ، وبلا قبعة، بعيدا عنى ، بعيدا عن طفلته الحبيبة • كنت أود أن أدركه ، حتى أستطيع أن أعانقه ، مرة واحدة على الاقل ، عناقا قويا ، وحتى أستطيع أن أقول له أن لا يخاف منى •• حتى أستطيع أن أطمئنه •• حتى أستطيع أن أؤكد له اننى لن أعدو وراءه اذا كان يريد ذلك ، واننى عائدة وحدى الى جانب أمى • ولمحته من بعيد يدخل فى أحد الشوارع • وحين دخلت فى هذا الشارع فى أعقابه كنت أراه أمامى • الا أن قواى خانتنى عندئذ فأخذت أجهش بالبكاء وأصرخ • وما زلت أذكر اننى ، أثناء ركضى ، اصطدمت

بشخصين ، وقفا فى وسط الرصيف ، وأخذا ينظران الينا ، أنا وأبى ، دهشين • وصرخت مرة أخيرة :

ـ بابا • بابا •

الا أن قدمى زلت على الرصيف ، فسقطت أمام عتبة أحد البيوت • وأحسست بالدم يسيل على وجهى •• ثم أغمى على ، فلم أشعر بعد ذلك بشىء •

• • •

وحين فتحت عينى ، وجدتنى على سرير دافىء جميل ، ورأيت الى جانبى وجوها لطيفة أفرحتهـا يقظتى • ورأيت سيدة مسنة على عينيهـا نظارتان ، وسيدا طويلا ينظر الىّ وقد ظهرت على وجهه امارات شـفقة عميقة ، ورأيت امرأة شابة جميلة ، ورأيت كذلك عجوزا أشيب يمسك بيدى وهو ينظر فى ساعة • لقد بعثت الىّ حياة جديدة •

ان أحد الأشخاص الذين صادفتهم فى طريقى أثناء ركضى المسعور كان هو الامير «ك» ، وقد سقطت على عتبة منزله • فقرر هذا الامير الذى أرسل الى أبى تذكرة حضور الحفلة التى أقامها الموسيقى «س» ، قـرر ـ حين عرف من أنا ، بعد بحث طويل متعب ـ أن يسكننى فى بيته ، وأن يربينى مع أبنائه ، متأثرا من هذه المصادفة العجيبة •.وبحثوا عن المصـير الذى آل اليه أبى ، فعرفوا أنه عُثر عليـه فى ركن من أركان احـدى الضواحى ، وهو فى نوبة هذيان شديد فقادوه الى أحد المستشفيات ، حيث مات بعد يومين •

الموت ! مثل هذه النهاية نتيجة طبيعية ، حتمية ، للحياة التى عاشها، كان لا بد أن يموت هكذا ، حين غاب عنه ـ فى طرفة عين ، كما يغيب

سراب مبهم فارغ ـ كل ما كان يشـــده الى الحياة .. حين تبـدد أمله العظيم ، حين أدرك ادراكا واضحا باهرا انه قد خدع فى حقيقة قيمته ، خلال حياته كلها . لقد تجلت له الحقيقة ساطعة تظهره على مدى ضلاله . لقد سمع ، فى ساعته الاخيرة ، عبقرية رائعة فتحت عينيه وأعلنت له أنه لا شىء ، فحكمت عليه هكذا بالموت .. حين سمع أبى اللحن الاخير الذى فجره « س » من أوتاره ، أدرك ما هو الفن الرائع ، الغنى دائما ، الصادق القوى أبدا ، وعرف ما هى العبقرية . ان كل ما كان يقلقـه فى غياهب نفسه ، خلال حياته كلها ، كل ما لم يكن حتى هذه اللحظة الا رؤى غائمة وخيالات متهربة ، كل ما أوجسه فى بعض اللحظات ثم دفعه عن نفسه خائفا ، كل ما لفع به حياته من كذب عنيد ، كل ما كان يراه مقبلا ، ويخشى أن يراه ، كل ذلك بدا أمام عينيه الآن فجأة ، أمام عينيه اللتين كانتا تصران على أن لا تريا أن النور نور ، وأن الظلمات ظلمات . الا أن الحقيقة كانت أقوى من أن يحتملها نظره : انه مضطر ، لأول مرة ، أن ينظر الى الأمور ، على حقيقتها ، وجهـا لوجه ؛ وأن يرى المصـير الذى رسمه لنفسه . فلما رأى ذلك كله بلغ من الاضطراب حداً أفقده عقله ، لقد وقعت الحقيقة على عقله موقع الصاعقة .. على أن الحقيقة التى أدركها كان ينتظرها ، بالرغم منه ، خلال حياته كلها ، وهو يرتعد من الخوف . كأن فأسا كانت مسلطة على رأسه خلال حياته كلها ، فكان ينتظر الضربة القاضية فى كل لحظة ، وها هى ذى الضربة القاضية قد أتت ! نعم انهـا ضربة قاضية . كان يريد أن يهرب من محكمة ضميره ولكنه أصبح الآن لا يستطيع أن يجد ملجأ يهرب اليه . زال آخر أمل له ، وتبددت آخر حجة يمكن أن يتعلل بها .. ان تلك التى ضاق بوجودها ذرعا خلال مدة طويلة ، تلك التى كانت تسمم حياته ، والتى كان يعتقد أن من حقه أن

يتمنى موتها منقذا له ، قد ماتت أخيرا .. ها هو ذا الآن حر ، لا يزعجه أحد ؟ وقد زالت عماوته ؟ وتملكه حزن مهلك . أراد أن يحكم على نفسه بقسوة لا ترحم ، بقسوة من يحكم حكما لا تحيز فيه . الا أن قوسه الضعيف لم يستطع أن يفعل شيئا غير أن يردد النغمات الاخيرة التى عزفها الموسيقى العبقرى «س» .. !

لقد كان الجنون يتربص به منذ عشر سنين .. وها هو ذا الآن ينقض عليه بغتة !

الفصل الرابع

لم استرد صحتي الا بعد مدة طـويلة . وحـين استطعت أن أترك سريرى نهائيا ، كانت ذاكرتى ما تزال من الوهن بحيث ظللت مدة طويلة لاأفهم ما صرت اليه . كنت فى بعض اللحظات أحسب أننى فى حلم ، وتمنيت أن يكون كل ما وقع لى حلما من الأحلام . كنت، اذا جاء المساء ، وهممت أن أنام ، آمل أن أستيقظ فجأة فاذا أنا فىمسكننا البائس ، بين أمى وأبى .. الا أننى أدركت شيئا فشيئا اننى وحـدى ، واننى أعيش عند غرباء .

شعرت أخيرا اننى يتيمة .

وأخذت أتأمل ، فى كثير من الشراهة ، ما يحيط بى من أشـياء جديدة علىّ كل الجدة ، فبدا لى كل شىء ، فى أول الأمر ، غريبا عجيبا محيرا : هذه الوجوه الجديدة ، هذه العادات الجديدة ، هذه الحجرات الفخمة فى قصر قديم من قصور الامراء . ما زلت أرى هذه الحجـرات

واسعة ، عالية ، مترفة ، وما زلت أراها كذلك حزينة ، كئيبة ، يتملكنى الخوف حين أجتاز احداها ؛ وأشعر اننى لا بد ضائعة فيها • لم أكن قد شفيت تماما بعد • كان خوفى المستمر منسجما تمام الانسجام مع هذا المسكن الحزين ، على روعته وجلاله • ثم ان حنينا قويا عنيفا كان ما ينى ينفذ عميقاً الى قلبى الفتى • كنت أتسمر خائفة أمام لوحة من اللوحات ، أو مرآة من المرايا ، أو مدفأة من المدافىء الأنيقة الصنع ، أو تمثال يخيل الىّ أنهم دفعوه خصيصا الى قاع ركن من الاركان ليحسن التحديق الى تخويفا لى • كنت أتسمر ، ثم أنسى فجأة لم وقفت وماذا أريد ، وفيم أفكر ، حتى اذا عادت الىّ ذاكرتى رأيتنى من الخوف بحيث يخفق قلبى خفقانا عنيفا •

بين الذين كانوا يعودوننى أيام كنت مريضة جدا ، فيما عدا الطبيب العجوز ، كان هنالك شخص أثر وجهه فى نفسى تأثيرا كبيرا • كان وجهه رصينا وطيبا ، وكان ينظر الى فى كثير من الشفقة والمحبة • كنت أوثر وجهه على جميع الوجوه الاخرى ، وكنت أشعر برغبة قوية فى مخاطبته، الا اننى لم أجرؤ على ذلك • كان يبدو دائما حزينا جدا ، وكان يتحدث قليلا ، وبصوت متقطع ، دون أن تطوف فى شفتيه يوما أضعف ابتسامة • كان ذلك الشخص هو الامير «ك» نفسه ، الذى حملنى من الشارع وأسكننى فى بيته • كانت زياراته تقل شيئا فشيئا مع تقدمى فى مرحلة النقاهة • وفى آخر مرة زارنى فيها حمل الىّ حلوى وكتاب صور • ثم قبلنى ، ورسم علىّ اشارة الصليب ، وطلب منى أن أحاول المرح، وأنبأنى — على سبيل التشجيع — انه سيكون لى بعد قليل صديقة من سنى ، هى ابنته « كاتيا » التى كانت يومئذ فى موسكو • ثم التفت الى فرنسية متقدمة فى السن هى مربية أبنائه ، والى فتاة تعنى بشئونى ، فأوصاهما بشىء يتعلق بى • ثم خرج ، ولم أره الا بعد ثلاثة أسابيع من تلك اللحظة •

كان الامير يعيش حياة خاصة ، فى عزلة تامة عن الناس • وكانت الاميرة تشغل نصف القصر ، وكانت هى نفسها ، خلال أسابيع طويلة ، لا ترى زوجها • ولاحظت بعد ذلك أن سكان هذا المنزل لا يتحدثون عن الامير كثيرا ، كانما هو غائب • الا أن كلا منهم كان يحترمه • ان المرء ليشعر أنهم يحبونه ، ولكنهم يعدونه انسانا شاذا بعض الشيء • وكأنما كان يدرك هو نفسه انه ليس كغيره ، فكان لهذا السبب لا يظهر الا نادرا • (ولسوف اتحدث عنه تفصيلا فيما بعد) •

وفى ذات صباح ، جاءونى بملابس داخلية بيضاء جميلة ثم بثوب من الصوف الاسود مزين ، اخذت ارمقه دهشة قلقة ، ثم أنزلونى ، بعد ان اتموا زينتى ، الى جناح الاميرة • طاش لبى حين رأيتنى أمامها • لم يسبق لى فى حياتى أن رأيت نفسى فى جو مترف رائع الى هذا الحد • غير ان انشداهى لم يدم طويلا • سمعت الاميرة تطلب الى أن اقترب ، وامتقع لونى • لقد قدرت ، وهم يلبسوننى ، أنهم انما يهيئوننى لامتحان خطير • لا أدرى كيف راودتنى فكرة كهذه ، على أننى كنت قد دخلت حياتى الجديدة وفى نفسى حذر غريب من كل من يحيطون بى • ولاطفتنى الاميرة كثيرا ، بل قبلتنى ، فتجاسرت عندئذ أن أنظر اليها • كانت هى السيدة الجميلة التى رأيتها واقفة الى سريرى حين أفقت من الاغماء • وارتعش جسمى كله وأنا أقبل يدها ، ولم أستطع أن أجد فى نفسى من القوة ما يكفى للاجابة على أسئلتها بشيء • وأجلستنى قريبا منها على مقعد صغير ، وكأن هذا المكان قد أعد لى خصيصا • كان واضحا ان الاميرة كان يسعدها أن تحبنى حبا صادقا ، وأن تغمرنى بالقبل ، وأن تكون لى أما ، غير أننى لم أفهم هذه السعادة التى تهبط على ، فلم أحظ بتقدير الاميرة كثيرا • وأعطيت كتابا جميلا من صور ، أمرت أن أنظر

فيه ، بينما أخذت الاميرة تكتب ، وكانت تترك قلمها من حين الى حين ، لتحدثنى ، فكنت أضطرب وأجيب اجابات طائشة .

والخلاصة : اننى تصرفت تصرف طفل تافه ، مذعور ، خائف ، بل غبى . وان غباوتى خاصة هى التى ساءت الاميرة ، ولئن ضاقت بى ذرعا بعد مدة قصيرة ، فلا شك أننى مسئولة وحدى عن ذلك .

وفى نحو الساعة الثالثة بدأت الزيارات ، ولم تلبث الاميرة أن أصبحت أكثر عناية بى ، وأكثر رقة معى من ذى قبل . وأجابت على أسئلة الزوار عنى بأن قصتى قصة غريبة جدا ، ثم أخذت تتحدث بالفرنسية حالا . فكان الزائرون أثناء حديثها ينظرون الىّ وهم يهزون رءوسهم ، ويطلقون من أفواههم صرخات التعجب . حتى ان شابا من الحاضرين أدار نظارته ليحدق فى . وحاول عجوز أشيب أن يقبلنى . وكنت أنا أرتجف ، واصفر ، واحمر ، وظللت قابعة فى مكانى مطرقة ، لا أجرؤ على القيام بحركة . وكان قلبى منقبضا يؤلمنى . أخذت أفكر فى منزلنا البائس .. فى أبى .. فى سهراتنا الطويلة الصامتة .. فى أمى .. فلما تذكرت أمى فاضت عيناى بالدموع ، وانقبض حلقى ، ووددت لو أهرب ، لو أختفى ، لو أختبىء .. وما ان انتهت الزيارات حتى استعاد وجه الاميرة قسوته . فكانت لا تنظر الىّ نظرة رقيقة ، بل تخاطبنى بخشونة . الا أن ما كان يرعبنى أكثر من ذلك انما هو شفتاها المشدودتان ، وعيناها السوداوان اللتان تحملقان فى أحيانا ، خلال ربع ساعة .

ولما أتى المساء ، أعادونى الى فوق . وعند منتصف الليل استيقظت محمومة ، وأخذت أبكى مذعورة من أحلامى المخيفة . وفى صباح اليوم التالى ، تكررت الحفلة نفسها ، وقادونى مرة أخرى الى جناح الاميرة . ولعل الاميرة قد ملت قص مغامراتى لزوارها ، واستنفد الزوار ، من

جهتهم ، اهتمامهم بى وعطفهم على • ثم اننى طفلة عادية جدا ، ليس فى شىء من « براءة الطفولة » (هكذا قالت الاميرة ذات يوم لسيدة مسنة سالتها هل يمكن أن لا يزعجها وجودى) •• وفى ذات مساء ، ارجعونى الى فوق مرة أخيرة ، ولم يقودونى بعد ذلك الى الاميرة قط • انتهى الامر • لم يبق لى من حظوة لديها • الا انه كان يسمح لى أن أطوف حيث اشاء من أرجاء البيت • ولما كنت لا أستطيع أن أستقر فى مكان ، لفرط اضطرابى وقلقى ، فقد كنت أشعر أننى من أسعد الناس طرا حين كنت أستطيع ان أنزل فى الطابق الأدنى ، فى أعماق الحجرات الواسعة • وأذكر أننى شعرت برغبة قوية فى أن أكلم سكان البيت ، ولكنى كنت من خوفى أن أزعجهم أوثر تجنبهم • والذى كنت أحبه أكثر من كل شىء آخر هو أن أنطوى فى ركن من الاركان لا يرانى فيه أحد ، وراء قطعة من الاثاث مثلا ، غارقة فى ذكرى ما وقع لى • ولكن العجيب فى الأمر اننى كنت كأنما نسيت النهاية الفظيعة لما وقع فى بيت أبوى • كانت تخطر أمامى صور ووقائع •• والحق اننى كنت أتذكر كل شىء ، كنت أتذكر الليلة الاخيرة ، والكمان ، وأبى • كنت أتذكر كيف دبرت له المال •• أما التفكير فى هذه الاشياء ، أما تحليل هذه الاشياء ، فقد كنت عاجزة عنه كل العجز • لقد كانت هذه الذكريات تقبض صدرى ، وحين كنت أصل منها الى ذكرى أمى ، الى اللحظة التى ركعت فيها أمام جثمانها أصلى ، كانت تسرى فى ظهرى قشعريرة باردة كالثلج ، فأرتجف ، وأطلق صرخة ضعيفة ، وتختنق أنفاسى ؟ ويبلغ انقباض صدرى ، وخفقان قلبى ، وذعرى ، حدا لا يسعنى معه الا أن أهرب من مخبئى •

لقد أسأت التعبير حين قلت انهم كانوا يتركوننى وحدى ، فالحق أنهم كانوا يراقبوننى مراقبة دقيقة ، دون أن يظهر عليهم ذلك • لقد

كانوا ينفذون فى هذا وصايا الامير ، الذى أمر أن لا يزعجونى فى شىء وأمر مع ذلك ان لا أغيب عن بصرهم دقيقة واحدة .. فكنت ، من حين الى حين ، أرى أحد سكان البيت أو احد الخدم ، يلقى نظرة على الغرفه التى أكون فيها ، ثم ينسحب دون أن يقول كلمة واحدة . ولقد أدهشنى هذا الانتباه وأقلقنى ، ولم أستطع ان أفهم له سببا ، كنت أعتقد انهم يراقبوننى لقصد خفى مبيت ، يريدون أن يصنعوا بى شيئا فيما بعد ، لذلك كنت أجهد أن أكتشف فى المنزل ركنا مخبأ أختفى فيه عند الضرورة . وفى ذات مرة غامرت فصعدت السلم الكبير . انه سلم واسع من رخام فرش بالسجاد ، وزين بالازهار ، وبروائع الخزف . وفى نهاية كل طبقة منه جلس حارسان طويلان ، يرتديان ثيابا موشاة وقفازات بيضاء ، وربطة عنق ناصعة البياض . نظرت اليهما قلقة ، ولم أستطع أن أفهم لم يجلسان هنالك ، ينظر أحدهما الى الآخر ، دون أن يقولا شيئا ، ودون أن يعملا شيئا !

وكنت أزداد سرورا ، يوما بعد يوم ، بهذا الطواف وحدى . ثم ان هناك سببا آخر كان يحدونى الى الهرب من الطابق الأعلى . كانت تعيش هنالك عمة للاميرة عجوز ، انقطعت عن الخروج ، ولا تقابل أحدا . لقد تركت هذه المرأة العجوز فى نفسى أثرا واضحا جدا . وشعرت أنها ان لم تكن أهم شخصيات المنزل ، فهى قريبة من ذلك . كان جميع من فى الدار يخضعون فى صلاتهم بها لمراسم فخمة ، بل ان الاميرة نفسها ، ذات النظرة الشامخة الآمرة ، كانت مضطرة أن تصعد فى زيارة خاصة لعمتها مرتين فى الاسبوع ، فى يومين معينين . كانت تزورها عادة فى الصباح ، فيدور بين السيدتين حديث رصين كثيرا ما تقطعه فترات من الصمت ، تملؤها العجوز بدمدمة صلواتها ، أو عد أورادها على سبحتها . وكانت الزيارات تطول أو تقصر وفقا لمشيئة العمة ، اذ كانت العمة ،

تنهض فجأة ، فتقبل الاميرة على شفتيها ، مشيرة بذلك الى أن الزيارة قد انتهت . ولقد كان على الاميرة فى أول الأمر ، أن تزور عمتها مرة كل يوم ، الا أن هذه المراسم قد تراخت بعد ذلك بموافقة السيدة العجوز ، وصار يكتفى من الاميرة أن ترسل أحدا فى كل صباح يستفسر عن أنباء العمة . ثم ان العمة ، وقد طعنت فى السن كثيرا ، كانت تعيش منزوية . لقد كانت عذراء . وقد أرادت فى الخامسة والثلاثين من عمرها أن تدخل الدير ، الا أنها بعد أن قضت فيه سبعة عشر عاما دون أن تقطع عهد الترهب ، تركت الدير وعادت الى موسكو . أرادت أن تعيش هنالك مع أختها ، أرملة الكونت «ل» ، التى كانت صحتها تسوء سنة بعد سنة ، وأن تتصالح مع أختها الأخرى ، الاميرة «ك» ، بعد خصومة بينهما دامت عشرين عاما على أقل تقدير : الا أن هاته العجائز لم يستطعن ، فيما يقال، أن يتفاهمن يوما واحدا ، وأردن ألف مرة أن ينفصلن دون أن ينفذن ذلك ، اذ كن فى كل مرة يشعرن فى آخر لحظة بحاجة بعضهن الى بعض ، لدفع الملل ومزعجات الشيخوخة . ورغم أن حياتهن العائلية هذه لم تكن جميلة ، ورغم الضجر الوقور الذى كان يخيم على مسكنهن النسوى بموسكو ، فقد كان المجتمع الراقى كله فى المدينة يشعر بأنه مضطر الى زيارة المنزويات الثلاث . كان الناس يعتبرونهن حارسات التقاليد الارستقراطية كلها ، ويرون فيهن الصورة الحية للنبالة القديمة . كانت الكونتة امرأة ممتازة ، خلّفت كثيرا من الذكريات الجميلة . كان جميع الذين يصلون من بطرسبرج يُخصون السيدات بأولى زياراتهم . وكان جميع الذين يستقبلون فى منزلهن يستقبلون بعد ذلك فى كل مكان . الا أن الأختين انفصلتا ، بعد موت الكونتة . أما الاميرة «ك» ، وهى الكبرى ، فقد بقيت فى موسكو ، لكى تصفى حساب نصيبها من تركة الكونتة التى توفيت عن غير ولد . وأما الصغرى ، المتزهبة ، فقد مضت

الى بطرسبرج تقيم عند ابن أخيها ، الامير «ك» • وبسبب هذا الحداد ، يقيم ولدا الأمير ، كاتيا والكسندر ، عند عمتهما الكبيرة بموسكو ، يواسيانها فى وحدتها • ورغم أن الاميرة كانت تحب ولديها حبا هائما ، فانهـــا لم تسمح لنفسها بأن تعترض على انفصالهما عنها طوال مدة الحداد • نسيت أن أقول ان الحداد كان ما يزال قائما يوم دخلت منزل الامير ، الا انه كان مشرفا على الانتهاء •

وكانت الاميرة العجوز ترتدى دائما ثوبا من صوف أسود تزينـه ياقة صغيرة بيضاء تضفى عليها حقا هيئة راهبة • ولم تكن تترك سبحتها، وكانت تمضى الى الصـلاة فى كثير من الفخامة والجـلال ، وتصوم كل يوم ، وتستقبل رجالا من أهل الوقار ، وسدنة الكنيسة ، وتقـرأ الكتب المقدسة ، أى كانت على الجملة تعيش حقا حياة رهبنة • وكان الصـمت فى الطابق الأعلى رهيبا • كان لا يمكن أن يسمع فيه صرير باب يفتح أو أى صوت آخر ضئيل دون أن ترسل الآنسـة العجوز أحد الخـدم تسأل عن سبب هذه الضجة (كانت أذنها مرهفة السمع كأذن صـبية فى الخامسة عشرة !) • وكان الجميع يتحدثون هنالك همسا ، ويمشـون على رءوس الاصابع • وحتى الفرنسية المسكينة اضـطرت ، رغم سنها ، أن تتنازل عن حذائها المفضل ، ذى الكعب : ان الاحذية ذات الكعب ممنوعة فى الطابق العلوى • وقد أرسلت الاميرة ، بعد دخولى البيت بأسبوعين ، تسأل عن أمرى : من أنا ؟ وما وجودى فى البيت ؟ الخ •• فأسرعوا فى الاجابة على سؤالها باحترام عظيم • عندئذ أرسلت تسـأل الفرنسية مرة أخرى عن السبب فى انها لم ترنى بعد • فأدى ذلك الى حركة كبيرة فى البيت : أخذوا يسرحون شعرى ، ويغسلون وجهى ويدى ، دون ما داع الى ذلك ، ويعلمونني كيف أمشى ، وكيف أقدم لها احترامى واجلالى ؛ وأوصـونى بأن أكـون ألطـف وأرق ، وكالوا لى كل أنواع التـأنيب

والتقريع • ثم أرسلوا رسـولا يسأل الاميرة العجوز هل تود أن ترى اليتيمة • فقيل للرسول كلا ، وأُمر بأن أحضر اليها فى الغد بعد الصلاة• لم يغمض لى جفن طوال الليلة كلها ، وقيل لى فيما بعـد اننى هذيت • كنت أرانى أصلى بلا انقطاع ، أمام السـيدة ، استرحم عفـوها وألتمس غفرانها !

وأخيرا ، جاءت لحظة المثول بين يديها •• فرأيتنى أمام عجوز نحيلة قصيرة ، غارقة فى مقعد كبير • أشارت الىّ أن أتقدم ، ووضعت نظارتيها على عينيها ، لترانى من كثب • أذكر أننى لم أفز باعجابها أبدا • وتفضلت فقالت اننى متوحشة حقا ، لا أعرف كيف أركع ولا كيف أقبل اليد • وانهالت علىّ بأسئلتها ، فكنت لاأكاد أجيب ، حتى اذا سألتنى عن أبوى ، انفجرت باكية • وساء السيدة العجوز أن ترانى حساسة الى هذا الحد • وظنت مع ذلك أنها تواسينى اذ أمرتنى أن أفوض أمرى الى الله ، وأن أضع أملى فيه • ثم سألتنى عن آخر مرة ذهبت فيها الى الكنيسة ، فلما لم أكد أعرف ما معنى هذا ، لأن تربيتى الدينية كانت مهملة جدا ، ظهـر على العجوز امتعاض لا يوصف • واسـتُدعيت الاميرة الشابة ، وعُقـد اجتماع قرروا فيه أن يقودونى الى الكنيسة فى يوم الاحد القادم، وتعهدت الاميرة العجوز بأن تدعو لى فى صلواتها • الا أنها أمرت فى الوقت نفسه بأن أنصرف ، لأن رؤيتى ، فيما قالت ، تؤلمها كثيرا • لم أر فى كل هذا شيئا خارقا ، وأنا فيما أنا فيه • الا أن الشىء المحقق الذى لا ريب فيـه هو أنها كرهتنى جدا • وفى هذا اليوم نفسه أرسلت تقول اننى أكثر من الحركة ، وان حركتى مسموعة من أول البيت الى آخره ، مع اننى فى الواقع ظللت طيلة اليوم قابعة فى مكانى لم أتحرك • لقد خلقت السـيدة العجوز هذه الفكرة من خيالها ، وثبت ذلك فى اليوم التالى حين أرسـلت تبدى هذه الملاحظة عينها • الا اننى فى ذلك اليوم نفسه سقط من يدى

فنجان ، فتحطم على الارض ، فذعرت الفرنسية وجميع الوصيفات ذعرا شديدا ، وأقصينني فورا الى أبعد غرفة ، ولحقن بي مذعورتين ذعرا هائلا .

لا أتذكر الآن كيف انتهت هذه القضية . ولكنني سعدت جدا بالنزول الى الحجرات الكبيرة السفلى ، والطواف فيها وحدى ، مطمئنة الى أنني لا أزعج أحدا .

وفي ذات مرة ، كنت جالسة في احدى هذه الحجرات السفلى ، مطرقة الرأس ، مسندة وجهي الى يدى ، منذ ساعات ، أفكر ، وأفكر . لم يكن عقلي من النضج ولا من القوة بحيث أستطيع أن أعرف حزني ، الذى كان مع ذلك يزداد حتى ليخنقني خنقا . وفجأة سمعت صوتا رقيقا ينبعث أمامي :

ـ ما بك ، أيتها الصغيرة المسكينة ؟

كان ذلك الصوت هو صوت الامير . وكان وجهه يعبر عن رحمة عميقة . فلما رفعت اليه بصرى ، ولمح في نظرتي الهلاك والبؤس ، ترقرقت في عينيه الزرقاوين دمعة .

قال وهو يداعب رأسي :

ـ مسكينة أيتها اليتيمة !

فصرخت وأنا أشهق :

ـ كلا . كلا . كلا . لست يتيمة .

ونهضت ، ووثبت اليه فأمسكت بيده ، وأخذت أغرقها بالقبل والدموع ، وأنا أقول :

ـ كلا . كلا . لست يتيمة .

ـ ولكن ماذا بك ؟ ماذا بك يا عزيزتي الصغيرة ؟ يانيتوتشكا المسكينة ؟ ماذا بك ؟

صرخت وقد ازداد شهيقى :

ـ أين أمى ؟ أين أمى ؟

ولم أستطع أن أخفى حزنى ، فهويت على ركبتيه ، وأنا أقول :

ـ أين أمى ؟ قل لى أين هى !

ـ سامحينى يا صغيرتى ! آه • يا بنيتى المسكينة •• فيها اذن كنت تفكرين •• ماذا صنعت ! تعالى معى ، يا نيتوتشكا ، اسرعى •

وأمسك بيدى ، وجرنى بخطى سريعة • كان متأثرا الى أعماق نفسه • ودخل بى أخيرا فى غرفة لم أكن أعرفها بعد •

كانت تلك الغرفة هى غرفة المصلى • انها مظلمة ، فيما عدا القناديل الصغيرة تنعكس أضواؤها الخفيفة على الاطر المذهبة ، وعلى الاحجار الكريمة فى الايقونات • وكان القديسون ، من قلب الاطر اللامعة ، ينظرون الىّ فى غموض • لا شىء فى هذا المكان يشبه الحجرات الأخرى • ان جوها جو سرى ، وقور ، حتى ان نفسى تملكها شعور قريب من الخوف • وهذا ، على كل حال ، أمر طبيعى فى الحالة الصحية التى كنت فيها • وبادر الامير فأركعنى أمام صورة للعذراء ، وركع هو الى جانبى ، وهو يقول بصوت ناعم متهدج :

ـ صلى ، يا صغيرتى ، صلى ، سنصلى معا •

ولكن لم يسعفنى أى دعاء • كنت منفعلة جدا ، خائفة جدا كذلك • تذكرت كلمات أبى ، فى تلك الليلة الاخيرة ، أمام جثمان أمى ، وانتابتنى أخيرا نوبة عصبية • ورجعت الى السرير مريضة • وكدت أموت أثناء هذه النكسة • واليكم كيف جرت الامور :

فى ذات صباح قرع سمعى اسم معروف هو اسم «س» ، لفظه أحد الى جانب سريرى ، فارتعدت • وهاجمتنى الذكريات تترى ، وقضيت ساعات من الهـــذيان أبحث فى ذاكـرتى ، وأحلم ، وأتعـذب • وحين استيقظت ، بعد مدة طويلة ، كان الظلام يخيم فى الغرفة • كان القنـديل قد انطفأ ، وكانت الخادمات قد مضين ، مع أن العادة أن يبقين الى جانبى• وفجأة سمعت أصوات موسيقى آتية من بعيد • كانت هذه الاصوات تخف أحيانا حتى لا تسمع ، وتدوى أحيانا أخرى كأنها تأتى الىّ • لا أدرى أى شعور اجتاحنى فى تلك اللحظة ، ولا أفهم هذا القرار الذى انبجس فى دماغى المريض على حين غرة : رأيتنى أنهض من سريرى ، وأرتدى ثوبى الاسود ، ثوب الحداد ، بسرعة ، دون أن أملك القوة لذلك ، ثم أترك الغرفة وأنا أتحسس طريقى • لم ألق أحدا ، لا فى الغرفة المجاورة، ولا فى الغرفة التى دخلتها بعد ذلك • ووجدتنى أخيرا فى الممر• اقتربت الاصوات • فى وسط الدهليز كان يقع السلم الذى اعتدت أن أهبط عليه الى القاعات الكبيرة • ان الأنوار تتلألا فيه ساطعة • وسمعت وقع أقـدام فى أسفل ، فلطوت فى ركن حتى أرى • ولم أدخل فى الدهليز الا حين اعتقدت أن أحدا لن يرانى • كانت الموسيقى تنبعث من حجرة مجاورة • وكانت ضجة الاصوات هنالك تنبىء بوجود عدد من الناس كبير • كان أحد أبواب القاعة ، وهو الباب المطل على الدهليز ، مغطى بستار مزدوج من مخمل قرمزى • رفعت أحد ذيول الستار الاول ، واختبأت وراءه • كان قلبى يخفق خفقانا قويا ، وكنت لا أكاد أقوى على الوقوف على قدمى• غير اننى استطعت ، بعد بضع دقائق ، أن أملك زمام انفعالى ، وجازفت فرفعت ذيل الستار الثانى • يا الهى ! تلك القاعة الواسـعة المظلمة التى كنت أخاف أن أدخلها ، تسطع الآن بألوف المصابيح ! بحر من النـور أغرقنى • وعشيت عيناى من شدة النور ، فقد تعودتا على الضوء الخفيف•

وهب على وجهى هواء عطر ، دافىء • كان الناس فى داخل الحجرة يذهبون ويجيئون ، وكان الفرح باديا فى وجوههم جميعا • والنساء يرتدين أثوابا ناصعة مترفة • لم أر الا نظرات مشرقة بالسرور• وتجمدت فى مكانى من فرط الدهشة • كان يبدو لى مع ذلك أن قد سبقت لى رؤية هذا كله ، فى مكان ما ، فى الحلم •• وتراءى لى بيتنا الحقير ، عند المساء ، والنافذة العالية ، والشارع العميق بفوانيسه المتلألئة ، والنوافذ المقابلة بستائرها الحمر ، والعربات المصطفة أمام درجات الباب ، والخيول الشامخة تكدف وتصهل ، والطيوف على النوافذ •• وسمعت صراخا ، وضوضاء ، والموسيقى خافتة لبعدها • قلت فى نفسى : « آه • هذه هى الجنة • هنا الجنة اذن • هذا هو المكان الذى كنت أريد أن أمضى اليه مع أبى المسكين • لم يكن ذلك حلما ! •• لقد رأيته هكذا تماما ، فى الماضى، فى خيالى ، فى أضغانى • » وازدادت نفسى التهابا ، على التهابها بحمى المرض •• وتفجرت من عينى دموع حماسة لا توصف •• وطفقت أبحث بنظرى عن أبى • قلت فى نفسى ، وقد وثب قلبى ، وتقطعت أنفاسى : « لا بد أن أبى هنا •• انه هنا حتما • » وفجأة سكتت الموسيقى ، وماجت القاعة • وسمعت همسا من كل صوب • وأخذت أحدق فى كل الوجوه التى كانت تمر أمامى ، جاهدة أن أعرف أحدا • وفجأة اجتاح القاعة اضطراب شديد جدا• فلمحت على المنبر شيخا نحيلا طويلا يمسك بكمان• كان وجهه الشاحب يبتسم ، وكان ينحنى الى جميع الجهات فى تحية لطيفة • وعاد الصمت • انه صمت عميق ، حتى لكأن الناس قد حبسوا أنفاسهم • كل واحد ينظر الى الشيخ ، كل واحد ينتظر • تناول الشيخ كمانه ، وهز الأوتار بقوسه • بدأت الموسيقى • ولكنى لم ألبث أن شعرت بأننى أختنق • ان هذه الاصوات تزيد اضطرابى الى حد لا يوصف • أصبحت لا أستطيع أن أتنفس • اننى أعرف هذه الاصوات • لقد سمعتها

من قبل • ان فيها انذارا ، انذارا بشيء رهيب ، غريب ، يتضح الآن في أعماق نفسي • وانطلقت الاصوات أسرع وأعنف • ثم جاءت الآهات والزفرات وشهقات النحيب • انها صلاة تهوى الى اليأس •

كان كل ذلك يصبح مألوفا لدى أكثر فأكثر • الا أن قلبي كان يأبى أن يصدق • وشددت أسناني بعضها الى بعض حتى لا أعول من الالم ، وتمسكت بالباب حتى لا أقع • وكنت في بعض الاحيان أغمض عيني ثم أفتحهما ، آملة انني سأخرج من حلم لأجد نفسي في منزلنا ، حيث سمعت هذه الموسيقى ، في تلك الليلة الفظيعة • وكنت اذا فتحت عيني ، أحدق في الجمهور لأتيقن • كلا • هؤلاء أناس آخرون ، هذه وجوه أخرى • وبدا لي أن كل واحد من الجمهور ينتظر ـ مثلي ـ حدثا ، وانهم جميعا ، مثلي ، غارقون في غم عميق • بدا لي انهم جميعا يودون لو يصرخون مع هذه الآهات ، وهذه الأنات ، ليخففوا العبء عن نفوسهم • الا ان الآهات والأنات تزداد حدة ، وألما ، وعمقا • وفجأة ، انفجر الصوت الاخير ، صرخة طويلة ملحة ، فانتفضت • لم يبق من شك • انها تلك الصرخة عينها • انني أعرفها • لقد سمعتها • هي الصرخة التي صعقتني في تلك الليلة • ومر برأسي خاطر كالبرق : « بابا • بابا • انه هنا • هو الذي يدعوني • وهذا كمانه ! » •• وأطلق الجمهور زفرة طويلة واسعة • وانطلق التصفيق محموما يهز القاعة هزا • وانشق صدري عن شهقة قوية صارخة • لم أطق أن أحبس نفسي ، فرفعت الستار ، وانطلقت في الصالة مسرعة ، وأنا أصرخ :

ـ بابا • بابا • أهذا أنت ؟ أين أنت ؟

لا أدري كيف وصلت الى الشيخ الطويل • لقد تركوني أمر ، وأفسحوا الطريق أمامي • وارتميت عليه بصرخة هائلة • كنت أعتقد

انني أقبل أبي . وفجأة شعرت بيدين نحيلتين طويلتين تمسكان بي . ورأيت عينين سوداوين تحدقان في عيني ، كأنهما تحرقاني بلهيبهما . نظرت الى الشيخ ، فاذا بي أقول في نفسي فجأة : « كلا . ليس هذا بابا . هذا قاتله ! » وتملكتني حميا هائلة . وخيل الى أنني أسمع ضحكا فوق رأسي ، وان هذا الضحك يترجع في القاعة كلها . ثم لم أشعر بشيء ! .

الفصل الخامس

تلك نكستى الثانية والاخيرة •

حين فتحت عينى رأيت وجه طفلة منحنية علىّ ، وجه صبية فى سنى ، فما ان رأيتها حتى مددت لها ذراعى • منذ أول نظرة شاعت فى نفسى كلها عاطفة رقيقة فرحة • تصور وجه طفلة هى فى الجمال آية • جمال مشرق يأسر البصر • وجه من تلك الوجوه التى تنفعل أمامها اعجابا ، من تلك الوجوه التى اذا رأيتها وقفت مشدوها لا تستطيع حراكا من فرط افتتانك• ذلك هو وجه «كاتيا» ابنة الامير التى عادت من موسكو • فلما مددت اليها ذراعى طافت على ثغرها ابتسامة ، فشعرت بارتياح كبير ينفذ الى أعماق كيانى •

ونادت الاميرة الصغيرة أباها ، وكان على بعد خطوتين يتحدث مع الطبيب •

قال ، وقد أمسك بيدى ، وأشرق وجهه اشراقة الفرح الصادق :

ـ الحمد لله !

ثم أردف يقول بكلمات سريعة ، على عادته :

ـ انني سعيد ، سعيد جدا . جدا . هذه كاتيا ابنتي . لتتعرف كل منكما الى الاخرى . هل ترين ؟ ستكون هذه صديقتك ! هيا استعيدي صحتك بسرعة ، يا نيتوتشكا ، أيتها الصغيرة الشيطانة التي أخافتني كل ذلك الخوف !

تحسنت صحتي بسرعة كبيرة . وما انقضت أيام قليلة حتى استطعت أن أنهض . وكانت كاتيا تأتي الى قرب سريري ، كل صباح ، باسمة مرحة . كان الضحك لا يستطيع أن يهجر ثغرها . وكان ظهورها هو السعادة عينها لي . آه ! كم وددت لو أقبلها . الا أن هذه الشيطانة الصغيرة لم تكن تبقى أكثر من دقائق . انها لا تستطيع أن تستقر في مكان . لا بد أن تتحرك ، أن تركض ، أن تثب ، أن تحدث صخبا ، أن ترجّع الاصداء في البيت كله. كان ذلك حاجة لها ملحة. لذلك أوضحت لي منذ زيارتها الأولى أنها لا شيء يزعجها كالجلوس الى جانب سريري ، وانها لهذا لن تأتي الا نادرا ، وانها ستأتي مع ذلك لأنها تشعر نحوي بالشفقة ، وانني سأرى ، على كل حال ، حين أبل من مرضي ، اننا سنتفاهم تفاهما أعمق وأكمل . كانت الكلمة الاولى التي توجهها الي كل صباح هي هذا السؤال السريع :

ـ هيه ؟ شفيت ؟

ولما كنت شاحبة نحيلة رغم كل شيء ، وكانت الابتسامة لا تجد سبيلها الى وجهي الحزين الا بصعوبة ، فسرعان ما كانت الاميرة تقطب حاجبيها ، وتهز رأسها ، وتضرب الارض بقدميها ، مستاءة مغتاظة .

ـ غريب . مع انني قلت لك بالامس أن تبلى من مرضك . فلماذا لم تشفى ؟ لعلهم لا يطعمونك كثيرا ؟

فأجبت أجاريها ، لأننى كنت أشعر أمامها بخجل شديد :

ـ كلا . لا يطعمونني كثيرا .

لم يكن بى الا رغبة واحدة ، هى أن أفوز برضاها . لذلك كنت أخشى كل كلمة ، وكل حركة .. وكان افتتانى بوصولها يزداد قوة وعنفا ، يوما بعد يوم . فاذا جاءت لم يفارقها نظرى لحظة ، بل لقد كان يتفق لى ـ حين تمضى الى سبيلها ـ أن أظل أتأمل الجهة التى غابت فيها ، مشدوهة مفتونة ! .. كنت أثناء غيابها أتحدث اليها طويلا ، أتصور أنها صديقى ، فألعب معها وأخاتلها ، ونبكى معا اذا أبنا أحد على خطيئة ما . الخلاصة : كنت أحلم بها حلم العاشق بمعشوقه . وكنت أرغب رغبة جنونية فى أن أعافى وأن أسمن بأقصى سرعة ممكنة ، عملا بنصيحتها ونزولا على أمرها ..

حين كانت كاتيا تصل عند الصباح لتصرخ قبل كل شىء : « مازلت مريضة ؟ ما زلت نحيلة ؟ » كنت أرتاع كأننى مجرمة . كانت كاتيا تشعر بدهشة صادقة حين ترى أن يوما كاملا من أربع وعشرين ساعة لم يكن كافيا لشفائى .. حتى لقد انفجرت غاضبة أخيرا :

ـ هل تريدين أن آتيك بفطيرة ؟ ستأكلينها ، فتسمنى بسرعة !

أجبت ، وقد ملأنى سرورا أنها ستعود مرة ثانية :

ـ نعم . هاتى .

وكانت الاميرة الصغيرة بعد أن تسألنى عن صحتى ، تجلس الى جانبى وتأخذ تحدق فىّ بعينيها السوداوين • وفى أول الأمر كانت تفحصنى هكذا فى كل لحظة ، من أخمص القدم الى قمة الرأس ، وقد بدت على وجهها دهشة ساذجة • الا أن حديثنا لم يكن يجرى متصلا هينا • فقد كنت أظل وجلة خجلة ، وكنت رغم تحرقى شوقا الى التحدث معها ، أخاف تأنيبها •• فكانت بعد فترة من الصمت ، تبادرنى قائلة :

ـ لماذا لا تقولين شيئا ؟

فأجيب ، سعيدة جدا بوجود عبارة يمكن دائما أن يُبدأ بها الحديث:

ـ وأبوك ، كيف حاله ؟

ـ حاله حسنة • شربت اليوم فنجانين من الشاى بدلا من فنجان واحد • وأنت ؟

ـ فنجاناً واحداً •

ويعود الصمت •

ـ اليوم أراد « فالستاف » أن يعضنى •

ـ أهو كلب ؟

ـ نعم • كلب •• أما رأيته ؟؟

ـ بلى • رأيته ؟

ـ اذن لماذا تسألين هل هو كلب ؟

ولا أعرف بم أجيب ، فتنظر الىّ الاميرة الصغيرة دهشة :

ـ قولى هل تسرين حين أكلمك ؟

ـ جدا • أكثرى مجيئك !

ـ قالوا لى ان مجيئى يسرك • ولكن غادرى فراشـــك بسرعة • سآتيك اليوم بفطيرة • هذا وعد أكيد • ولكن ماذا بك حتى تصـــمتى هكذا ؟

ـ لا أعرف •

ـ ألا تنقطعين عن التفكير ؟

ـ أفكر فى أشياء كثيرة •

ـ أما أنا فيقولون عنى اننى أتكلم كثيرا ولا أفكر فى شىء • هـل الكلام اساءة ؟

ـ أبدا • أبدا • اننى أسر حين تتكلمين •

ـ يجب أن نسأل عن هذا مدام ليوتار • انها تعرف كل شىء • ولكن فيم تفكرين ؟

قلت بعد صمت :

ـ فيك أنت •

ـ هل يسرك هذا ؟

ـ نعم •

ـ اذن فأنت تحبيننى !

ـ نعم •

ـ أما أنا فلا أحبك بعد • انك ثقيلة جدا • انتظرى ، ســـآتيك بفطيرة • الى اللقاء • الى اللقاء •

وبعد أن قبلتنى الاميرة الصغيرة ، تقبيلا خاطفا ، غابت عن الغرفة •

ومع ذلك فقد أتتنى بعد الغداء بالفطيرة التى وعدتنى بها • جاءت الىّ كالمجنونة ، تضحك من شدة الفرح ، لأنها تطعمنى طعاما مُنع عنى•

ـ كلى • انه طعامى احتفظت به لك • والآن الى اللقاء •

وغابت بمثل السرعة التى أتت بها !

وفى مرة أخرى ، وثبت الى جانبى ، فى ساعة غير منتظرة أيضا ، بعد الغداء • كان شعرها منفوشا ، وخداها محمرين ، وعيناها تضيئان ببريق قوى • لا شك أنها كانت تركض وتقفز منذ ساعة أو ساعتين •

صرخت بسرعة ، وهى تلهث ، وقد بدت عليها الرغبة فى العودة الى ألعابها على الفور :

ـ هل تحسنين اللعب بالكرة الطائرة ؟

ـ كلا •

قلت ذلك وأنا أشعر بأسف مر على اننى لا أستطيع أن أقول نعم •

ـ طفلة عجيبة حقا ! هيا • ابلى من مرضك ، وسأعلمك • جئت لأسألك هذا فحسب • اننى ألعب الآن مع مدام ليوتار • الى اللقاء • انها تنتظرنى •

واستطعت أخيرا أن أترك سريرى رغم ضعفى • فكانت أول فكرة راودتنى عندئذ هى أننى لن أنفصل بعد الآن أبدا عن كاتيا • ان عاطفة لا تقاوم تدفعنى نحوها • كنت ألتهمها بعينى التهاما ، وكان هذا يثير دهشتها كثيرا • كان انجذابى اليها من القوة بحيث اننى استسلمت لعاطفتى الجديدة هذه فى حماسة لم تخف أخيرا على كاتيا • وبدا لها ذلك فى أول الأمر شيئا غريبا بل عجيبا • وأذكر أننى ، ذات مرة ، وكنا

نلعب معا ، رأيتنى أرتمى على عنقها وأقبلها دون أن أستطيع كبح هـذه الرغبة الجامحة ، فما كان الا أن تخلصت منى وأمسكت بيدى ، وقطبت حاجبيها كأننى أهنتها ، وسألتنى :

ـ ما بك ؟ لماذا تقبلينني هكذا ؟

وانتفضت لهذا السؤال المباغت ، وخجلت خجلا شديدا ، ولم أستطع أن أجيب بكلمة • فهزت الاميرة الصغيرة كتفيها علامة الحيرة والدهشة (وكانت هذه حركة مألوفة فيها) وعضت شفتيها المتلئتين ، فى جد ، وانقطعت عن اللعب ، ثم مضت الى ركن من الاركان فجلست على أحد المقاعد • وظلت فى ركنها ذاك مدة طويلة تتأملنى ، وتفكر ، كأنها تحل لغزا عرض لفكرها فجأة • وهذا أيضا كان عادة من عاداتها فى اللحظات الحرجة ، بحيث لم أستطع خلال مدة طويلة أن أتلاءم مع وثبات طبعها المفاجئة •

واعتقدت أننى أخطأت ، وأيقنت على كل حال ان هذا لا بد أن يبدو غريبا • على اننى ظللت أتعذب ، فكنت أتساءل : لماذا لم أستطع أن أفوز منذ اللحظة الاولى ، والى الأبد ، برضى كاتيا •• وأن أصبح صديقتها •

كان اخفاقى هذا يحرقنى حرقا ، وكنت أشعر أننى على وشك أن أجهش باكية كلما وجهت الى كلمة قاسية ، أو كلما نظرت الى نظرة حذرة • وكان حزنى يزداد يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة ، لأن الأمور لا تجرى مع كاتيا سهلة يسيرة • وشعرت بعد قليل من الوقت أنها بدلا من أن تحبنى أخذت تكرهنى • ان كل شىء ، لدى هذه البنية، يتم بصورة سريعة ، مفاجئة ، بل كان يمكن أن نقول وحشية ، لولا أن لطفا مفطورا كان يثوى وراء هذه الاندفاعات السريعة البارقة التى تصدر عن طبع متحمس صادق •

والواقع ان ما شعرت به نحوى فى أول الامر كان نوعا من الشك لم يلبث ان انقلب الى احتقار ، والسبب فى هذا الاحتقار ، فيما يخيل الى، هو أننى لم أستطع أن أشاركها ألعابها المختلفة • كانت الاميرة الصغيرة تحب الحركة والركض ، كانت صحتها قوية ، وكانت نشيطة ، حاذقة ، بينما كنت أنا نقيض هذا تماما • لقد ظللت بعد مرضى ضعيفة ، هادئة ، غارقة فى التفكير والصمت• لم يكن يشوقنى أى نوع من أنواع اللعب•• أى لم أكن أملك أى شىء يتيح لى الفوز بقلب كاتيا • ثم اننى بطبيعتى لا أطيق أن أشعر أن أحدا غير راض عنى • واذا شعرت بشىء من ذلك فسرعان ما ينتابنى حزن شديد ، وسرعان ما أفقد كل شجاعة ، وتخوننى قواى ، فما أستطيع أن أصلح أخطائى وأن أبدل الأثر السىء الذى تركته فى نفس غيرى بأثر حسن • ومعنى هـذا أنه متى كرهنى أحد ، كان كرهه الى غير رجعة •• وهذا ما لم تستطع كاتيا أن تفهمه !

وحين لاحظتْ ، بعد أن ظلت ساعة طويلة تشرح لى لعبة الكرة الطائرة بغية أن تعلمنيها ، حين لاحظت أننى لم أفهم شيئا البتة ، أدهشها ذلك الى حد الخوف ، وأخذت تنظر الىّ على عادتها نظرة استغراب• أما أنا فشعرت أننى أوشك أن أجهش فى البكاء • وبعد أن فكرت فى أمرى مرتين أو ثلاثا دون أن تصل الى نتيجة ، هجرتنى تماما ، وأصبحت تلعب وحدها ، دون أن تدعونى الى مشاركتها أبدا ، ودون أن توجه الىّ كلمة واحدة خلال أيام طويلة ! •• وكان تأثير ذلك فى نفسى قويا لا أكاد أطيق احتماله • وثقلت علىّ وحدتى الجديدة أكثر من وحدتى القديمة• ثم لم ألبث أن عدت الى حزنى ، واجتاحتنى أفكار سود •••

ولاحظتْ مدام ليوتار ، وكانت تراقبنا ، هذا التغير الذى طرأ على علاقتنا ، وانتبهت خاصة الى صد كاتيا وهجرها اياى • لذلك اتجهت اليها

رأسا ، فأنبتها على ذلك ، وطلبت اليها أن تحسن سلوكها معى • الا أن الاميرة الصغيرة قطبت حاجبيها ، وهزت كتفيها ، وصرحت بأنها لا تعرف ماذا تصنع بى ، وقالت اننى أظل طوال الوقت أفكر ، وأن الأفضل لها أن تنتظر أخاها « ساشا » الذى سيعود من موسكو قريبا ، وأن الحياة معه ستكون أحفل بالسرور وأمتع •

غير أن مدام ليوتار لم تقنع بهذا الجواب • فنبهت كاتيا الى اننى ما زلت مريضة ، واننى لا استطيع ان اكون فى مثل مرحها وصخبها • بل اضافت الى ذلك أن هدوئى خير من حركتها ، لان كاتيا تتجاوز الحدود : أليست ترتكب كثيرا من الحماقات ؟ الم تونيك ، اول امس ، ان يفترسها الكلب ؟ الخلاصة أن مدام ليوتار قرعت الاميرة الصغيرة بلا رحمة ، وارسلتها الى لمصالحتى فورا •

أصغت كاتيا الى مدام ليوتار فى انتباه شديد ، كأنما هى تدرك شيئا جديدا وصحيحا من وراء هذا التأنيب • ثم ما لبثت أن تركت العجلة التى كانت تجرى وراءها فى القاعة ، واقتربت منى ، وسألتنى دهشة ، وهى تنظر الى نظرة رصينة :

ـ هل تريدين حقا أن تلعبى ؟

ـ لا ••

قلت ذلك من فرط خوفى عليها وعلىّ من تأنيبات مدام ليوتار •

ـ اذن ماذا تريدين ؟

ـ أفضل أن أظل جالسة • اننى لا أستطيع أن أركض • ولكن لا تغضبى يا كاتيا ، اننى أحبك كثيرا •

ـ حسنا ، اذن سألعب وحدى ..

قالت ذلك فى رقة ونعومة ، وفى لهجة من يكتشف ، دهشا ، انه ليس بمذنب . ثم أضافت :

ـ والآن ، الى اللقاء . ولن أغضب منك .

فأجبت وأنا أنهض وأمد لها يدى :

ـ الى اللقاء .

ـ لعلك تريدين أن تقبليني ؟

قالت ذلك بعد لحظة من تفكير ، لعلهـا تذكرت فيها المشـكلة التى قامت بيننا بصدد ذلك . وكان واضحا أنها تريد أن تفعل كل ما تستطيع فعله لادخال السرور الى نفسى ، بغية أن تتخلص منى بأقصى سرعة ممكنة وعلى أحسن نحو .

قلت فى رجاء خجول :

ـ اذا شئت .

فاقتربت منى ، وقد اكتسى وجهها طابع الجد ، ولم تختلج شـفتاها بابتسامة ، ومنحتنى قبلة . فلما أنهت هكذا كل ما طلب منها ، بل أكثر مما طلب منها ؟ اسعادا لهـــذه البنية الصغيرة التى أرسلت اليها ، هربت راضية مطمئنة . وسرعان ما أخذت تدوى من جديد فى أرجاء الغـرف جميعا ضحكاتها الصاخبة وصرخاتها . ودام الأمر على هذا الحال الى أن عادت من لعبها لاهثة ، وارتمت على أحد المقاعد تستريح وتستجمع قواها الغضة . وظلت طوال السهرة تنظر الىّ فى ارتياب وحذر . كان واضحا اننى أبدو لها طفـــلة عجيبة شاذة ، وكان واضـحا انها تود أن تسـألنى مستوضحة أمرى . ولكن لا أدرى لم أمسكت فى هذه المرة !

وكانت دروس كاتيا عادة تتم فى الصباح • وكانت مدام ليوتار تعلمها الفرنسية • على أن تعليم الفرنسية هذا كان لايعدو تكرار قواعد النحو ، وقراءة أقاصيص لافونتين • ولم تتعلم كاتيا شيئا كثيرا ، اذ كان من الصعوبة بمكان حملها على الجلوس والقراءة ساعتين فى كل يوم • لكنها قررت أخيرا أن تتعلم نزولا على رغبة أبيها ، واطاعة لأوامر أمها : كانت اذا قطعت على نفسها عهدا تلتزمه وتحققه بدقة • وقد أوتيت كاتيا مواهب ممتازة ، فكانت تفهم سريعا ، غير انه كان لها ، مع ذلك ، بعض العيوب : كانت اذا استعصى عليها فهم أمر من الأمور ، تحاول أن تفهمه وحدها ، ولا تطيق أن تسأل أحدا شرحا ، لانها تشعر أن السؤال عار !•• وقيل انها كانت فى بعض الاحيان تظل أياما بأكملها تصارع سؤالا لا تستطيع حله •• وكان يغضبها أن لا تقدر على حله وحدها ، دون الاستعانة بأحد ، لكنها لم تكن تمضى الى مدام ليوتار لتستنجد بها ، الا فى أحوال نادرة ، حين تعجز عجزا تاما • وكان أمرها يجرى على هذا النحو فى كل ما تصنع : تفكر وتتأمل أكثر مما يظن فيها لأول وهلة • ولكنها فى الوقت نفسه مسرفة فى السذاجة بالنسبة الى سنها • وكانت فى بعض الاحيان تطرح أسئلة غبية حقا ، وفى أحيان أخرى كانت اجاباتها لا تخلو من براعة وفطنة ••

وأخيرا أصبحت صحتى تسمح لى بأن أتعلم شيئا أنا الاخرى ، فامتحنتنى مدام ليوتار لتعرف مقدرتى ، فاكتشفت اننى أقرأ قراءة حسنة جدا ، لكنى أكتب كتابة سيئة جدا ، وان من الضرورة بمكان أن تعلمنى الفرنسية حالا •

لم أحتج على ذلك •• وذات صباح ، رأيتنى جالسة مع كاتيا جنبا الى جنب ، الى منضدة الدرس • وأظهرت كاتيا ، فى هذه المرة ، كأنما عن

قصد ، كسلا وغباء ، حتى أنكرتها مدام ليوتار ! .. أما أنا فقد تعلمت الألفباء الفرنسية فى هذه الجلسة وحدها ، وجهدت أن أرضى معلمتى بكل ما أوتيت من قوة . وفى نهاية الدرس كانت مدام ليوتار غاضبه جدا من كاتيا ، فقالت لها وهى تشير الى :

ـ انها مريضة تدرس لأول مرة ، ومع ذلك فقد بذلت عشرة أضعاف ما بذلت أنت . ألا تشعرين بالخجل لهذا ؟

فسألتها كاتيا دهشة :

ـ اذن فهى تعرف أكثر مما أعرف ! ولكن كيف ؟ انها ما زالت تتعلم الألفباء ..

ـ كم درسا استغرقت انت فى تعلمها ؟

ـ ثلاثة ..

ـ أما هى فقد استغرقت درسا واحدا . معنى هذا انها أسرع منك فى التعلم ثلاث مرات ، وانها ستتفوق عليك بعد قليل . أليس كذلك ؟

ففكرت كاتيا لحظة ، ثم احمر وجهها احمرارا شديدا حين أدركت أن مدام ليوتار على حق . هكذا كان حالها دائما : حين تؤنب ، سواء لذنب اقترفته أو لاخفاق فى الدرس أصابته ، فانها تحمر ، ويحرقها الشعور بالعار ، أو الحزن ، أو الكبرياء الجريحة . وفى هذه المرة كادت الدموع تنفجر من عينيها ، غير أنها حبستها ، ونظرت الىّ كأنها تريد أن تصعقنى ..

وفهمت فورا ما بها : لقد كان كبرياء الطفلة المسكينة عظيما . وحين

بعدنا عن عينى مدام ليوتار أردت أن أسرع فأقول لها ، تخفيفا عنها ، انه ليس ذنبى ان الفرنسية خاطبتها بهذه اللهجة ، غير أن كاتيا تظاهرت بأنها لا تسمع ما أقول ، وظلت صامتة •

وبعد ذلك بساعة ، دخلت الى الغرفة التى كنت جالسة فيها أقرأ ، ولا ينصرف تفكيرى الا اليها • كان يعذبنى ويخيفنى أن أتصور أنها ، مرة أخرى ، لا تريد أن تكلمنى • ونظرت الىّ ساهمة ، وجلست على الديوان كعادتها ، ولم تحول نظرها عنى خلال نصف ساعة • ثم لم أتمالك نفسى ، فأرسلت اليها نظرة مستفهمة •

فسألتنى كاتيا :

ـ هل تحسنين الرقص ؟

ـ كلا •

ـ أنا أحسنه ••

صمت ••

ـ هل تحسنين العزف على البيانو ؟

ـ كلا ••

ـ أنا أحسنه • والواقع أن تعلمه عسير ••

صمت ••

ـ تقول مدام ليوتار انك أذكى منى •

ـ كانت مدام ليوتار مستاءة منك ، فقالت ذلك •

ـ وبابا هل يستاء أيضا ؟

ـ لا أدرى •

صمت جديد ••

وضربت الاميرة الصغيرة الارض بقدمها الصغيرة ، وقد فرغ صبرها .. ثم لم تستطع أن تخفى مضضها ، فسألت :

ـ اذن ستهزئين بى لأنك أسرع فهما منى !

فصرخت وأنا أثب من مكانى لأسرع اليها وأقبلها :

ـ أبدا . أبدا .

وفجأة ، قالت مدام ليوتار ، وكانت تصغى الى حديثنا منـــذ خمس دقائق ، مخاطبة كاتيا :

ـ ألا تخجلين من هذا القول ، ومن طرح أسئلة كهذه ؟ .. أسفى عليك يا آنسة . تحسدين هذه الطفلة البائسة وتدلين عليها بأنك تحسنين الرقص والعزف على البيانو . أسفى عليك يا آنســة . سأروى هــذا لأبيك !

والتهب خد الأميرة الصغيرة بحمرة قانية . بينما استطردت المربية :

ـ هذا لا يليق . انك تعذبينها بأسئلتك هذه . كان أهلها أناســا فقراء ، فلم يستطيعوا أن يستأجروا لها مربية تعنى بتعليمها . وما تعرفه انما تعلمته وحدها لأن لها قلبا نبيلا وفؤاداً ذكياً . يجب عليك أن تحبيها بدلا من أن تحقدى عليها . عيب . عيب . اذكرى أنها يتيمة ، وان ليس لها أحد فى هذا العالم . لم يبق الا أن تدلى عليها بأنك أميرة ، وانهــا ليست بشىء ، سأتركك وحدك . فــكرى فيما قلتــه لك ، وأصلحى نفسك .

وفكرت الاميرة الصغيرة ، يومين كاملين ! .. خلال يومين كاملين لم تدوِّ قهقهاتها وصرخاتها فى البيت . وكنت اذا استيقظت فى الليــل ، أسمعها تتم فى المنام حديثا مع مدام ليوتار . لقد ضعفت خلال هــذين

اليومين ، وفقد وجهها الزاهر شيئا من ألوانه • وأخيرا ، في اليوم الثالث ، التقينا فى القاعة الكبرى ، فى أسفل • كانت الاميرة الصغيرة خارجة من غرفة أمها ، فلما راتنى ، توقفت ، ثم جلست أمامى ، قريبـــة منى : وانتظرت ما سيقع ، مرتاعة ، مرتجفة ، وأخيرا سألتنى :

ـ نيتوتشكا ، لماذا أنبونى بسببك ؟

فأجبت أبرىء نفسى :

ـ لم يكن ذلك بسببى •

ـ ألم تقل مدام ليوتار انتى أسأت اليك ؟

ـ كلا يا كاتيا ، كلا ، لم تسيئى الى •

فهزت الاميرة الصغيرة كتفيها ، علامة الشك فيما أقول • ثم سألت بعد لحظة من الصمت :

ـ ولماذا تبكين طوال الوقت ؟

فأجبت من خلال دموعى :

ـ لن أبكى اذا شئت •

ومرة أخرى هزت كتفيها •

ـ ولكن هل كنت تبكين فى بيتكم دائما مثلما تفعلين الآن ؟

لم أجب •

ثم سألتنى فجأة ، بعد صمت جديد :

ـ ولماذا أنت فى بيتنا ؟

فنظرت اليها دهشة ، وكأن طعنة نفذت فى قلبى • ولم أستطع أن أجيب الا بعد أن استعدت أنفاسى • قلت :

ـ لأننى يتيمة •

ـ وكان لك بابا وماما ؟

ـ نعم •

ـ وكانا لا يحبانك ؟

ـ بلى • كانا يحبانى •

قلت ذلك بصعوبة •

ـ وكانا فقيرين ؟

ـ نعم •

ـ فقيرين جدا ؟

ـ نعم •

ـ ولم يعلماك شيئا ؟

ـ بلى • علمانى القراءة •

ـ هل عندك لعب ؟

ـ لا •

ـ هل كنت تأكلين فطائر ؟

ـ لا •

ـ ما عدد حجرات بيتكم ؟

ـ حجرة واحدة •

ـ حجرة واحدة ؟

ـ واحدة •

ـ والخدم ، هل كان عندكم خدم ؟

ـ لا •

ـ ومن كان يخدمكم اذن ؟

ـ كنت أنا أشترى الاشياء من السوق •

كانت أسئلة كاتيا تؤلمنى أكثر فأكثر • ثم ان هـــذه الذكريات ، ووحدتى ، ودهشة الاميرة الصغيرة ، كل ذلك كان يبـــدو لى انه رتب خصيصا ليجرحنى ، ليدمى قلبى ، كنت أرتعش من أخمص قدمى الى قمة رأسى ، واختنقت بدموعى •

ـ اذن فأنت سعيدة بوجودك فى بيتنا •

لم أجب •

ـ وهل كان لك ملابس جميلة ؟

ـ لا •

ـ كانت ملابسك بشعة ؟

ـ نعم •

ـ لقد رأيت فستانك •

فما ان سمعت هذا حتى رأيتنى أنهض من مكانى تحت تأثيراحساس غريب ، وأقول :

ـ لماذا تسألينني اذن كل هذه الاسئلة ؟

ثم أضفت وقد احمر وجهى حنقا :

ـ لماذا تستجوبيننى هكذا ؟ لماذا تسخرين منى ؟

وتخضب وجه الاميرة بحمرة قانيـة ، ونهضت من مكانهـــا هى الاخرى ، الا انها لم تلبث أن سيطرت على انفعالها ، وقالت :

ـ كلا لست أسخر منك • وانما أردت أن أعرف هل كان أبواك حقا فقيرين •

فقلت وأنا أبكى ألما :

ـ لماذا تسألينني عن أبى وأمى ؟ لماذا تسألينني عنهما على هذا النحو ؟ فيم أساءا اليك يا كاتيا ؟

واضطربت كاتيا اضطرابا شديدا ، ولم تعرف بم تجيب • وفى هذه اللحظة دخل الامير •

فلما رآنى أبكى ، قال :

ـ ماذا بك يا نيتوتشكا ؟

ثم التفت الى كاتيا ، وكانت بلون الجمر احمـرارا ، وكرر علىّ سؤاله :

ـ ماذا بك ؟ ماذا هنالك ؟ لماذا اختصـمتما يا نيتوتشـكا ؟ فيم تشاجرتما ؟

ولكننى لم أكن أسـتطيع جوابا ، ورأيتنى أرتمى على يده أقبلها باكية •

ـ كاتيا ، لا تكذبى • قولى ماذا جرى !

ولم تكن كاتيا تعرف الكذب فقالت :

ـ قلت لها اننى رأيت فستانها الرديء الذى كانت تلبسه يوم كانت تعيش مع أبيها وأمها •

ـ من أراك الفستان ؟ من ذا الذى سمح لنفسه بأن يريك اياه ؟

فأجابت كاتيا بلهجة جازمة :

ـ رأيته بنفسي ، لم يرنيه أحد .

ـ حسن ، حسن . لا تريدين أن تشي بأحد . أنا أعرفك . اكملي كلامك .

ـ أخذت تبكي وسألتني لماذا أسخر من أبيها ومن أمها .

ـ اذن فقد سخرت منهما .

لئن لم تسخر كاتيا من أبوي ، لقد كان ذلك في نيتها قطعا ، كما شعرت .

لهذا لم تجب على سؤال أبيها بكلمة ، ومعنى صمتها انها تقر بخطئها فقال لها الامير مشيرا الىّ :

ـ ستعتذرين لها حالا .

الا ان الاميرة الصغيرة ، وقد امتقع لونها ، لم تقم بأية حركة . فقال الأمير :

ـ انني أنتظر .

فما كان منها الا أن صرخت فجأة ، وقد التمعت عينـــاها بالشر ، وضربت برجلها الارض :

ـ كلا . لا أريد . لا أريد . لا أريد أن أعتذر لهـا . يا بابا . انني لا أحبها . ولا أحب أن أبقى معها بعد الآن . ليس ذنبي أنها تظـل تبكي طوال النهار . لا أريد . لا أريد !

ـ تعالى معي .

قال الامير ذلك ، ثم أخذ يدها ، وقادها نحو حجرته •

والتفت الىّ قائلا :

ـ اصعدى ، يا نيتوتشكا •

وددت لو أرتمى على الامير أطلب اليه أن يغفر لكاتيا ، الا أنه كرر أمره بلهجة صارمة ، فصعدت الى الجناح الاعلى من المنزل ، وأنا أشبه بالميتة • فما ان بلغت غرفتنا حتى سقطت على « الديوان » مخفية وجهى بين ذراعى • وأخذت أعد الدقائق • كنت أنتظر كاتيا بفارغ صبر ، لارتمى على قدميها • وأخيرا عادت كاتيا • ولكنها مرت بجانبى دون أن تقول كلمة واحدة ، ومضت الى ركن من أركان الغرفة تجلس فيه • كانت عيناها حمراوين ، وكان خداها مبللين بالدموع • فما ان رأيتها على هذه الحال حتى خارت قواى وفقدت كل شجاعة ، وأخذت أنظر اليها فى رعب لم أستطع من فرطه أن أتحرك •

واتهمت نفسى بكل قواى ، وبكل قواى جهدت أن أقنع نفسى بأننى وحدى المذنبة • وهممت ، ألف مرة ، أن أقترب من كاتيا ، ولكننى كنت أتوقف ، خشية أن تسىء استقبالى •

وفى مساء اليوم التالى لاحت كاتيا أكثر مرحا ، وطفقت تطارد عجلتها فى الغرفة ، ولكنها لم تلبث أن تركت لعبها ، وعادت تجلس فى ركنها وحيدة • وقبل أن تمضى الى سريرها بلحظة واحدة ، التفتت الىّ ، بل تقدمت نحوى خطوتين ، وانفرجت شفتاها تريد أن تكلمنى ، الا انها توقفت فجأة ، وأشاحت بوجهها عنى ، ومضت الى سريرها •

وانقضى على هذا يوم آخر ، واستغربت مدام ليوتار حالة كاتيا ، وبدا لها أن تسألها : ماذا بها ؟ هل هى مريضة حتى تغدو هادئة كل هذا

الهدوء ؟ فأجابتها كاتيا ببضع كلمات ، ثم تناولت كرتها الطائرة • ولكن ما ان انصرفت مدام ليوتار حتى انفجرت باكية ، وهربت من الغرفة ، بعيدة عن أنظاري • وأخيرا حزمت كاتيا أمرها • فهاهي ذات مساء ، بعد مشاجرتنا بثلاثة أيام ، تصل الى غرفتنا على حين غرة ، وتقترب مني خجلة ، وتقول :

ـ أمرني بابا أن أعتذر لك • هل تريدين أن تصفحي عني ؟

وأمسكتُ كاتيا بكلتا يديَّ ، فقلت لها ، وأنا ألهث من شدة الانفعال :

ـ نعم ، نعم •

ـ وأمرني بابا بأن أقبلك • هل تريدين أن تقبليني !

وكان جوابي على هذا اني أخذت أقبل يديها وأغرقهما بالدموع • وحين رفعت بصري الى كاتيا ، لاحظت أنها لم تكن في حالتها المعتادة : ان عينيها مبللتان بالدموع ، وان شفتيها لترتجفان ، الا انها سرعان ما كبتت انفعالها ، وعادت الابتسامة فجأة الى ثغرها •

قالت في هدوء ، كأنما هي تحدث نفسها :

ـ سأمضي أقول لبابا انني اعتذرت لك وانني قبلتك •

وأردفت ، بعد لحظة من الصمت :

ـ منذ ثلاثة أيام لم أره • لقد منعني من المجيء اليه قبل أن أنفذ أمره •

ثم نزلت الى لقاء أبيها ساهمة وجلة •

وما انقضت على ذلك ساعة حتى دوى فى البيت ، فجأة ، الصراخ والصخب والضحك وعواء « فالستاف » • وسمعت شيئا يتدحرج ويتحطم •• وطارت كتب الى الارض • وانطلقت العجلة تدور من غرفة الى أخرى • ففهمت أن الصلح قد تم بين الاب وابنته ، ووثب قلبى من مكانه فرحا بذلك •

الا أن كاتيا لم تقترب منى • كان واضحا أنها تجهد أن لا تكلمنى • على انها كانت تستغرب أمرى استغرابا شديدا ، وتتحرق شوقا الى فهمى ، فكان ذلك يربكنى ويؤلمنى • أصبح جلوسها أمامى متفرسة ، يزداد يوما بعد يوم • وأصبحت الملاحظات التى تبديها بصددى أكثر سذاجة مما كانت ! ان الشىء الذى لم تستطع أن تفهمه هذه الطفلة الرقيقة التى كان كل من فى البيت يدللها ، ويعبدها ويحتضنها ككنز جميل ، هو انها لقيتنى فى طريقها عدة مرات فى وقت لم تكن تحرص فيه على أن ترانى أبدا • على أنه كان لها قلب صغير رائع يعرف بغريزته ، دوما ، كيف يجد الطريق القويم • كان أبوها أكثر الناس تأثيرا فيها ، وكانت هى تحبه حبا عظيما ، كما كانت أمها تحبها حبا جنونيا • غير أنها كانت تعاملها فى قسوة شديدة • ولقد ورثت كاتيا عن أمها الزهو والكبرياء والعناد وقوة الارادة • الا أن هذا لم يكن يمنعها من احتمال جميع نزوات أمها التى تبلغ أحيانا حد الاستبداد والتعذيب الروحى • وكانت الاميرة الأم تفهم التربية فهما غريبا : كانت تربيتها لكاتيا مزيجا عجيبا من دلال لا حد له ومن قسوة لا يشفى لها غليل ! •• فما كان مسموحا به أمس ، يصبح اليوم ممنوعا ••• وهكذا كان الشعور بالعدل يفسد لدى هذه الطفلة بلا انقطاع • على انتى سأعود الى هذا فيما بعد • وانما أحب أن أذكر الآن أن كاتيا عرفت كيف تنظم علاقتها بأبويها : اما مع أبيها فكانت تبقى على طبيعتها حرة منطلقة لا تلف ولا تدور • وأما مع أمها فكانت منطوية على

نفسها ، حذرة ، مطواعة • غير أن هذه الطاعة لم تكن تجرى على سجيتها صادقة منطلقة ، وانما كانت مبدأ وخطة • وسأشرح هذا أيضا فيما بعد • على انه لا بد من القول ـ وذلك أمر يشرف كاتيا ـ انها انتهت أخيرا الى فهم أمها : فلئن كانت تطيعها ، فلأنها شعرت شعورا قويا بما تكنه لها أمها من حب لا حد له ، من حب يبلغ أحيانا حد الهوى المرضى ! •• لقد كانت الاميرة الصغيرة التى لا يعوزها نبل النفس تحسب حساب هذه الناحية • الا أن هذا الحساب ، وا أسفاه ، لم يسعف رأسها الصغير ، فيما بعد ، الا قليلا •

وكنت أنا لا أفهم ماذا بنفسى • كان كيانى يجيش باحساس جديد لا سبيل الى فهمه ، ولست أبالغ اذا قلت ان ذلك كان يعذبنى كثيرا • والأفضل أن أعترف بأن عاطفتى نحو كاتيا كانت هى العشق •• اغفروا لى استعمال هذه الكلمة • نعم كانت هى العشق بعينه ، بدموعه ، وأفراحه، العشق الهائم الجامح • ما الذى كان يجذبنى اليها ؟ لماذا نشأ فى نفسى هذا الحب ؟ لقد بدأ من النظرة الأولى ، لقد اهتزت جميع عواطفى اهتزازا لذيذا حين رأيت ، فجأة ، هذه البنية الجميلة جمال الملائكة • كل شىء فيها جميل ، ما من عيب من عيوبها أصيل فيها ، جميع عيوبها دخيلة عليها ، لا تنفك تصطرع مع نفسها الاصيلة • كل شىء فيها يلتمع برجاء مشرق ، كل شىء فيها يبشر بمستقبل رائع •

ولم أكن أحبها وحدى • كان كل انسان يحبها • كان يتفق لنا أن نخرج فى نحو الساعة الثالثة فى نزهة ، فما ان تقع علينا أبصار المارة حتى يتوقفوا فى أماكنهم متجمدين • وكثيرا ما كانت صرخات الاعجاب تنطلق وراء هذه الصبية السعيدة متلاحقة : « لقد خلقت للسعادة ، وهى تعيش لها •• » • ذلك كان لسان حال كل من يراها • أما أنا فلعل الاحساس الجمالى هو الذى أثر فى نفسى قبل كل شىء آخر • لعل الشعور بالجمال

هو الذى أثر فى نفسى قبل كل شىء آخر فما ينبغى أن نبحث عن غيره علة لحبى كاتيا .

.. على أن آفتها الأساسية كانت هى الزهو .. هذا الزهو الذى يدفع بصاحبه دفعا الى الرجوع الى طبيعته الخاصة ، ويجعله بذلك مقاتلا. كان الزهو يتجلى حتى فى سذاجات صبيانية ، ويختلط بالانانية اختلاطا يبلغ من القوة ان أى معارضة ، مهما تكن صورتها ، كانت تدهشها أكثر مما كانت تسوءها أو تغضبها . كانت لا تستطيع أن تقبل أن يتم أمر من الأمور لم ترده . ومع ذلك كان احساسها بالعدل يسيطر على كل شىء . فما ان تدرك أنها كانت على خطأ ، حتى تذعن لتأنيب ضميرها دون مواربة أو تعلل . ولئن ساء سلوكها معى حتى تلك اللحظة ، فانى أسند ذلك الى نفور كانت تشعر به نحوى ، دون أن تستطيع له دفعا ! .. كان سلوكها هذا أمراً لا مفر منه . كانت تستسلم لاندفاعاتها فى كثير من الجموح ، وكان لا بد لها ، دوما ، من أمثلة ومن تجارب حتى تعود الى الطريق القويم . ورغم أن نتائج كل ما تقوم به من أعمال كانت نتائج جميلة وصادقة فانها لم تكن تصل الى هذه النتائج الجميلة الصادقة الا بعد انحرافات مستمرة ، وأخطاء متواصلة .

ولم تلبث كاتيا أن شبعت من ملاحظتى والتفرس فى ، وقررت أخيرا أن تدعنى وشأنى .. وأصبح سلوكها سلوك من لا يشعر بوجودى ، فما من كلمة توجهها الى ، الا فيما مست اليه ضرورة .. وأبعدتنى عن ألعابها ، ولكن بدون قسوة . اقصتنى عنها ببراعة ، حتى لكأن هذا الاقصاء تم بارادتى !

وكانت الدروس تسير فى مجراها . ولكننى فقدت شرف الاساءة الى كبريائها باتخاذى مثلاً يضربونه لها على الذكاء والرقة ، مع أن هذه

الكبرياء كانت من سرعة التأثر بحيث أنه كان لـكلبنا ، « سير جـــون فالستاف » ، سلطان كبير عليها • كان فالستاف ذا مزاج بارد ، الا أنه كان شريرا كنمر • فاذا اهتاج ، أصبح وحشا كاسرا ، فلم تستطع كاتيا أن تملك زمامه • وأكثر من ذلك انه كان لا يحب أحدا • الا آن عـدوه الأول ، عدوه الطبيعى ، كان هو الاميرة العجوز من غير ريب ـ وسوف تأتى قصة ذلك فى حينها ـ أما كاتيا المتكبرة فكانت تستعمل كل الوسائل للتغلب على عداوة فالستاف • كانت لا تطيق أن يكون هذا الحيوان الكائن الحى الوحيد الذى يستطيع ، فى هذا المنزل ، أن يتجاهل سلطتها وقوتها، فلا يخضع لها ، ولا يحبها ! •• لذلك قررت أن تهاجم الكلب • ان كاتيا تريد الآن أن تفرض سيطرتها على هذا الحيوان • كيف يجرؤ فالستاف ان يقاومها ؟

غير أن الكلب العاصى لم يخضع •• ففى ذات مرة ، بعد العشاء ، بينما كنا جالسين فى القاعة الكبرى ، فى الطابق الاســـفل ، جاء الكلب واســـتقر فى وسط القاعة ، ليستمتع بقيلولته • عنـــدئذ قررت الاميرة الصغيرة أن تشرع فى تنفيذ خطتها • فتركت لعبها ، واقتربت منه ، حذرةً ••• على رءوس الأصابع ، وهى تناديه بأرق الأسماء ، وتدعوه اليها بألطف الحركات والاشارات • الا أن « فالستاف » كشر عن أنيابه الفظيعة ، من بعد ، فتوقفت الاميرة الصغيرة • ان ما كانت تريده هو أن تأتى اليه ، أن تداعبه ، أن تحمله على اللحاق بها ، وهذا ما لم يكن يسمح به لأحد غير الاميرة الأم ، التى كان أثيرا لديها •

وكانت الخطة عسيرة ، تقتضى كثيرا من البراعة ، بل تشتمل عـلى خطر كبير ، لأن فالستاف لن يزعجه أن يعض يدها ، ولا أن يمزق يدها اربا ، اذا بدا له ذلك • انه قوى ، كالدب •

وكنت أرقب محاولة كاتيا ، قلقة ، خائفة • الا ان صرفها عن فكرة بدت لها لم يكن بالامر السهل • ان الأنياب التى كشر عنها فالستاف لم تستطع أن تحولها عن عزمها ، فلما أدركت أنها لا تستطيع أن تقترب من عدوها على خط مستقيم ، أخذت تدور حوله ، محاذرة • ولم يتحرك فالستاف • وبعد أن أنهت دورتها الأولى ، دارت دورة أضيق ، وما زالت تضيق دورتها حتى أصبحت من فالستاف على المسافة التى يراها معقولة ، فلما همت أن تتجاوزها كشر عن أنيابه مرة أخرى ، فما كان من الاميرة الا أن ضربت الارض بقدميها ، وابتعدت ساخطة ، وجلست على «الديوان» تفكر •

وما هى الا عشر دقائق حتى اهتدت الى وسيلة للاغراء جديدة : فاذا هى تخرج من الغرفة ثم تعود وفى يدها مكسرات وحلوى • لقد غيرت سلاحها • الا أن فالستاف لم يبال هذا الاغراء الجديد ، ربما لأنه لم ينظر الى قطعة الحلوى التى رمتها اليه • ولكن حين دخلت الاميرة الصغيرة حدود الدائرة التى يعدها أرضه ، أظهر الكلب معارضة أبلغ وأقوى من معارضته فى المرة الاولى ، فرفع رأسه ، وكشر عن أنيابه ، وأخذ يهمهم ، وهمّ بحركة تدل على أنه مستعد لأن يثب من مكانه • فالتهب وجه كاتيا غضبا ، ورمت قطعة الحلوى التى كانت تمسكها ، وعادت تجلس فى مكانها ••

انها مضطربة أشد الاضطراب ، ان خديها كالجمر احمرارا ، بل ان دموعها لتتفجر من عينيها • ولما رأت انى أنظر اليها ، غلى الدم فى رأسها ، فاذا هى تثب من مكانها فجأة فى اتجاه الحيوان الكاسر !

ولعل فالستاف قد تجمد فى هذه المرة من الدهشة ، فترك عدوته تجتاز الحدود ، ولم يحيّ البنت الطائشة بهمهمة مخيفة الا حين رآها

قريبة جدا منه • فتوقفت كاتيا ثانية أو أقل من ثانية ، ثم تابعت سيرها بخطى ثابتة • تجمد الدم فى عروقى من شدة الذعر • كانت الاميرة الصغيرة فى حالة من الهياج ما رأيتها فى مثلها يوما • لقد كان اليقين من الانتصار يلهب عينيها • لم تحول نظرها عن الكلب الكاسر وهو يرمقها بنظرات غاضبة ، ولم ترتجف أبدا أمام أنيابه المهددة •• بينما انتصب الكلب • وانطلق من صدره الكثيف هدير رهيب ، فقلت فى نفسى : لن تنقضى دقيقة واحدة الا ويمزقها اربا ! •• الا ان الاميرة الصغيرة وضعت يدها الصغيرة عليه فجأة فى اعتزاز ، وداعبت ظهره ثلاث مرات وقد بدت عليها خيلاء الظفر • وظهر على الكلب نوع من التردد • كانت تلك أسوأ اللحظات • لكن الكلب لم يلبث أن نهض متثاقلا ، وتمطى ، ولعله قال فى نفسه انه لا يليق به أن يقتتل مع طفلة ، ثم ترك الغرفة فى هدوء ووقار• وبقيت الاميرة الصغيرة سيدة المكان ، فرمقتنى بنظرة خاصة ، نظرة مفعمة بالنشوة ، نظرة من أسكرها الشعور بالنصر • وكنت أنا شاحبة شحوبا كبيرا • ولاحظت هى ذلك فابتسمت • الا أن وجنتيها أخذتا تشحبان ، وما استطاعت أن تعود الى « الديوان » الا فى كثير من العناء • فتهالكت عليه فاقدة الوعى تقريبا •

منذ ذلك اليوم أصبح هواى لا يعرف الحدود • أصبحت أخاف على كاتيا خوفا شديدا ، وأصبح الحزن يحرقنى حرقا • ألفَ مرة أوشكت أن أرتمى على عنقها وسمرنى الوجل فى مكانى • وكنت أحاول أن أتحاشاها حتى لا ترى انفعالى ، فاذا اتفق أن دخلت الغرفة التى كنت أظن أننى مختبئة فيها ، أخذ قلبى يدق دقا قويا حتى لأرى الاشياء أمامى تدور! ••• وأعتقد أن هذه البنية الشيطانة لاحظت الأمر ،لأنها ظلت خلال يومين بادية التململ • الا انها لم تلبث أن اعتادت على ذلك •

وانقضى شهر . كنت أتعذب فى سرى . ويجب أن أذكر أننا ، أنا وكاتيا ، لم نتبادل خلال هذه المدة كلها خمس كلمات ! . الا انني أدركت شيئا فشيئا ، من بعض القرائن الصغيرة ، ان سلوك كاتيا نحوى لا يمليه عليها أنها نسيتنى أو انها لا تحفل بأمرى ، وانما يمليه عليها قرار ارادى ، كأنما هى آلت على نفسها أن لا تدعنى أتجاوز بعض الحدود ، ومع ذلك بلغتُ من العذاب أننى أصبحت لا أستطيع أن أنام ، وأصبحت لا أستطيع أن أخفى انفعالى حتى عن مدام ليوتار . أصبح حبى لكاتيا مرضا ! .. اذكر اننى ذات مرة سرقت أحد مناديلها خلسة ، وفى مرة أخرى سرقت أحد أشرطة شعرها ، وقضيت ليالى برمتها أقبلهما باكية !

الفصل السادس

اعراض كانيا عنى فى أول الامر قد أرهقنى ، الا ان كل شىء قد اختلط الآن فى أعماق نفسى ، حتى صرت لا أعرف ما أشعر به • وهكذا أخذت مشاعرى الجديدة تمحو مشاعرى القديمة ، وأصبحت ذكرى ماضى الحزين تفقد من قوتها ومن ألمها ، لتحل محلها آلام حياتى الجديدة •

كان يتفق لى أن أستيقظ فى الليل ، فانهض من سريرى ، وأقترب من سرير الاميرة الصغيرة على رءوس الاصابع ، ثم أظل الى جانب سريرها ساعات طويلة أنظر اليها على ضوء المصباح الشاحب • وكنت فى بعض الأحيان أجلس على حافة سريرها ، وأنحنى على وجهها أتنسم أنفاسها الدافئة • وفى رفق ، وأنا أرتعد خوفا ، أقبل يديها ، وكتفيها ، وشعرها ، وقدميها ـ حين تبرز قدماها من تحت الغطاء ـ ولاحظت شيئا فشيئا (وكان نظرى لا يفارقها منذ شهر !) ان كانيا تزداد وجوما ، يوما بعد يوم ، وان مزاجها يزداد تقلبا ساعة بعد ساعة ، فها هى اليوم تقضى النهار كله

لا يسمع لها صوت ، وهاهي فى الغد تحدث صخبا أقوى من كل ماأحدثت قبل ذلك من صخب ! .. وهى الآن سريعة الاهتياج ، كثيرة المطالب ، تحمر وتغضب فى كل لحظة ، ولا يخلو سلوكها نحوى من شراسة وقسوة . وفجأة ، أصبحت ترفض أن تتناول الطعام معى ، وأن تجلس الى جانبى ، كأنما هى تشمئز منى !

ثم صار يتفق لها أن تمضى الى غرفة أمها تقضى معها النهار كله ، ربما لانها تشعر اننى أتحطم حزنا فى غيابها . وفجأة ، أصبحت تحدق فىّ ساعات طويلة ، فيصرعنى الاضطراب صرعا ، وأحمر وأصفر ، ثم لا أدرى ماذا أصنع بنفسى ، ولا أجرؤ أن أدع الغرفة .

وانتابت الحمّى كاتيا مرتين ، وهى التى لم تمرض قبل ذلك أبدا ! وأخيرا ، ذات صباح ، انتهت الى قرار لم يكن فى الحسبان : قررت كاتيا ، على حين غرة ، أن تقيم فى الطابق الاسفل مع أمها . وكادت امها تموت خوفا حين علمت أن ابنتها مريضة تنتابها الحمى . وينبغى أن أذكر أن الأم كانت حانقة علىّ ، فهى تعزو الىّ جميع التغيرات التى لاحظتها فى سلوك ابنتها ، وترى أن مزاجى الحزين الكئيب قد انعكس على مزاج ابنتها . ولئن لم تفصل احدانا عن الاخرى منذ زمان طويل فما ذلك الا تحاشيا لما قد يقوم بينها وبين زوجها من نقاش بهذا الصدد . كان زوجها يسايرها عادة فى كل أمر ، الا انه كان فى بعض الاحيان صلبا عنيدا لا سبيل الى صرفه عن رأيه .. وكانت الاميرة تفهم الامير حق الفهم .

وهكذا كان لانتقال كاتيا الى الطابق الاسفل مثل وقع الصاعقة على نفسى ، فقضيت أسبوعا كاملا فى لوعة مبرحة . وأخذت أحطم رأسى بحثا عن سبب الكره الذى تحمله كاتيا لى ! ..

كان الحزن يمزقنى تمزيقا ، ثم أخذت فكرة العدالة تذر قرنها فى نفسى الجريحة ، وأخذ يجتاحنى شعور بالاستياء والاستنكار . وخالجنى

فجأة نوع من العزة • حتى اذا خرجت مع كاتيا فى ساعة نزهتنا ، رأيتنى أنظر اليها فى كبرياء وجد لم تعهدهما فى من قبل ، فأدهشها ذلك أشد الدهشة • طبيعى أن هذا التبدل لم يكن يظهر الا ليزول ، فسرعان ما كان قلبى يخفق خفقانا شديدا ، فاذا أنا أشد ضعفا وخجلا منى فى أى وقت مضى !

وأخيرا ، ذات صباح ، ظهرت كاتيا فى الطابق الأعلى ، فأذهلنى ظهورها هذا ، وأشاع فى نفسى اضطرابا فرحا • انها تسرع الى التعلق برقبة مدام ليوتار ، وهى تضحك ضحكا صاخبا ، وتنبئها بأنها عائدة الينا • ثم ترجوها أن تعفيها من الدراسة فى هذا الصباح ، وتنطلق تركض وتلعب •• لم أرها يوما فى مثل هذا الفرح والمرح •

غير أنها هدأت فى المساء ، فاذا هى واجمة تفكر ، ثم اذا بالحزن يلقى ظله على وجهها الجميل • وحين صعدت الاميرة تريد أن تراها ، لاحظت أن كاتيا تحاول جهدها أن تظهر مرحة • وما ان مضت أمها ، حتى انفجرت باكية • وتأثرت أنا بمنظرها تأثرا شديدا ، واذ لاحظت كاتيا تأثرى ، انصرفت • ان أزمة لم تكن فى الحسبان تتهيأ فى نفسها • واستدعت الاميرة الطبيب ، وطلبت الى مدام ليوتار أن توافيها بتقرير يومى عن كل ما يتصل بابنتها تفصيلا • وأمرت بأن تراقب كاتيا مراقبة دقيقة !

لكنى كنت أنا وحدى التى أوجست الحقيقة ، وقلبى ينبض أملا ورجاء • ان روايتنا الصغيرة تشارف على نهايتها •• فبعد ثلاثة أيام من عودة كاتيا الى جناحها ، رأيتها تنظر الى طويلا بعينيها الرائعتين • والتقى بصرى ببصرها عدة مرات ، فكنا فى كل مرة نحمر خجلا ، كأن كلاً منا يشعر بأنه مذنب فى حق الآخر • وأخيرا انصرفت كاتيا ، وهى تضحك •

ودقت الساعة الثالثة ، وألبسونا ثياب النزهة ، فاذا بكاتيا تقترب مني فجأة وتقول :

ـ لم يربط حذاؤك جيدا • دعني أربطه ••

فاحمر وجهي احمرارا شديدا ، لأن كاتيا كلمتني أخيرا ، وأردت ان أنحني لأتولى ربط حذائي بنفسي ، فقالت كاتيا وهي تضحك :

ـ دعني أربطه ••

ثم انحنت ، وأمسكت قدمي رغما عني ، فوضعتهما على ركبتها وأخذت تربط الحذاء •• فاجتاحني خوف عذب ، جعلني ألهث ، ولا أستطيع لانفعالي حبسا •• فلما نهضت كاتيا بعد أن فرغت من ربط الحذاء ، أخذت تنظر الي من الرأس الى القدمين •

ثم قالت وهي تلمسني بأطراف أصابعها :

ـ والعنق غير مغطى • دعني أصلح ربط الوشاح ••

ولم أحتج ، فحلت كاتيا وشاحي ، ثم لفت به عنقي على طريقتها ، واعادت ربطه •• ولم تلبث أن استطردت :

ـ والا فقد تصابين بزكام •

قالت ذلك وهي تبتسم ، وتنظر الي بعينين سوداوين مغرورقتين •

أما أنا فكنت في حالة اضطراب شديد ، لا أفهم شيئا مما يقع لي ، ولا أفهم شيئا مما يجيش في نفس كاتيا • وكانت نزهتنا قصيرة لحسن الحظ ، والا لما استطعت أن أمنع نفسي عن الارتماء على عنقها وتقبيلها في عرض الشارع ! •• واستطعت مع ذلك ، ونحن نصعد السلم ، أن أختلس قبلة على كتفها • ولاحظت هي ذلك فارتعشت ، الا انها لم تقل شيئا • ولما أتى المساء ألبسوها أجمل حلة • وأنزلوها الى جناح الاميرة أمها ، لتشترك في استقبال الزائرين •

غير أن البيت انقلب رأسا على عقب أثناء الاستقبال • ذلك أن نوبة عصبية ألمت بكاتيا ، فاضطربت الاميرة اضطرابا شـــديدا ، واستدعت الطبيب • وظهرت على الطبيب علائم الحيرة والارتباك ، وأرجع هـــذه النوبة ، طبعا ، الى اضطراب السن ، الا انني كنت أعلم أن حالة كاتيـا ترجع الى سبب آخر • وعادت كاتيا فى صباح اليوم التالى الى طبيعتهـا ، متوردة الخدين ، مرحة المزاج ، تفيض صحة ونشاطا ونزوات •

ورفضت كاتيا طوال فترة الصباح أن تطيع مدام ليوتار ، ثم أرادت فجأة أن تزور الاميرة العجوز • ووافقت الاميرة العجوز أن تأتى اليهـا كاتيا ، على خلاف عادتهـا ـ فقد كانت العجـوز لا تطيق كاتيا ، وكانت تشاجرها بلا انقطاع وترفض أن تراها ! ـ وبدا الانسجام بين العجـوز وكاتيا على أحسن ما يرام ، خلال الساعة الاولى من لقائهما ، فان الشيطانة الصغيرة أخذت تستغفر العجوز عن أخطائها ، عن كثرة حركتها وصخبها، عن تعـكيرها صفاء الآنســة عمتها • فترقرقت الدموع فى عينى الاميرة العجوز ، وغفرت لها أخطاءها فى لهجة رصينة وقورة • ومضت كاتيـا الى أبعد من هذا (وكانت تعتز بشقاوتها) فزعمت للعجوز أنها نادمة على خطاياها ، تريد أن تصـلى وأن تصـــوم وأن تضرع الى الله • فارتاحت الاميرة التقية لهـذه التوبة ، وشعرت فى أعماقها بكثير من الزهو • لقـد استطاعت أن تسيطر على هذه الطفلة التى هى كنز البيت ومعبودته ، هذه الطفلة التى كانت أمها نفســـها ترضخ لجـميع نزواتهـا وتحقق كل رغباتها !

عندئذ اعترفت الشيطانة الخبيثة أنها كانت تنوى أن تعلق بطاقة على ثوب السيدة العجوز ، وأن تسكن الكلب « فالستاف » تحت سريرها ، وأن تكسر لها نظاراتها ، وأن تأخذ جميـع كتبها لتضـع فى مكانهـا روايات

فرنسية من مكتبة أمها ، وأن تشترى متفجرات ترميها على أرض غرفتها، وان تدس فى جيبها مجموعة من ورق اللعب .. اعترفت بأنها كانت تنوى القيام بسلسلة من الاعمال الخبيثة . فما ان سمعت الانسة العجوز هذا الكلام حتى خرجت عن طورها ، واصفرت واحمرت سخطا وغضبا، ولم تستطع كاتيا أن تمتنع عن اظهار فرحها ، فهربت وهى تنفجر ضاحكة. ولم تلبث العجوز أن استدعت ابنة أخيها على الفور . وكانت قصة . ظلت الاميرة ، خلال ساعتين ، تتوسل الى عمتها ، والدموع فى عينيها ، آن تصفح عن كاتيا ، وآن لا تأمر بمعاقبتها ، وأن تنظر بعين الاعتبار الى أن الطفلة مريضة . غير أن الاميرة العجوز لم تشأ فى أول الامر أن تسمع شيئا ، وصرحت أنها ستغادر البيت فى الغداة ، ولم تهدأ الا حين قطعت الاميرة عهدا على نفسها أن تنزل بكاتيا العقاب الشديد الذى تستحقه ، متى ابلت من مرضها . وفى انتظار ذلك أُنبت كاتيا تأنيبا شديدا ، واقتيدت الى تحت ، الى جناح آمها . غير أن المذنبة الصغيرة استطاعت أن تفر بعد العشاء . فقد لقيتها على السلم بينما كنت أهبط ، ورأيتها تشق الباب ، وتدعو « فالستاف » . ففهمت على الفور أنها تدبر انتقاما فظيعا . واليكم التفاصيل :

لم يكن للاميرة العجوز من عدو ألد من « فالستاف » . وكان فالستاف لا يسمح لأحد بمداعبته ، ولا يحب أحدا . انه حيوان مغرور صلف الى أبعد حدود الغرور والصلف . كان اذن لا يحب أحدا ، ولكنه كان يقتضى الجميع احتراما يراه من حقه . والواقع ان كل من فى البيت كان يوفيه حقه هذا من الاحترام ، خوفا ورهبة . ولكن الوضع اختلف كل الاختلاف حين وصلت الاميرة العجوز . لقد أهين فالستاف عندئذ أفظع اهانة ، اذ منع من الوصول الى الجناح الأعلى !

وغضب فالستاف فى أول الامر غضبا شديدا ، وظل أسبوعا كاملا

يخدش باب السلم المؤدى الى مدخل الجناح الأعلى ، الا انه لم يلبث أن فهم سبب اقصائه ، حتى اذا جاء يوم الاحد ، ورأى العجوز خارجة الى الكنيسة ، هجم عليها وهو يهمهم ويعوى ، ولم يمكن تخليصها من انتقامه الا بشق الأنفس • وأصبحوا لا يمنعونه منعا باتا من الصعود الى الجناح الأعلى فحسب ، بل أصبحوا كلما نزلت الاميرة العجوز يقصونه الى أبعد مكان ممكن • لقد صدرت للخدم أوامر قاسية بهذا الصدد • ومع ذلك استطاع الحيوان الحاقد الحانق أن يصعد الى الجناح الاعلى ثلاث مرات، وكان فى كل مرة يعدو خلال الحجرات انسلالا حتى يصل الى مخدع الاميرة العجوز ، دون أن يقدر أحد على وقفه ، الا أن الباب يكون مغلقا لحسن الحظ ، فما يستطيع فالستاف أن يزيد على الزئير وراءه زئيرا مرعبا، الى أن يسارع الخدم فينزلوه الى أسفل • أما الاميرة العجوز فكانت ، طوال زيارته الوقحة ، تصرخ صراخ من يسلخ جلده ، ثم تقع مريضة من شدة الذعر • وأرسلت العجوز عدة مرات انذارا الى ابنة أخيها تقول فيه ان هذه هى المرة الاخيرة ، وان على فالستاف أن يخرج من البيت أو تخرج هى منه ، الا أن الاميرة لم تقرر أن تنفصل عن كلبها •

ذلك أن فالستاف كان أحب سكان البيت الى قلب الاميرة بعد أبنائها، واليكم السبب :

ذات يوم ، منذ ست سنين ، جاء الامير الى البيت ، فى عودته من نزهته ، بكلب قذر مريض يرثى لحاله ، وان كان ينتمى الى فصيلة ممتازة من فصائل الكلاب • لقد أنقذ الامير هذا الكلب من الموت • ولما كان القادم الجديد شرس الطبع فظا ، فقد أمرت الاميرة بأن يربط فى فناء المنزل • ولم يعترض الامير على ذلك ••

وبعد سنتين ، بينما كانت الاسرة كلها فى الريف ، سقط «ساشا»

ـ أخو كاتيا ـ فى نهر (نيفا) على حين غرة • فاخذت الاميرة تصرخ ، ورمت بنفسها فى النهر • ولم ينقذوها من موت عاجل محقق الا بعد كثير من العناء • أما الطفل ، وقد جرفه تيار النهر السريع ، فقد ظل عائما على سطح الماء بفضل ثيابه الطافية • وأسرعوا الى قارب ففكوه محاولين أن يمضوا به الى الطفل • ولكن كان لا بد من معجزة للعودة بالطفل حيا •• وفيما هم كذلك اذا بكلب ضخم يرتمى فى الماء ، ويمضى قدما نحو الامير الصغير الذى يوشك أن يغرق ، فيقبض عليه بأسنانه ، ويعدو به الى الشاطىء ظافرا • وترتمى الاميرة على الكلب المبلل تقبله ، الا أن فالستاف (وكانوا يطلقون عليه حتى ذلك الحين اسما شعبيا هو «فريسكا») كان فى ذلك الحين لا يطيق المداعبات ، فرد على مداعبات الاميرة وعلى قبلاتها بعضة فى كتفها عميقة جدا • وقد ظلت الاميرة تحس هـذا الجرح خلال حياتها كلها ، الا ان ذلك لم يقلل من شعورها نحو الكلب بعواطف الشكر والامتنان • وبعد هذه الحادثة أصبح يسمح لفالستاف بالتجول فى أجنحة المنزل ، ويعتنى بنظافته ويزين جيده بعقد من فضة جميل • وصار يحق له أن يستقر فى حجرة الاميرة على جلد فاخر من جلود الدببة ، وما لبثت الاميرة أن توصلت الى مداعبته دون أن تخشى عضة سريعة قاسية ، وحين علمت أن أثيرها هذا يدعى «فريسكا» استاءت استياء شديدا وبحثت له ، فورا ، عن اسم جديد ، حرصت على أن يكون من أسماء الاقدمين ، ما أمكن ذلك • الا أن أسماء مثل اسم « هكتور » أو « سربير » كانت شائعة مبتذلة ، وكان لا بد من ايجاد اسم أليق • واقترح الامير أخيرا ، لما يتصف به فريسكا من شراهة قوية ، أن يسميه «فالستاف» • وسرت الاميرة بهذا الاسم بل تحمست له • وكان سلوك فالستاف سلوكا لا غبار عليه • كان صامتا وقورا كانجليزى حقيقى ، لا يتقدم أول المتقدمين أبدا ، ولا يطلب من الجميع الا أن يخلوا له مكانه

على جلد الدب ، وأن يحيطوه بالاحترام اللازم • وكأن ذكريات كانت توافيه فى بعض الأحيان ، فيتملكه نوع من الكآبة : كان فى تلك اللحظات يفكر في الثأر من عدوته اللدود التى جرؤت أن تفتش على حقوقه ، ولم يستطع أن ينتقم منها حتى الآن •• فكان اذا ألفى الباب مغلقا ، قبع فى ركن قريب ينتظر ـ مخاتلا ـ مجيء أحد يدع الباب من ذهوله مشقوقا • وأحيانا كان هذا الحيوان الماكر يظل ينتظر هكذا ثلاثة أيام طوالا !

ـ فالستاف ، فالستاف •

هكذا نادته الاميرة الصغيرة « كاتيا » وقد فتحت الباب وأشارت اليه ، فى رقة ولطف ، أن يتبعنا على السلم •

وكان فالستاف قد شعر بأن الباب يفتح ، فتهيأ لاجتياز العتبة • غير أن نداء الاميرة الصغيرة بدا له من الغرابة بحيث أنه رفض فى أول الامر أن يصدق أذنيه • انه ماكر كالهرة : فلكى لا يظهر انه لاحظ ترك الباب مفتوحا ، مضى الى النافذة ، ووضع قائمتيه الجبارتين على حافتها ، وجعل يتأمل البيت المقابل ، كما يفعل شخص غريب يتوقف أثناء نزهة ليتأمل جمال عمارة قريبة •

كان الترقب يملأ قلبه بشرا ورجاء • تصوروا اذن أية دهشة كبيرة ، وأى فرح طافح ، وأية حماسة شديدة لا بد أنه شعر بها حين لم يفتح الباب فحسب ، بل نودى عليه ودُعى الى الدخول ، بل ضُرع اليه أن يصعد ويأخذ ثأره المشروع على الفور !

زأر فالستاف زئير الفرح ، وشمر شفتيه ، ثم مرق كالسهم بوثبة رهيبة ظافرة •

وكانت وثبته من القوة بحيث قلبت كرسيا اعترض فالستاف فى

طريقه ، فطار الكرسى حتى وقع على بعد مترين من مكانه ، بعد أن دار كما يدور الحذروف • كان فالستاف يمرق مروق قنبلة خرجت من مدفع • وصرخت مدام لوتار مذعورة ، الا أن فالستاف كان قد بلغ الباب الحرام ، وأخذ يضربه بقدميه • ولم يستطع أن يفتحه ، فجعل يعول عويلا يهز أركان البيت ، وسرعان ما أجابته العجوز بعويل كعويله • ولكن فرق الانقاذ ما لبثت أن تقاطرت من كل صوب ، اذ سارع الخدم جميعا الى فوق ، واستطاعوا أن يلقوا على فكّى الكلب كمامة ، وأن يكبلوا قوائمه الاربع ، وأن يربطوا طوقه بحبل ، فاضطر فالستاف ، فالستاف الرهيب ، أن يترك ساحة المعركة ، وأن يعود الى أسفل ، على حال من الهوان يرثى لها •

واستدعيت الاميرة •

ولم تكن المسألة فى هذه المرة مسألة تعلل أو اعتذار • ولكن من ذا الذى يجب أن يعاقب ؟ فهمت الاميرة حقيقة الامر من أول نظرة ألقتها على ابنتها • لا مجال للشك • ورأيت كاتيا ممتقعة اللون ترتعد خوفا • فى تلك اللحظة أدركت الصغيرة المسكينة هول مزحتها • كان يمكن أن تقع الشبهات على الخدم ، على أبرياء ، ولكن كاتيا كانت على استعداد لأن تعترف بالحقيقة كلها •

سألتها أمها فى صرامة :

ـ هل أنت الفاعلة ؟

ونظرت الى كاتيا فهالتنى صفرتها ، فما رأيتنى الا وأنا أتقدم الى أمام ، وأقول بصوت جازم :

ـ أنا التى تركت « فالستاف » يمر !

ثم أضفت ، وقد تبددت شجاعتى بتأثير النظرة المتوعدة التى ألقتها علىّ الأميرة :

ـ ولكنى لم أفعل ذلك عن عمد ..

فاتجهت الاميرة الى مدام ليوتار ، وأمرتها قائلة :

ـ مدام ليوتار ، انزلى بها العقاب الشديد الذى تستحقه !

ثم تركت الغرفة .

نظرت الىّ كاتيا . كانت واقفة كأنها متجمدة ، وقد أسبلت ذراعيها ، وأحنت رأسها الشاحب .

كانت العقوبة الوحيدة التى تنزل باولاد الامير هى أن يحبسوا فى غرفة خالية . ولم يكن البقاء فى مثل هذه الغرفة ساعتين بأمر ذى بال ، فى ذاته . ولكن حين يوضع الطفل فيها برغم ارادته ، وحين يقال له ، زيادة على ذلك ، انه سجين محروم من الحرية ، فالعقاب عندئذ لا يخلو من شدة . اذن فقد جرت العادة أن تحبس كاتيا أو أن يحبس أخوها خلال ساعتين . أما أنا فقد جُعلت عقوبتى أربع ساعات ، لفداحة ذنبى !

لكنى دخلت الى السجن فرحة مسرورة . كنت أفكر فى الاميرة الصغيرة ، واعلم ان النصر لى ، ولكننى بدلا من أن أبقى أربع ساعات ، بقيت حتى الساعة الرابعة من الصباح . واليكم السبب :

بعد دخولى السجن بساعتين علمت مدام ليوتار أن ابنتها مرضت فجأة لدى وصولها من موسكو ، وأنها تريد أن تراها . فتركت البيت دون أن تفطن الى وجودى فى السجن . وظنت الوصيفة التى كانت تهتم بأمرنا أنه قد أُطلق سراحى ، كما أن كاتيا استدعيت الى أسفل ، وظلت

الى جانب أمها حتى الساعة الحادية عشرة مساء • وذهبت كاتيا حين عادت فوجدت سريرى خاليا • وجردتها الوصيفة من ثيابها واضجعتها فى سريرها ، ولم تشا الاميرة الصغيرة ان تسأل عنى ، وكانت واثقة على كل حال من أن خادمتنا « ناستيا » ستعيدنى متى انتهت ساعاتى الاربع فى السجن • الا ناستيا كانت قد نسيتنى ، لا سيما وأننى آتولى خلع ملابسى دائما بنفسى • وهكذا قضى على أن أقضى الليل فى السجن !

وفى الساعة الرابعة من الصباح سمعت قرعا على الباب ، ولاحظت أنهم يحاولون فتحه عنوة • كنت نائمة على ارض الغرفة ، فصرخت جزعة ، الا اننى لم ألبث أن سمعت صوت كاتيا ، وكان يعلو جميع الاصوات ، ثم سمعت صوت مدام ليوتار ، فصوت ناستيا مذعورة ، ثم أصواتا أخرى • وفتح الباب اخيرا ، ورأيت مدام ليوتار تبكى ، ثم تقبلنى ، وتطلب الىّ ان اغفر لها انها نسيتنى ، فالقيت ذراعى على عنقها باكية ، وكنت أرتجف من البرد بعد أن قضيت هذا الوقت كله نائمة على الارض ، وشعرت بألم ينفذ الى عظامى • ونظرت أبحث عن كاتيا ، الا انها كانت قد هربت الى غرفتها وقفزت الى سريرها • وحين عدت الى الغرفة كانت قد نامت أو تظاهرت بالنوم • لقد غفت فى المساء بالرغم منها وهى تنتظرنى ، ولم تستيقظ الا فى الساعة الرابعة من الصباح ، فلما لم ترنى فى سريرى جُنّ جنونها فأيقظت مدام ليوتار التى عادت الى البيت فى ساعة متأخرة ، وأيقظت الخادمة ، والوصيفات ، لاطلاق سراحى •

وفى الضحى كان جميع من فى البيت يعرف أمر حبسى ، حتى أن الاميرة نفسها وجدت أن العقوبة قد تجاوزت الحدود • أما الامير فقد رأيته ، لأول مرة فى حياتى ، غاضبا : فقد صعد فى نحو الساعة العاشرة وهو أشد ما يكون اهتياجا ، وتوجه الى مدام ليوتار صارخا :

ـ ماذا صنعت ؟ كيف عاملت هـذه الصغيرة البائسة ؟ هـذا عمل وحشي ، هذا عمل غير انساني • طفلة ضعيفة مريضة ، خيالية الى هـذا الحد ، جزعة الى هذا الحد ، تحبسينها في غرفة مظلمة طوال الليل كله ! أتريدين اذن قتلها ! هذه وحشية هائلة ، هذه قسوة فظيعة ، أقول لك هذا بلا مواربة ، وكيف تسمحون لانفسكم بانزال مثل هـذه العقوبة ؟ من ذا الذي جرؤ على اختراع هذه العقوبة ؟ من ؟

وحاولت مدام ليوتار المسكينة ـ وقد أخذ الاضطراب منها مأخذه ، وفاضت عيناها بالدموع ـ أن تشرح القضـية من أولها الى آخـرها ، فاعترفت انها نسيتني بسبب وصول ابنتها من موسكو ، ثم قالت ان هـذه العقوبة حسنة في حد ذاتها ، اذا لم تدم طويلا ، لأن جان جاك روسـو نفسه قد دعا الى شيء من هذا القبيل •

ـ جان جاك روسو ؟ •• جان جاك روسو لم يقبل شيئا من هذا • وجان جاك روسو ليس حجة ، يا سيدتي • جان جاك روسو لا يحق له أن يتكلم في التربية ، كلا ، لا يحق له • جان جاك روسو أهمل أبنـاءه أنفسهم ، يا سيدتي • جان جاك روسو حقير ، يا سيدتي •

ـ جان جاك ، جان جاك حقير ! ماذا تقول يا سيدي الامير ؟

واحمر وجه مدام ليوتار حتى صار بلون الدم •

كانت مدام ليـوتار امرأة طيبـة ممتـازة ، تكره أن تغضب أكثر ما تكره • ولكن حين يُمس أحد الأثيرين الى قلبها بسوء ، حين يطعن أحد في « كورني » أو « راسين » ، حين يقدح أحد في « فولتير » ، أو حين يُعد « جان جاك روسو » حقيرا ، فان الكيل عندئذ يطفح !

وتفجرت الدموع من عينى مدام ليوتار سخينة سخية ، وأخذت ترتجف من شدة الانفعال •

ثم قالت وقد عجزت عن كبح استيائها :

ـ انك تنسى نفسك ، يا سيدى الامير •

وسرعان ما توقف الامير عن الكلام ، ثم اعتذر لمدام ليوتار ، واقترب منى فقبلنى قبلة تفيض بحنان عميق ، وحرك يده باشارة الصليب ، ثم انصرف •

ـ مسكين أيها الامير !

قالت مدام ليوتار ذلك ، وهى أشد ما تكون تأثرا • ثم جلسنا الى الدرس •

الا أن الاميرة الصغيرة كانت تدرس بغير حماسة • وقبيل الذهاب الى المائدة بلحظة واحدة ، جاءت الىّ وقد امتلأت نفسها حمية وارتسمت على ثغرها ابتسامة ، فأمسكتنى من كتفى ، وقالت بلهجة متعجلة ، خجلى بعض الشىء :

ـ اذن فأنت قد تحملت العقاب من أجلى ؟ اسمعى • سنلعب بعد العشاء فى القاعة الكبيرة •

ومر شخص بجانبنا ، فابتعدت الاميرة الصغيرة مسرعة •

•••

وبعد العشاء ، عند الغسق ، نزلنا معا الى القاعة الكبرى ، وقد أمسكت كل منا بيد الاخرى • كانت الاميرة تعانى انفعالا بلغ من العمق

انها بدت تغص بأنفاسها • وشعرت أنا بفرح وسعادة يندر أن أشـــعر بمثلهما •

فلما وصلنا الى القاعة قالت :

ـ هل تحبين أن تلعبي بالكرة ؟ قفي هنا •

وأوقفتني في احدى زوايا الصالة • الا انها بدلا من أن تبتعـد ، وترمي الىّ بالكرة ، توقفت على بعد ثلاث خطوات مني ، ونظرت الىّ ، فاحمر وجهي ، ثم اندفعت نحو الديوان فجلست عليه جاعلة وجهها بين يديها • وتحركت نحوها • فظنت انني أهم أن أمضي فقالت :

ـ لا تذهبي يا نيتوتشكا • ابقي معي •

ثم ما لبثت أن وثبت من مكانها ، وقد احمر خدّاها وترقرق الدمع في عينيها ، فارتمت على عنقي مسرعة • كانت وجنتاها كالنار حـرارة ، وكانت شفتاها كالخوخ حمرة وتورما ، وكانت خصلات شعرها مضطربة •• وأخذت تغمرني بقبـل محمومة مجنـونة : على الوجه ، على العين ، على الشفتين ، على الخدين ، على اليدين • كانت تشهق وتنتحب كأنهـا في نوبة عصبية • وضممتها الى صدري ضما قويا ، ثم ظللنا متعانقتين في حنان ، كصديقين ، بل كعشيقين يلتقيان بعد طول بعاد • وكان قلب كاتيا يخفق خفقانا شديدا ، حتى سمعت ضرباته •

وفيما نحن كذلك ، اذا بصوت يدوي في الغـــرفة المجاورة • ان الاميرة أرسلت تستدعي كاتيا •

ـ آه ، نيتوتشكا • الى اللقـــاء في هـذا المساء ، في هذه الليلة • اصعدي • انتظريني في الطابق الأعلى •

وقبلتنى قبلة أخيرة ، عذبة قوية ، وخرجت تستجيب لنداء «ناستيا» • صعدت مسرعة كمن بعث الى الحياة بعد موت • فارتميت على « الديوان » وأغرقت رأسى فى وسادة ، وأخذت أشهق من شدة الفرح • كاد قلبى يشق صدرى من شدة الخفقان • لا اتذكر الان كيف استطعت التذرع بالصبر الى الليل • وأخيرا دقت الساعه الحاديه عشرة ، واضطجعت فى سريرى •• ولم تعد كاتيا الا فى منتصف الليل • فتبسمت لى من بعيد ، دون أن تنبس بكلمة ، وكانت ناستيا كأنها تتعمد البطء فى تجريدها من ثيابها ، فدمدمت كاتيا تقول :

ـ عجلى ، يا ناستيا ، عجلى •

ـ ماذا بك ، يا أميرة ؟ ان قلبك يخفق خفقانا قويا • لا شك انك صعدت السلم عدوا •

ـ هوه ! ناستيا • انك تزعجيننى • عجلى • قلت لك عجلى •

وضربت برجلها الارض مغتاظة •

قالت ناستيا وهى تقبل قدم الاميرة الصغيرة بعد أن جردتهـــا من حذائها :

ـ هذا القلب الذى يخفق !

وانتهى أخيرا كل شىء : اضطجعت كاتيا على سريرها ، وخرجت ناستيا من الغرفة • وفى طرفة عين ، رأيت كاتيا تخـرج من سريرها ، وتثب الىّ ، فما ان لمستنى حتى انطلقت من صدرى صرخة •

ـ هلمى • تعالى • تعالى الى سريرى • أسرعى •

أمرتنى بذلك وهى تنهضـنى • وما هى الا لحظـة حتى كنـا فى

سريرها متعانقتين أضمها وتضمنى ضما قويا • كانت قبلات كاتيا تخرج من أعماق روحها •

قالت قد احمر وجهها حتى أصبح بلون الدم :

ـ هل تعلمين اننى رأيتك حين قبلتنى فى الليل ؟

فطفقت أشهق • بينما همست كاتيا ، من خلال دموعها تقول :

ـ نيتوتشكا ، عزيزتى ، اننى أحبك منذ زمان طويل ، هل تعلمين ؟ هل تريدين أن أقول لك منذ أى يوم ؟

ـ منذ أى يوم ؟

ـ منذ اليوم الذى أمرتنى فيه أبى أن أعتذر اليك •• منذ ذلك اليوم الذى أردت فيه أن تدافعى عن أبيك ، يا نيتوتشكا ••

وأردفت تقول وهى تغمرنى بالقبل ، وتضحك فى آن واحد :

ـ يتيمتى العزيزة ••

ـ كاتيا !

ـ ماذا ؟

ـ لماذا ظللنا طوال هذه المدة •• طوال هذه المدة ••

ولم أستطع أن أتم كلامى • وتعانقنا • وخيم الصمت ثلاث دقائق

ـ ما كان رأيك فىّ يا نيتوتشكا ؟

ـ آه ، يا كاتيا • كنت لا أفعل شيئا غير أن أفكر فيك ، ليل نهار •

ـ وكنت فى الليل تتكلمين عنى • سمعتك •

ـ مستحيل •

ـ بلى ! ما أكثر ما بكيت •

ـ اذن لماذا كنت قاسية كل هذه القسوة ؟

ـ كنت حمقاء ، يا نيتوتشكا • هذه الحماقة تتملكنى أحيانا • ولا أستطيع لها دفعا • كنت حاقدة عليك ، هذا كل ما فى الأمر •

ـ لماذا كنت حاقدة على ؟

ـ لا لسبب • لأننى شريرة • ثم لأنك أحسن منى • ثم لأن أبى يحبك كثيرا • ان أبى انسان طيب جدا ، ألا ترين معى هذا يا نيتوتشكا ؟

ـ أوه • بلى • بلى •

قلت ذلك ، وقد ترقرق الدمع فى عينى ، على ذكر الامير •

وأضافت كاتيا ، فى لهجة رصينة :

ـ انه انسان طيب جدا •• ثم اننى حين طلبت اليك الصفح ، كنت على وشك أن أبكى •• وبسبب هذا أيضا حقدت عليك •

ـ نعم • لاحظت ذلك • لاحظت أنك تودين لو تبكين •

فصرخت كاتيا وقد وضعت يدها على فمى :

ـ أسكتى • أنت نفسك تميلين للبكاء • اسمعى • آه • لقد أحببتك حبا قويا • ولكن ، فجأة ، رأيتنى أكرهك ، أكرهك كرها ، هل تسمعين ؟

ـ لماذا ؟

ـ لا لسبب • كنت حاقدة عليك ، لا أدرى لماذا ! ولاحظت انك لا تستطيعين أن تعيشى بدونى • قلت فى نفسى : فلأعذبها قليلا ••

ـ آه • كاتيا •

وأردفت كاتيا تقول ، وهى تقبل يدى :

ـ حبيبتى •• ثم قررت أن لا أكلمك أبدا • هل تذكرين يوم داعبت فالستاف ؟

ـ آه • لشد ما أخفتنى !

ـ ولشد ما خفت أنا أيضا • هل تعلمين لماذا أقدمت على مداعبته ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنك كنت تنظرين الىّ • حين رأيت انك تنظرين الىّ •• قلت فى نفسى : ليكن ما يكون •• وجازفت •• ألم تخافى خوفا شديدا ؟

ـ خوفا فظيعا !

ـ لاحظت • لو تعلمين كم سررت حين انسحب فالستاف • رباه ! •• ولشد ما ارتعدت خوفا ، بعد ذلك ، حين ابتعد •• هذا الغول !

ثم انطلقت من صدر الاميرة الصغيرة ضحكة عصبية • وفجأة ، رفعت رأسها المحموم ، وأخذت تحدق فى • كانت دموع كاللؤلؤ ترتجف على حافة أهدابها الطويلة •

ـ ولكن علام أحبك كل هذا الحب ؟ انك شاحبة • وشعرك الزاهى قبيح • وأنت غبية •• وبكاءة • نعم يا يتيمتى الصغيرة العزيزة !

وعادت كاتيا تغرقنى بقبلاتها ، وسالت قطرات دموعها على عنقى • انها مضطربة أعمق الاضطراب •

ـ نعم أحببتك كثيرا • ولكنى قلت فى نفسى : كلا ، كلا ، ثم كلا• لن أصارحها • وأصررت على عنادى • لماذا كنت خائفة ؟ لماذا كنت خجلة ؟ آه ، هل ترين كم نحن سعيدتان الآن ؟

قلت فى غمرة من الفرح الطافح :

ـ اننى أشعر بألم فى كل موضع من جسمى • ان قلبى يوشك أن يتحطم !

ـ نيتوتشكا • اسمعى • نعم اسمعى • ولكن قولى : من أسماك نيتوتشكا ؟

ـ أمى •

ـ ستروين لى كل شىء عن أمك ، أليس كذلك ؟

فأجبت فى حماسة :

ـ نعم • كل شىء ، كل شىء •

ـ وأين المنديلان اللذان سرقتهما منى • وأين شريط شعرى ؟ لماذا أخذت شريطى ؟ ألا تخجلين ؟ اننى أعرف كل شىء ، هل ترين ؟

وأخذت أضحك ، واحمر وجهى حتى طفرت من عينى الدموع • واستأنفت كاتيا كلامها :

ـ قلت فى نفسى • كلا • فلتنتظر • يجب أن أعذبها أولا • وكنت أقول لنفسى فى بعض الأحيان : كلا ، اننى لا أحبها ، لا أحبها أبدا ولا أطيق رؤيتها • وبقيت أنت لطيفة وديعة مثل حمل • آه ! لشد ما كنت

أخشى أن تعديني بليدة ! ذلك أنك ذكية يانيتوتشكا ! أنت ذكية جدا ، أليس كذلك ؟

قلت ، وقد كادت كرامتى تجرح :

ـ لماذا تتكلمين هكذا ، يا كاتيا ؟

فأجابت كاتيا فى لهجة رصينة جازمة :

ـ بل انت ذكية ، هذا أمر لا شك فيه . وفى ذات صباح ، استيقظت من نومى وأنا أشد ما أكون حبا ولوعة . لم أطق ذلك ، وكنت قد حلمت بك الليل كله . عندئذ قررت أن أمضى الى أمى أرجوها أن تقبلنى فى غرفتها . كنت أريد أن لا أحبك ، نعم ، كنت أريد أن لا أحبك . وفى الليلة التالية ، رأيتنى أقول لنفسى وقد اضطجعت فى سريرى : آه ... ليتها تأتى كما أتت فى تلك الليلة ! لقد عرفت كيف أتظاهر بالنوم فى تلك الليلة . أليس كذلك ؟ لكم يستطيع الانسان أن يكون خبيثا ، يا نيتوتشكا !

ـ ولماذا كنت تمنعين نفسك من حبى ؟

ـ لغير ما سبب . هى فكرة راودتنى . ولكن ماذا أقول ؟ لقد أحببتك يا نيتوتشكا ، أحببتك دائما . وكنت أقول لنفسى : سأخنقها بالقبل ، وسأظل أعضها وأقرصها حتى أفجر الدم من جسمها ، وسيسرها ذلك ، هذه الحمقاء الصغيرة !

وتوقفت قليلا ، ثم قالت :

ـ هل تذكرين ، يوم ربطت لك حذاءك ؟

ـ أذكر .

ـ كنت مسرورة جدا ، أليس كذلك ؟ نظرت يومئذ اليك ، وأنا أقول فى نفسى : ما ألطفها ! .. سأربط لها حذاءها ، لأرى ما وقع ذلك فى نفسها ! وكنت أنا فرحة . هل تذكرين ؟ واشتهيت لو أقبلك . ولكننى لم أقبلك . وما أكثر ما ضحكت فى سرى بعد ذلك ! ، نعم ، ما أكثر ما ضحكت فى سرى ! طوال النزهة لم أفعل شيئا غير أن أحبس نفسى عن الضحك ، حتى اننى لم أستطع أن أنظر اليك ! آه . وما كان أشد سرورى حين كنت فى السجن ! لشد ما أسعدنى أن أشعر انك فى السجن من أجلى . هل فزعت ؟

ـ فزعا فظيعا .

ـ لم يسعدنى انك اتهمت نفسك ، وانما أسعدنى انك فى السجن نيابة عنى . هل تفهمين ؟ قلت فى نفسى : انها تبكى بينما أحبها أنا كل هذا الحب ! غدا سأقبلها ، نعم سأقبلها كثيرا . والحق اننى لم أشفق عليك ، لم أشفق عليك أبدا ، أبدا . ومع ذلك فقد بكيت .

ـ اما انا فما بكيت . كنت سعيدة جدا !

ـ ما بكيت ؟ آه منك أيتها المفسدة الصغيرة !

قالت كاتيا ذلك وهى تقبلنى قبلة عنيفة .

ـ كاتيا ، كاتيا . انك لطيفة جدا .

ـ أليس كذلك ؟ نعم . والآن تستطيعين أن تصنعى بى ما تشائين . تستطيعين أن تعذبينى . أن تقرصينى . أرجوك . اقرصينى بقوة .

ـ عفريتة !

ـ وماذا أيضا ؟

ـ حمقاء صغيرة !

ـ وماذا أيضا ؟

ـ قبلينى .

وتبادلنا القبل ، وبكينا ، وأخذنا نضحك .. وتورمت شفتانا من قوة القبل .

ـ نيتوتشكا ! ستنامين دائما معى . ثم ، هل تحبين القبل ؟ اذن أقبلك وتقبلينني . ثم انني لا أريد أن تكونى حزينة هكذا ! لم أنت حزينة ؟ ستقولين لى كل شىء ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، سأقول لك كل شىء . ولكننى لست حزينة الآن ، انني فرحة .

ـ كلا ، يجب أن تكون وجنتاك متوردتين ، مثلى ! آه . لا أحب أن يأتى الغد . هل أنت تعسة يا نيتوتشكا ؟

ـ كلا .

ـ اذن فلنتحدث . هيا نتحدث .

وتحدثنا ساعتين ، لا أدرى فيم تحدثنا ! شرحت لى كاتيا خططها للمستقبل ، وشرحت لى الوضع الحاضر . علمت أنها تحب أباها أكثر من أى انسان آخر ، أكثر مما تحبنى تقريبا . واتفقنا كلتانا على ان مدام ليوتار امرأة طيبة ممتازة ، غير قاسية البتة . ثم تخيلنا ما سنفعله غدا ، وما سنفعله بعد غد ، بل رسمنا برنامجا يمتد الى عشرين سنة ، على أقل تقدير ! .. وارتأت كاتيا أن تجرى الامور هكذا : يوما تأمر وأطيع ،

ويوما امر وتطيع ، ويوما نامر كلتانا وتتعمد احدانا ان لا تطيع فتتظاهر بالمخاصمة ثم نسارع الى المصالحة • الخلاصة : ان سعادة كبرى انفتح طريقها امامنا • واخذ منا التعب مأخذه ، من فرط ما ثرثرنا ، واطبقت أجفاننا • ونامت كاتيا قبلي ، مع انها هزئت بي لأنني كنت أتثاءب • وفي الصباح استيقظنا في وقت واحد ، فتبادلنا قبلة على عجل ، لأننا سمعنا وقع خطوات تقترب من الباب ، وسارعت الى سريري •

وطوال النهار كنا من شدة الفرح كمن طاش عقله • وحرصنا على أن نختبىء دائما في أقصى مكان ممكن خشية أن يرانا أحد • وبدأت اخيرا اروى لكاتيا قصتي ، فكانت تصغي الىّ مضطربة الى حد البكاء •

ـ لماذا لم تقصي علىّ كل هذا من قبل ، ايتها الخبيثة ؟ لو قد قصصته علىّ لكنت أحببتك ، لكنت أحببتك كثيرا ! أكان يعذبك كثيرا هؤلاء الصبية الذين كانوا يضربونك في الشارع ؟

ـ جدا • وكنت أخاف ، أكاد أموت من الخوف !

ـ آه ، من هؤلاء الاشقياء ! رأيت مرة في الشارع صبيا يضرب صبيا آخر • غدا سآخذ سوط فالستاف خفية ، وأمضي الى الشارع ، فاذا رأيت صبيا من هذا النوع ، جلدته ، جلدته جلدا • سترين !

والتهبت عيناها حنقا وسخطا ••

كنا نرتجف اذا دخل علينا أحد ، كنا نرتعد خوفا من أن يباغتونا متعانقتين • وتعانقنا في ذلك اليوم مائة مرة على أقل تقدير • هكذا انقضى اليوم الاول ،فاليوم التالي •

الا ان سعادتنا لم تدم طويلا !

كان على مدام ليوتار أن تنقل الى الاميرة كل حركة من حركات ابنتها وكل سكنة من سكناتها ، فراقبتنا خلال ثلاثة ايام ، وجمعت فى هذه المدة كثيرا مما يمكن أن يقال • واخيرا ذهبت الى الاميرة ، وقصت عليها كل ما لاحظته : ذكرت لها اننا فى نشوة عظيمة ، اننا لا نفترق لحظة من اللحظات ، اننا نتعانق فى كل دقيقة ، أو نبكى ، أو نضحك كالمجانين ، اننا لا ننقطع عن الحديث لحظة ، وهذا امر لم يقع قط من قبل •• وأنها لاتعرف كيف تعلل هذه الامور ، وان أغلب الظن عندها ان الأميرةالصغيرة تعانى أزمة مرضية ، وان من الافضل على كل حال أن لا نلتقى كثيرا •

وقالت الاميرة :

ـ اننى أفكر فى هذا منذ زمان طويل • كنت أعرف أن هذه اليتيمة العجيبة ستسبب لنا كثيرا من المتاعب • ان ما قصوه علىّ عن حياتها أمر فظيع ، فظيع جدا • ولا شك انها تؤثر فى كاتيا تأثيرا سيئا • تقولين ان كاتيا تحبها كثيرا ؟

ـ حبا لا يعرف الحدود !

واحمرت الاميرة من الغيظ • ان هذه العاطفة التى تشعر بها ابنتها نحوى تثير غيرتها !

وقالت الاميرة متعجبة :

ـ عجيب • لقد ظلتا غريبتين احداهما عن الاخرى مدة طويلة ، ويجب أن أعترف بأن ذلك قد سرنى كثيرا • ان هذه اليتيمة ما زالت صغيرة ، غير أنها لا توحى الىّ بالثقة • هل تفهمين ؟ لقد رضعت مع الحليب تربية خاصة ، وعادات خاصة ، ولعلها رضعت كذلك سلوكا

مشبوها • لا أفهم تعلق الامير بها • لقد حاولت ألف مرة أن أرسلها الى مدرسة داخلية ، فكان الامير يرفض ذلك •

وودت مدام ليوتار لو تتشفع لى ، لكن الاميرة كانت قد عزمت على التفريق بيننا عزما لا يتزعزع •• فما لبثت أن استدعت كاتيا ، وأبلغتها أنها لن تراني قبل يوم الاحد القادم ، أى قبل انقضاء أسبوع كامل !

وقد بلغنى ذلك متأخرا ، فى المساء ، فصعقت للنبأ ، واعتقدت أن كاتيا لن تتحمل هذه القطيعة أبدا ، وبلغ منى القلق المبرح اننى مرضت أثناء الليل • وجاءنى الامير فى الصباح يهمس فى أذنى أن لا أقطع الرجاء ، وكان قد حاول فعلا أن يثنى الاميرة عن عزمها ، الا انه لم يظفر بطائل ، فان الاميرة لم تتزحزح عن رأيها قيد شعرة ، واجتاحنى اليأس شيئا فشيئا حتى خنق أنفاسى ••

وفى صباح اليوم الثالث جاءتنى ناستيا بكلمة كتبتها كاتيا بالقلم الرصاص بأحرف كبيرة ركيكة :

« أحبك كثيرا • اننى أبقى الى جانب ماما ، ولكننى لا أفكر الا فى شىء واحد ، هو أن أهرب اليك ، وسأتوصل الى ذلك • أعدك وعدا قاطعا • يجب اذن ألا تبكى • أكتبى الىّ انك تحبيننى • ظللت طوال الليل أحلم بك وأقبلك • لقد تألمت كثيرا ، يانيتوتشكا • أرسل اليك بعض الحلوى • الى اللقاء • »

وأجبت على رسالة كاتيا برسالة من نوعها • وظللت طوال النهار أغرق رسالتها بالدموع • وألحت مدام ليوتار فى مواساتى • وبلغنى فى المساء انها ذهبت تقول للامير انها نادمة على الوشاية بنا للاميرة ، واننى سأمرض مرة ثالثة ، ما فى ذلك ريب ، اذا أنا لم أر كاتيا •• وسألت

نامتيا عن كاتيا ، فذكرت لى ان الاميرة الصغيرة لا تبكى ، ولكنها شاحبة شحوبا رهيبا .

وجاءتنى نامتيا فى صباح اليوم التالى تهمس فى أذنى :

ـ اصعدى الى حجرة سعادة الامير ، على السلم الايمن .

شعرت أن سعادة تنتظرنى ، فانتعشت روحى ، وأسرعت أعدو على السلم لاهثة ، حتى بلغت باب حجرة الامير ، ففتحته . لم تكن كاتيا هنالك . ولكن سرعان ما شعرت بها تعانقنى من خلف ، وتأخذ تقبلنى فى عنف وحرارة . وكانت ضحكات ، وكانت دموع .. ثم اذا بكاتيا تنتزع نفسها منى فجأة ، وتتجه الى أبيها تتسلق كتفيه ، ثم تفقد توازنها فتتدحرج على « الديوان » هى وأبوها . كانت كاتيا تبكى من شدة الفرح .

ـ أبت . أبت . كم أنت طيب ! كم أنت نبيل !

ـ أيتها الشيطانتان الصغيرتان ! ماذا حل بكما ؟ ما هذه الصداقة ؟ ما هذا الحب ؟

ـ اسكت يا أبت . انك لا تعرف شيئا من هذا !

وغرقنا فى القبل مرة اخرى .

وتفرست عندئذ فى كاتيا : لقد نحلت فى هذه المدة : ذهبت ألوان وجهها فى هذه الايام الثلاثة ، وأصبحت شاحبة . وحزنت لهذا حتى بكيت .

وأخيرا جاءت نامتيا تقرع الباب ، وكان معنى ذلك أنهم يستدعون كاتيا .. فامتقع لونها امتقاعا شديدا .

وقال الامير :

ـ كفى ، أيتها الصغيرتان • سنلتقى معا فى كل يوم • فلتودع كل منكما الاخرى الآن • وليبارككما الله •

لقد أثر فيه منظرنا تأثيرا كبيرا • الا أن الامير قال ما قال دون أن يحسب حساب المفاجآت • ففى مساء ذلك اليوم نفسه جاء نبأ من موسكو يقول ان « ساشا » مرض فجأة ، وان حياته فى خطر • فقررت الاميرة أن تسافر الاسرة الى موسكو فى الغداة • وتم تنفيذ القرار بسرعة عظيمة ، حتى اننى لم أعلم بشىء الا لحظة الوداع • وقد أصر الامير على أن انزل مودعة ، ووافقت الاميرة على مضض • أما كاتيا فكانت كأنما صعقها نبأ السفر صعقا • وقد عدوت الى أسفل كالمجنونة وارتميت على عنق كاتيا • كانت العربة تنتظر أمام الباب • ولما رأتنى كاتيا انطلقت من صدرها صرخة ، وسقطت بلا وعى • أغرقتها بالقبل • الا أن الاميرة أمرت بأن تُردَّ كاتيا اليها • وانتعشت أخيرا ، فطوقتنى بذراعيها • ثم قالت وهى تنفجر فى ضحكة مباغتة ، ويرتسم على وجهها تعبير لا يمكن وصفه :

ـ الى اللقاء يا نيتوتشكا • لا تنظرى الىَّ هكذا • لست مريضة • بعد شهر أعود • ولا فراق بعد ذلك أبدا •

فقالت الاميرة فى لهجة باردة جافة :

ـ كفى • هيا بنا •

الا أن كاتيا التفتت الىَّ مرة أخرى لتضمنى بذراعيها • وهمست وهى تقبلنى :

ـ أنت حياتى كلها • الى اللقاء •

وبعد هذه القبلة الاخيرة ، غابت الاميرة الصغيرة ، مدة طويلة جدا• لم ألقها الا بعد ثمانى سنين !

لقد أسهبت ـ عن عمد ـ فى قص تلك الفترة من طفولتى ، أعنى فترة ظهور كاتيا فى حياتى • ذلك أن تاريخينا لا ينفصل أحدهما عن الآخر • ان روايتها هى روايتى • لكأن القدر قد شاء أن تجد احدانا الاخرى • لذلك لم أستطع أن أمتنع عن لذة التوقف على ذكريات هذه الفترة من طفولتى • وسأسرع فى سرد ما بقى مما أريد سرده •

أصبحت حياتى بعد سفر كاتيا حياة هادئة ساكنة ملازمة للبيت •• (لم أستيقظ منها الا فى نحو السنة السادسة عشرة من عمرى ، ان صح التعبير ، كما سيجىء بيان ذلك ••)

ولكن لا بد من بضع كلمات عما صرت اليه بعد سفر أسرة الاميرة الى موسكو •

بقينا أنا ومدام ليوتار وحدنا •

وبعد خمسة عشر يوما جاء رسول من الامير يبلغنا ان عودة الاسرة قد أرجئت الى حين • ولما كانت مدام ليوتار لا تستطيع أن تذهب الى موسكو ، لأسباب عائلية ، فقد اضطرت الى ترك خدمة بيت الامير • الا أنها ظلت فى خدمة هذه العائلة نفسها ، اذ انتقلت الى منزل الابنة الكبرى للاميرة ، « الكسندرين ميخائيلوفنا » •

وأنا لم أتحدث بعد عن الكسندرين ميخائيلوفنا ـ وكنت لم أرها ، على كل حال ، الا مرة واحدة ـ وهى ابنة الاميرة من زواج أول • ولم يكن محتد الاميرة بالمحتد الرفيع ، ولا كان أهلها من وجوه الناس فى المجتمع ، وكذلك لم يكن زوجها الاول سوى تاجر خمور • وحين تزوجت مرة أخرى لم تعرف ماذا تصنع بابنتها من الزوج الاول• لم تكن تأمل لها زواجا ممتازا ، لأن المهر الذى يخصها كان ضئيلا • وأخيرا

استطاعت الاميرة منذ أربع سنين أن تزوجها رجلا غنيا ذا مكانة رفيعة، فدخلت الكسندرين ميخائيلوفنا ، بهذا الزواج ، حلقة من المجتمع غير حلقة أمها ، وأصبحت تلقى أناسا يختلفون كل الاختلاف عمن تلقاهم أمها • وكانت الاميرة تزورها مرتين فى السنة ، كما كان الامير ، زوج أمها ، يأتيها بكاتيا مرة كل أسبوع • ولكن الاميرة أصبحت فى المدة الاخيرة لا تحب أن ترسل كاتيا الى أختها ، فكان الامير يأخذها اليها خفية • وكانت كاتيا تحب أختها حبا عظيما ، رغم أن طبع كل من الاختين كان نقيض طبع الاخرى •

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا شابة فى الثانية والعشرين من عمرها، ناعمة رقيقة ودوداً ، يظلل وجهها نوع من الألم الخبىء • على أن الوقار والرصانة لم يكونا يوافقان ملامحها الملائكية الجميلة أكثر مما توافق الطفلة ثياب الحداد ، فلم تكن تستطيع أن تراها دون أن تشعر نحوها بحب عميق • ومن فرط شحوبها قيل يوم رأيتها لأول مرة ان بها استعدادا للاصابة بمرض السل •

وهى لا تحب أن تزار أو تزور ، بل تعيش حياة عزلة وانزواء • وأذكر اننى حين جئت لأرى مدام ليوتار اقتربت منى وقبلتنى فى كثير من العطف والحنان • وكان فى صحبتها رجل نحيل ، مشرف على الهرم، فما ان رآنى حتى أخذ يبكى • انه العازف على الكمان «ب» • وطوقتنى الكسندرين ميخائيلوفنا بذراعيها ، وسألتنى هل أحب أن أعيش فى بيتها وان أصبح ابنتها ، فتأملتها لحظة وعرفت فيها أخت كاتيا ، حبيبتى ، فاذا بى أرتمى على عنقها ، منقبضة القلب ، كأن أحدا دعانى مرة أخرى بكلمة « يتيمة » • وعندئذ أرتنى الكسندرين ميخائيلوفنا رسالة من الامير تضم بضعة أسطر ، موجهة الىّ ، قرأتها وأنا أجهش ببكاء عميق • كان الامير

يباركنى فيها ويتمنى لى حياة مديدة سعيدة ، ويطلب الىّ أن أحب ابنته الكبرى • وقد كتبت كاتيا بضع كلمات أيضا فى حاشية الرسالة ، تذكر فيها انها الآن لا تفارق أمها •

وهكذا وجدتنى ، فى ذلك المساء ، فى كنف أسرة أخرى ، فى منزل آخر ، بين وجوه جديدة ! •• وانتُزع من قلبى ، مرة ثانية ، كل ما كان عزيزا على ، كل ما كان قريبا الى • لقد وصلت الى هذا المأوى الجديد وفى نفسى غم عميق ••

والآن تبدأ قصة جديدة •

الفصل السابع

حياتى الجديدة بلا صدمات ولا عثرات ، فى جو من الصمت والسكون ، كأنه جو دير من الأديرة ! .. فقضيت بين أحضان هذه الاسرة الجديدة ثمانى سنين لا أذكر أنه أقيمت خلالها حفلة ساهرة ، أو دعى ضيف الى مأدبة ، أو عقد اجتماع يضم أقارب أو أصدقاء أو معارف ، اللهم الا مرة أو مرتين ! .. وفيما عدا شخصين أو ثلاثة كانوا يترددون على المنزل زائرين ، وفيما عدا الموسيقى «ب» صديق الاسرة ، وفيما عدا الاشخاص الذين تدعوهم أعمالهم الى لقاء زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، لم يكن يغشى المنزل أحد . وكان هذا الذى أسميته زوج الكسندرين ميخائيلوفنا مشغولا بأعماله دائما لا ينعم الا بقليل من أوقات الفراغ يوزعها بين أسرته وبين علاقاته فى خارج البيت . وكانت علاقاته هذه كثيرة هامة لا يستطيع اهمالها ، وتضطره الى الظهور فى المجتمع الراقى . ولئن كان يوصف عامة بأنه ذو طموح لا حد له ، فقد كان يُعرف الى جانب ذلك بأنه امرؤ جدى رصين ، سيما وانه يحتل

مكانة مرموقة جداً • كان الحظ والنجاح يبتسمان له ، فكان رأى الناس فيه حسنا ، بل كان جميع الناس يحبونه ، ولكنهم كانوا فى مقابل ذلك يضنون بهذا الحب على امرأته • لقد كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تعيش فى عزلة تامة ، وكانت تجد فى هذه العزلة راحة ولذة ؛ كان طبعهـا الهادىء قد فطر على حب الانزواء •

وقد تعلقت بى تعلقا قويا صادقا ، وأحبتنى كأننى ابنتها • أما أنا فقد ارتميت فى أحضان هذه الأم الرءوم على ظمأ شديد ، عاجزة عن حبس دموعى بعد فراق كاتيا •• ولم يفتر هذا الحب العنيف الذى منحتها اياه لحظة واحدة بعد ذلك • كانت لى أما وأختا وصديقة ، أو كانت بمثـابة مصب لجميع ما أشعر به من عواطف الحب • وقد عنيت بى ودللتنى طوال مرحلة المراهقة التى قضيتها فى كنفها • ثم اننى أدركت منـذ البـداية ، بنوع من الغريزة أو الحدس ، أن حظ هذه المخلوقة ليس لامعا الى الحد الذى يمكن أن توحى به هذه الطمأنينة الهادئة فى حياتها ، وهـذه الحرية الظاهرة ، وهذه الابتسامة الرائقة الصافية التى تضىء وجهها فى غالب الاحيان • وكنت فى كل يوم أزداد فهما للمصير الحزين الذى تعيشـه (وقد نفذ قلبى الحزين الى هذا فى بطء ومشقة) ، فكانت عاطفتى نحوها تزداد فى كل يوم قوة ••

كانت « الكسندرين » ضعيفة الارادة • وكان وجهها يضىء بطمأنينة هادئة ، اذا رآها الرائى لأول مرة لم يحسب أن فى وسع أى نوع من أنواع المتاعب ، مهما ضؤل ، أن ينفذ الى هذه النفس المطمئنة ! •• ثم انك اذا رأيتها أدركت أنها لا يمكن أن تكره أحدا مهما يكن شأنه : ان عواطف الرحمة تتغلب فى نفسـها على مشـاعر الكره • ومع ذلك كان أصدقاؤها قلة ، وكانت تعيش فى عزلة تامة ••

وعلى أنها قوية العواطف شديدة التأثر ، فقد كان يبدو أنها تخشى مشاعرها وتراقب قلبها ، ولا تسمح له بأى انحراف ، ولو فى الحلم ! .. وكنت فى بعض الاحيان أرى دموعا فى عينيها ، كأن ذكرى ثقيلة خانقة تعذب ضميرها ، وتحز فى نفسها .. كأن شرا مستطيرا يهوم فوق سعادتها ، ويهم أن ينقض عليها ! .. كلما بدت أسعد ، وكلما لاحت حياتها أهدأ وأقرب الى الطمأنينة ، كانت نوبة القلق أدنى الى موافاتها . وكانت الدموع أسرع الى التفجر من عينيها على حين غرة . وكان ذلك يراودها نوبات قاسية ، فما أذكر أن شهرا واحدا قد انقضى خلال هذه السنين الثمانى دون أن ينتابها شىء من ذلك ! ..

وكان يلوح على زوجها انه يحبها حبا جما ، وكانت هى من جهتها تكن له حبا يقارب العبادة ! .. ومع ذلك ، كان يخيل الى الرائى ، من أول نظرة ، أن بين الزوجين أمورا خفية . كأن ثمة سرا يحوم فوق حياة هذه المرأة .. أو ذلك على الاقل ما قدرته فورا !

•••

وقد أوحى الىّ زوج الكسندرين ميخائيلوفنا من أول نظرة بشعور مؤلم لم تزده السنون الا تفاقما. كان رجلا نحيلا طويلا، خيّل الىّ كأنه يخفى عينيه ، عمدا ، بنظارتين خضراوين ضخمتين . وكان فاتر المزاج ، قليل الكلام ، لا يجد موضوعا للحديث حتى حين يخلو الى زوجته . كان كأنما يزعجه وجود شخص آخر الى جانبه !

وكان لا يلتفت الىّ البتة ، وكنت مع ذلك أشعر من وجوده بكثير من الضيق والحرج ، حين يتفق أن نحتسى الشاى جميعا فى صالة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت أضطرب وأغتم ، وأختلس النظر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأشعر انها ترتجف . كانت ازاءه تراقب كل

حركة من حركاتها ، وكان لونها يمتقع اذا رأته أكثر كآبة وصمتا مما عهدت فيه من كآبة وصمت ، وكانت فى بعض الاحيان تحمر فجأة ، كأنما هى تدرك فى كلامه غمزا أو تلميحا ! .. وأدركت أن حياتها مع مثل هذا الرجل حياة شاقة مرهقة ، ومع ذلك فقد كان واضحا أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه دقيقة واحدة .

ولشد ما أدهشنى انتباه هذه المرأة العجيب الى زوجها ، الى كل كلمة من كلماته ، الى كل حركة من حركاته ! .. كانت تحاول أن تجاريه وترضيه فى كل أمر ، كأنما هى ترى نفسها عاجزة عن تحقيق ما يحب . كانت كأنها تستجدى رضاه استجداء : تكفيها ابتسامة باهتة تطوف فى وجهه ، أو كلمة عاطفية صغيرة تخرج من بين شفتيه ، حتى تفيض نفسها بشرا وغبطة وسعادة .. فكأنها ترتد عندئذ الى الدقائق الأولى من حب لما يزل خجولا ، ولما يزل بلا رجاء ..

وكانت تحيط زوجها بجميع أنواع الرعاية والعناية التى يحاط بها مريض من المرضى . ومع ذلك كانت ، متى عاد الى حجرته بعد أن يصافحها وينظر اليها نظرة متلطفة شاقة ، تتبدل تبدلا كبيرا ، فتصبح حركاتها وأقوالها أكثر مرحا وأكثر انطلاقا .. غير أن ذلك لم يكن يحدث فورا ، فانها فى كل مرة بعد لقاء زوجها كانت تظل مضطربة بعض الوقت ، وتأخذ تتذكر وتزن كل كلمة من الكلمات التى وجهها اليها ، وكثيرا ما كانت تلتفت الىّ وتسألنى : هل هذا ما قاله بطرس الكسندروفتش ؟ .. كان واضحا انها تبحث فى أقوال زوجها عن معنى آخر ، وكان لا بد لها من ساعة كاملة حتى تستعيد هدوءها ورباطة جأشها تماما ، وحتى تثق كل الثقة من أنه لا يحقد عليها البتة ، وأنها قلقت بغير

داع الى القلق ، فاذا هى بعدئذ مرحة سعيدة ، واذا هى تقبلني وتضاحكني أو تجلس الى البيانو فتظل تعزف ـ ارتجالا ـ قرابة ساعتين ..

وفى بعض الاحيان كان يتبدد فرحها دفعة واحدة فتطفق تبكى على حين غرة ، حتى اذا نظرت اليها قلقة ، جزعة ، أسرعت تقنعنى همسا ، مخافة أن يسمعها أحد ، بأن دموعها لا سبب لها ، وانها فرحة جدا ، وان علىّ أن لا أقلق .

وفى أحيان أخرى ، أثناء غياب زوجها ، كانت تقلق عليه أشد القلق ، فترسل احدى الخادمات تسأل عما يفعل : كانت فى حاجة لأن تعرف لماذا أمر باعداد العربة ، وهلم جرا .. كانت كأنما لا تجرؤ أن تفاتحه فى موضوع أعماله ومشاغله ؟ وكان اذا أسدى اليها نصيحة أو طلب منها شيئاً ، تصغى اليه فى خضوع وذل ، كأنها خادم أو عبد . وما أشد فرحها حين يجود عليها بثناء يسير ، بصدد كتاب قرأته ، أو شىء صنعته بيديها ، أو ما الى ذلك . كان ذلك يرفع رأسها ويغرقها فى بحر من السعادة !

وكان فرحها يتجاوز كل الحدود حين يبدو له ـ وذلك أمر نادر ـ أن يداعب أحد طفليها الصغيرين : كان وجهها يتبدل عندئذ تبدلا كبيرا ، فيشرق بسعادة عظيمة ، تتجاوز فى تلك اللحظات حدود المرح التى تسمح لنفسها بها أمام زوجها ، فاذا هى مثلا تجرؤ أن تعرض عليه (دون أن يشجعها هو على ذلك ، وبصوت وجل مرتجف طبعا) أن يسمع قطعة موسيقية جديدة وصلتها مؤخرا ، أو تبدى رأيها فى كتاب جديد قرأته ، أو تمضى الى أبعد من ذلك فتحب أن تقرأ له صفحة أو صفحتين لمؤلف أعجبها اعجابا شديدا . وكان زوجها يذعن لرغبتها أحيانا ، بل لقد يمضى الى أبعد من ذلك فيبتسم لها ابتسامة كريمة سمحة !

غير أن هذه الابتسامة كانت تزعجني حتى أعماق نفسي ـ لا أدري لماذا ـ كما كانت تزعجني بدورها أوضاع الانقياد والذل من جهة الزوجة .. كان يزعجني فقدان المساواة في العلاقات بين هذين الزوجين. ولكنني كنت أسكت ، واضبط نفسي ، واكتفي بأن ألاحظ هذا الرجل ، بدهشة الصغار وعقل الكبار في آن معا ! .. وكنت ألاحظ في أحيان أخرى ذكرى تطوف بخاطره فجأة ، ذكرى شيء مؤلم ، رهيب ـ لا يُلأم صدعه ولا يُرتق فتقه ـ يوافيه رغم ارادته ، ورغم عقله ، فاذا هو يتجلد ويتحامل على نفسه ، ثم تزول الابتسامة السمحة عن ثغرة في طرفة عين، وينظر الى امرأته الفزعة ، على حين غرة ، نظرة تعبر عن الرحمة والشفقة فأرتعد أنا ـ كأن هذه الشفقة تنصب على ، وكأن شعورا بالعار يغشاني أنا أيضا ! ـ ويبارح الفرح وجه الكسندرين ميخائيلوفنا ، وتنقطع الموسيقى أو تنقطع القراءة ، وتمسك المرأة المسكينة عن الكلام ، وقد امتقع لونها امتقاعا شديدا ، وتعقب ذلك دقائق من الغم الممض والألم الكاوى ، أحسبها دهرا ! ..

وكان الزوج ـ أخيرا ـ يضع لهذا الموقف حدا ، اذ ينهض من مكانه ، ويبدو كأنه يحاول أن يخنق في نفسه كل حنق وكل انفعال ، ثم ، بعد أن يدور في الغرفة عدة مرات ، في صمت حزين ، يصافح زوجته ، ويزفر زفرة عميقة ، ويقول بضع كلمات موجزة ، مضطربة ، كأنه يحاول أن يواسي زوجته ، ثم يترك الغرفة .. فتنفجر الكسندرين ميخائيلوفنا عندئذ في بكاء سخين ، أو تغرق في حزن رهيب لا ينتهي . وكان في بعض الاحيان يدعو لها ، وهو يرسم اشارة الصليب ، كما يفعل المرء مع طفل قبيل أن ينام ، وكانت هي تقبل دعواته في احترام واجلال، بل كان الدمع يترقرق في عينيها اعترافا بالجميل .

ولكنى لن أنسى تلك الامسيات (أمسيتين أو ثلاثا لا أكثر ، طوال هذه السنين الثمانى !) التى تبدلت فيها الكسندرين ميخائيلوفنا تبدلا تاما على حين فجأة ، حتى لكأنها شخص آخر .. فاذا بنوع من الكره ، نوع من الغيظ والحنق ، يشع فجأة فى وجهها الذى ألف الهدوء والنعومة ، طاردا ذلك الذل الأبدى الذى تشـــعر به ازاء زوجهـا ، وتلك العبـادة الخاصـــة التى تمنحه اياها . كانت العاصفة تتجمع أحيانا خلال ساعة طويلة ، فيبدو الزوج أكثر صمتا وحزنا ووجوما ؛ ويطفح قلب المـرأة المسكينة أخيرا ، فتأخذ تتكلم بصوت متهدج من شدة الانفعال ، وبألفاظ متقطعة مفككة مشـحونة غمزا ولوما مرا ، ثم لا تستطيع أن تكبح ألمهـا فتنفجر باكية ، ويصل بها اليأس الى غايته فتطفق تتفجع ، وهى تجهش فى نحيب مؤلم كالحمومة . ليتكم ترون زوجها فى تلك اللحظات : ليتكم ترون صبره فى الاستماع اليها ، ولطفه فى محاولة تهدئتها . لقد كان يبلغ من ذلك أنه يأخذ يقبل يديها ، ثم يطفق أخيرا يبكى معها . الا انها كانت تنتفض فجأة ، انتفاضة من تيقظ ضميره وشعر أن ليس من حقه أن يُغتفر له ذنبـه : كانت تهـــولها دموع زوجهـا ، فاذا هى تزداد لوعة واضطرابا ونحيبا ، فترتمى على قدميه تسأله الغفران ، وسرعان ما يجود عليها به ..

وكان ضميرها يعذبها مدة طويلة بعد هذه الأزمات ، فتظل شـهورا برمتها لا تنقطـع عن البـكاء ، ولا تكف عن طلب الغفران ، وتقف أمام زوجها أكثر خجلا ووجـلا وارتعادا منهـا فى أى وقت مضى . وكنت لا أسـتطيع أن أفهم شيئاً من هذه الأزمات ، سيما وقد كنت أُحمل أثناء ذلك على ترك الغـــرفة ، فى غـــير لطف أو رفـق ! .. على انه كان يستحيل عليهما أن يخفيا عنى كل شىء . كنت ألاحظ وأحزر ، وكان

قد استقر فى ذهنى شىء من الارتياب الغامض منذ البداية : لا بد أن فى أعماق هذه الامور سرا • ان هذه الازمات المفاجئة التى تعصف بهـــذا القلب الطافح ألما مرا لا يمكن أن تكون بلا سبب ، لا يمكن أن تنشأ عن حالة عصبية فحسب ••• ثم ان تجهم وجه الزوج ، وهذه الشفقة الملتبسة التى يشعر بها نحو زوجته المريضة ، وهذا الخجل الأبدى ، وهذا القلق الذليل من جانب الكسندرين ميخائيلوفنا ازاء زوجها ، كل ذلك لا يمكن أن يكون بدون علة ، لا ولا هـــذا الحب الغريب الصامت الذى تحمله ولا تجرؤ أن تظهره ، وهذه الوحدة ، هذه الحياة المنزوية التى تعيشها هذه المرأة ، هذا الاحمرار المفاجىء وهـــذا الاصفرار المفاجىء اللذين يغشيان وجهها متى لقيت زوجها ، كل هذا لا بد أن يكون له سبب !

ولكن لما كانت هـــذه الأزمات بين الزوجين نادرةً جدا ، وكانت حياتنا تجرى رتيبة على نسق واحد ، وكنت أعرف جميع تفاصيلها تقريبا ولما كنت أنمو بسرعة ، وكانت هنالك أشياء أخرى تثير انتباهى وتشـغل اهتمامى رغما عنى ، فسرعان ما ألفت هذه الحياة ، وهذه العادات ، وهذه الطباع التى تحيط بى • صحيح اننى كنت فى بعض اللحظات لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير والتأمل ، حين أنظر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، ولكن تأملاتى لم تكن تخلص الى أية نتيجـة • كنت أحب ألكسندرين ميخائيلوفنا حبا قويا ، وأحترم الحزن الذى يكتنفها ، وأخشى أن أزعجها باستطلاع فى غير محله • على انها كانت تفهمنى •• وكم من مرة شكرت لى تعلقى بها !

وكانت اذا لاحظت قلقى عليها، ابتسمت من خلال دموعها ، وأخذت تتندر على كثرة بكائها ، أو أخذت ـ فى أحيان أخرى ـ تقول لى ، فجأة، انها على أحسن حال من الفرح والمرح ، وانها سعيدة الى أقصى حـدود

السعادة ، وان جميع الناس يغمرونها طيبا وكرما ، وان جميع من عرفتهم حتى الآن يحبونها ، وان الامر الوحيد الذى يعذبها هو ان ترى بطرس الكسندروفتش قلقا بسببها ، بسبب حالات الكرب التى تراودها ، مع أنها سعيدة جدا ، جـدا جـدا • وكانت تعانقنى عندئذ فى كثير من الحنان ، ويشرق وجهها عندئذ بحب عميق ، حتى لينخلـع قلبى شـفقة ان صح التعبير •

رباه ! لن تمحى قسمات وجهها من ذاكرتى يوما • انها قسـمات قويمة يزيدها التحول والشحوب جمالا وفتنة• أما شعرها الاسود المسدول على جيدها فانه يلقى على جنبات وجنتيها ظلا ظاهرا قاسيا ، يزيد ـ بحكم منطق الاضطداد ـ من لطف نظرتها ، وجمال عينيها الزرقاوين الناصعتين اللتين تشبهان عينى طفل ، ورقة بسمتها الخجلى ، وفتنة ملامحها الرقيقة التى يطوف فيها فجأة كل هذا الصدق وكل هذا الخفر ، ويزيد من روعة وجهها الأعزل المنقاد لكل اندفاعة من اندفاعات قلبها : وهى الفرح السريع فى بعض الأحيان والكآبة الناعمة فى معظم الأحيان •• ففى بعض ساعات سعادتها الهادئة الراضية تصبح نظرتها النافذة العميقة من الصفاء والاشراق والطمأنينة ، وتصبح عيناها الناصعتان نصوع زرقة السماء من قوة التعبير عن الحب والحنان والصبوة الى كل ما هو نبيل ، والى كل ما يستثير الشفقة ويذكى الألم ، بحيث لا يسع المرء الا أن يستسلم لها رغم أنفه ، والا أن ينجذب اليها رغم أنفه ، ليجنى قليـلا من هذا الصـفاء ، من هـذه الطمأنينة ، من هذا السلام الروحى ، من هذا الحب الذى ينبع من أعماق وجودها •

ان المرء حين ينظر الى زرقة السماء يشعر أحيانا انه قادر على أن يظل مدة طويلة فى تأمل متعبد حار تتحرر فيه النفس من عقالها ، وتصبح أشبه بصفحة ماء هادىء تنعكس عليها فجأة قبة السماء العالية • وقد كانت

الكسندرين ميخائيلوفنا حين ترى الجمال تبلغ من شدة الحميا ، فى كثير من الأحيان ، أن وجهها يتخضب ، وصدرها ينفر ، وتلتمع فى عينيهـا بروق ، بل تنطلق من عينيها شرارات ، كأن روحها تتجه عنيفة نحو شعلة صافية تريد أن تنصب فيها وان تتحد بها ! .. وكانت فى تلك اللحظات تبدو ملهمة حقا ، فاذا بوثباتها المفـاجئة ، واندفاعاتهـا المباغتة تنقلها من الخجل الرقيق الى الانفعال الرفيـع والحماسـة الجريئة . ولـكن ما أكثر ما كانت تظهر عندئذ من سذاجة ، ومن تعجـل كتعجـل الاطفال ، ومن سرعة الى التصديق كسرعة المراهقين ! لست أشـك فى أن مصـورا من المصورين مستعد لأن يهب نصف حياته ، فى سبيل أن يرسم على قماشه لحظة من وجدٍ فى مثل هذه الروعة ، على وجه انتابه مثل هذا التحول ..

•••

وقد أدركت فى الأيام الأولى من اقامتى فى هذا البيت أن الكسندرين ميخائيلوفنا التى تعيش فى هذه العزلة التامة ، سعيدةٌ بوجودى الى قربها . لم يكن لها عندئذ الا طفل واحد ، لم تكن قد أصبحت أماً الا منذ سنة واحدة فأصبحت أنا ابنتها . كانت لا تستطيع أن تفرق بينى وبين طفلها ليتكم ترون حماستها الشـديدة فى الانكباب على تربيتى ! لم تكن مدام ليوتار تستطيع أن تمتنع عن الابتسام حين تراها مندفعة هـذا الاندفاع ، متعجلة هذا التعجل . والحق اننا اندفعنا كلتانا الى كل شىء فى آن واحد، حتى لم تعد تفهم شيئا ، لا هى ولا أنا . كانت تعلمنى أشياء كثيرة وافرة ، دفعة واحدة ، فكان ذلك يدل من جانبها على حماسـة حارة ، وعلى صبر جميل ، أكثر مما يدل على حس عملى . وقد ساءها طيشها هذا فى أول الامر ، الا اننا قررنا بعد ذلك أن نضحك منه ، واستأنفنا كل شىء من جديد .

ذلك أن ألكسندرين ميخائيلوفنا ، رغم هذه البداية السيئة ، كانت

تحب أن تنهج فى التربية نهجا مخالفا كل المخالفة لنهج مدام ليوتار ، وكانتا تتناقشان فى هذا الموضوع بسرور ومرح ، فكانت مربيتى الجديدة تعلن فى لهجة قاطعة انها تناهض كل منهج محدد ، وتؤكد اننا بالتلمس والمحاولة سنجد الطريق الصحيحة ، وانه ليس من الضرورى أن تحشو رأسى بمعلومات عقيمة ، وأن نجاحى فى الدراسة يجب أن يعتمد على مواهبى الطبيعية ، على البراعة فى ايقاظ ارادتى الحسنة •

ولقد كانت على حق فيما قالت ، ما دامت قد نجحت نجاحا تاما • لقد زال من بيننا دور التلميذة ودور المعلمة ، فكنا معا كصديقتين ، حتى لقد كانت من البراعة فى هذا بحيث كان يبدو فى بعض الاحيان اننى انا التى أعلمها ! •• وكثيرا ما كانت تدور بيننا مناقشات حادة ، فأحاول أن أبرهن بحرارة على صحة آرائى ، دون أن أدرك أن الكسندرين ميخائيلوفنا هى التى تقود خطاى فى هذا السبيل • وكنت أدرك حيلتها هذه فجأة بعد أن نفرغ من المناقشة ، وبعد أن تتضح المسألة اتضاحا كافيا، فأقدر عندئذ الجهد الذى تحملته ساعات طويلة فى بعض الاحيان ، والتضحية التى بذلتها من أجلى ، فأرتمى على عنقها ، وأقبلها بقوة وعنف ••

كان كل درس من الدروس ينتهى على هذا النحو •• وكانت حساسيتى تدهشها ، بل تهيجها الى حد القلق • وأخذت تسألنى عن ماضىّ فى كثير من الاهتمام ، تريد أن تعرفه منى ، فكلما قصصت عليها بعض ذكرياتى رأيتها تغدو أكثر رقة معى ، وأكثر جدا فى معاملتى ، أقول « أكثر جدا » لأن طفولتى البائسة كانت توقظ فى نفسها ، فضلا عن الشفقة ، نوعا من الاحترام • وكنا ، بعد أن أفضى اليها بذكرياتى ، نغرق عادة فى مناقشات طويلة ، فكانت تشرح لى ماضىّ شرحا يتراءى لى معه

انني أعيشه مرة أخرى في الواقع ، وأعرف عنه أمورا كثيرة من جديد !

وكانت مدام ليوتار ترى أن هذه المناقشات مسرفة في الجد ، بل كانت ترى أنها في غير محلها ـ حين تلاحظ انهمار دموعي بالرغم مني ـ أما أنا فكنت أرى نقيض رأيها تماما • لقد كنت ، بعد هذه « الدروس » أتخفف من آلامي تخففا كبيرا فما أعود أرى في قدري شيئا محزنا • والذي أحمده لالكسندرين ميخائيلوفنا ، فوق كل شيء ، هو انني كنت مضطرة الى أن أزداد حبا لها يوما بعد يوم • ان مدام ليوتار لم تكن تعلم أن كل ما قد أثار في نفسي ، في الماضي ، عواطف مضطربة مبكرة ، كان بهذه الطريقة يفقد حدته شيئا بعد شيء • وينصهر في انسجام متماسك قوي ؟ ولم تكن مدام ليوتار لتتصور الى أي حد قد تسممت نفسي بما قاسيت •• الى أي حد أرهقتني قسوة القدر الغاشم •• الى أي حد بكيت دون أن أعلم من أين تأتيني الضربة التي تهوي على رأسي !

• • •

وكنا في أول الصباح نجتمع في حجرة الأطفال ، فنوقظ الطفل ، ونعنى بهندامه وطعامه ، ونضحكه ، ونكلمه ، ثم نتركه لنمضي الى العمل• كنا ندرس كثيرا جدا ، ولكن •• الله أعلم بقيمة هذه الدراسة التي تشتمل على كل شيء ، ولا تشتمل في حقيقة الأمر على أي شيء محدد !•• كنا نقرأ معا ، ونتبادل الآراء ، ثم نترك الكتب وننصرف الى الموسيقى ، فكانت الساعات تنقضي سريعة لا نحس انقضاءها •• وفي المساء كثيرا ما كان «ب» ، صديق ألكسندرين ميخائيلوفنا ، يأتي زائرا ، وكانت مدام ليوتار تأتي أيضا ، فتدور بيننا في بعض الاحيان مناقشات حادة عن الفن ، وعن الحياة (التي لا نعرفها في حلقتنا الصغيرة الا عن طريق السماع) ، وعن الواقع والمثل الأعلى ، وعن الماضي والمستقبل ، ونقضي نصف الليل

فى مثل هذه الأحاديث • وكنت أصغى الى الحديث ملء اذنى ، وأتحمس حين يتحمس الآخرون ، واضحك معهم ، أو تهيجنى الشجون حين أعلم فجأة بعض ما يتصل بأبى وبطفولتى الاولى •

وكنت أثناء ذلك أتقدم فى السن ، وفى الوعى • وعهدوا الى بعض الاساتذة بتعليمى ، ولكنى ما كنت لأتعلم منهم شيئا لولا ألكسندرين ميخائيلوفنا • ما كنت لولاها لأزيد ، مع أستاذ الجغرافيا ، على أن تعمى عيناى فى البحث عن مواقع المدن والانهار على الخريطة • أما الكسندرين ميخائيلوفنا فكانت تقوم معى برحلات على الارض ، فنزور البلدان ونرى العجائب ونعيش هذا كله فى حماسة وحميا ، ساعات طوالا ، حتى أصبحت كتب الكسندرين ميخائيلوفنا لا تروى ظمأنا ، وحتى أصبحنا فى حاجة الى التهام كتب أخرى ، وحتى صرت قادرة على أن أنصح أستاذى بقراءة بعضها !

على انه لا بد لى من انصاف أستاذى : فقد ظل الى آخر لحظة يفوقنى فى معرفة خطى الطول والعرض اللذين تقع عليهما مدينة من المدن ، وفى معرفة عدد سكان هذه المدينة محددا بالألوف ، وبالمئات ، بل وبالعشرات • وكان أستاذ التاريخ يتقاضى أجرا حسنا هو الآخر • الا اننا أخذنا ، بعد ذهابه ، نتعلم التاريخ ـ وأنا والكسندرين ميخائيلوفنا ـ على طريقتنا الخاصة ، فكنا نأخذ كتبنا ، ونظل نقرأ أحيانا الى ساعة متأخرة من الليل ، والأصح أن ألكسندرين ميخائيلوفنا هى التى كانت تقرأ ، لأنها كانت تراقب ما نقرأ ••

وأذكر أننى لم أشعر فى حياتى بحماسة كالتى كنت أشعر بها بعد هذه القراءات • كنا نتحمس كأننا أبطال ما نقرأ • وكنا نقرأ ، عدا السطور ، ما بين السطور • وكانت ألكسندرين ميخائيلوفنا تجوّد القراءة

حتى لكأن كل ما تقرؤه قد وقع لها • ولكن يجب أن أعترف أن ثمة شيئا مضحكا فى هذه الحماسة التى كانت تحرمنا من النوم نصف الليل : أنا الطفلة ، وهى القلب الجريح الذى يحتمل الحياة فى مشقة وعناء ! (وكنت أعلم أن ألكسندرين ميخائيلوفنا تجد الى جانبى عزاء وسلوى)• وأذكر اننى كنت فى بعض اللحظات أفكر تفكيرا غريبا وأنا أنظر اليها • كنت من فرط محاولتى الفهم قد فهمت كثيرا عن أمور الحياة ، قبل أن أبدأ الحياة !

•••

وبلغت الثالثة عشرة من عمرى • وازدادت صحة الكسندرين ميخائيلوفنا أثناء ذلك سوءا على سوء • أصبحت أسرع الى الاهتياج مما كانت ، وازدادت حدة الحزن الذى يغشاها من حين الى حين دون ماسبب، وكثرت زيارات زوجها لها • وأصبح يبقى الى جانبها مدة أطول ، الا أنه ظل على عادته حزينا كئيباً لا يكاد ينبس بكلمة • وأخذ مصير الكسندرين ميخائيلوفنا يشغلنى على نحو أقوى وأعنف • ان مشاعر جديدة تتكون الآن فى نفسى ، وأنا أخرج من مرحلة الطفولة • صرت أبحث ، وأفترض وأستنتج ، وأصبح السر الذى أحسه مرفرفا فى جو هذه الاسرة يقلقنى مزيداً من القلق •

وكنت فى بعض اللحظات أحسب اننى فهمت هذا السر بعض الفهم• وفى لحظات أخرى يضعف شعورى بذلك ويقل اهتمامى بالأمر ، بل أحس بالملل والضجر ، فأنسى ما كنت أحب أن أعرفه ، ولا أعود أحفل به • وكنت فى أحيان أخرى أجد لذة كبيرة فى أن أبقى وحدى ، غارقة فى أفكارى • وكانت تلك الايام تشبه فترة من حياتى الماضية بين أبوى ، تلك التى أحببت فيها أبى ، فظللت سنة كاملة أفكر بغير انقطاع، وأتخيل،

وأحلم ، وأنا قابعة فى ركنى .. تلك الفترة التى كنت فيها أشبه بمتوحشة غارقة فى ضروب من الاوهام يلفقها خيالى من هنا ومن هناك . الا أن ثمة فرقا بين الفترتين : فصبرى الآن أفرغ ، وقلقى أقوى ، واندفاعاتى الجديدة أوثق اتصالا باللاشعور ، وظمئى الى الحركة أشد ، فكنت لا أستطيع أن أتركز على نقطة واحدة كما كنت فى الماضى .

وكانت ألكسندرين ميخائيلوفنا كأنما تحب أن تبتعد عنى هى نفسها. فاننى ، فى هذه السن ، لا أكاد أصلح صديقة لها . لست الآن طفلة ، وان أسئلتى الآن لكثيرة ، وانى لأنظر اليها أحيانا ، فما يسعها الا أن تغض طرفها . كانت هنالك لحظات غريبة . وما كنت أستطيع أن أراها تبكى ، وكثيرا ما كانت دموعى تتدفق من عينى غزيرة حين أراها كذلك ، ثم أرتمى على عنقها أقبلها فى حرارة . ماذا عساها تقول لى ؟ كنت أشعر أننى عبء عليها !

وفى لحظات أخرى ـ هى أكثر اللحظات قسوة وحزنا ـ كانت تعانقنى هى نفسها عناقا قويا ، كأنما تملكها يأس شديد .. فكانت فى تلك اللحظات كأنها تستدر حبى ، كأنها لم تعد تطيق وحدتها ، كأنها تشعر أننى قادرة على أن أفهمها وعلى أن أشاركها ألمها ! .. على أن هذا كله لا يمنع ان ثمة سرا كان ما يزال قائما بيننا . كان ذلك من الوضوح بحيث كنت أرانى فى بعض الاحيان أبتعد عنها فجأة ، اذ يؤلمنى أن أبقى الى جانبها . ثم انه لم يبق هنالك الا قليل مما يقرب بيننا ، فيما عدا الموسيقى . على أن الاطباء انتهوا أخيرا الى الحيلولة بينها وبين الموسيقى.. أما الكتب فقد أصبح أمرها أعوص وأعسر . ان الكسندرين ميخائيلوفنا لا تدرى الآن ماذا ينبغى أن تقرأ معى . فمن الممكن أن تتوقف الآن عند الصفحة الاولى من كل كتاب نقرؤه : كل كلمة يمكن أن تكون تلميحا

الى شيء ، وكل جملة يمكن أن تكون لغزا • وحاولنا كلتانا ان نتحاشى أحاديثنا القديمة ، الملتهبة ، التى تنفذ الى صميم الاشياء ••

فى هذه اللحظة شاء القدر ، ارتجالا ، ودون أن يكون ذلك فى الحسبان ، أن يفرض على حياتى مجرى آخر ، فاذا انتباهى ، وعواطفى ، وقلبى ، ورأسى ، ووجودى كله ، اذا كل ذلك يتجه اتجاها جديدا ، يكتنفه التوتر الحماسى القوى • رأيتنى فجأة ، دون أن ألاحظ ذلك ، أنتقل الى عالم جديد • ولم أستطع أن أرتد الى الوراء ، ولا أن أنظر حولى ، ولا أن أفكر • كنت معرضة للضياع ، وكنت أشعر بذلك ، الا أن الاغراء كان أقوى من الخوف ، فانطلقت على غير هدى ، مغمضة العينين • أهملت الامور التى كانت تقلقنى ، والتى كنت أبحث فيها عن مخرج دون أن أظفر بطائل ، وأنا أشد ما أكون ظمأ الى معرفتها ، أهملت هذه الأمور مدة طويلة • واليكم كيف تطورت الامور :

•••

كان لقاعة الطعام ثلاثة أبواب ، يؤدى أحدهما الى الأجنحة الكبرى ويؤدى الثانى الى غرفة الاطفال ، ويؤدى الثالث الى المكتبة • وكان للمكتبة باب آخر يؤدى الى حجرة العمل ، المتصلة بغرفتى • فى هذه الحجرة كان يستقر عادة سكرتير بطرس الكسندروفتش ، الذى كان يعمل ناسخا وقيماً على البيت فى آن واحد • وكان مفتاح المكتبة فى عهدته • وفى ذات يوم ، بعد العشاء ، بينما كان السكرتير غائبا عن البيت ، عثرت بهذا المفتاح على أرض الحجرة • كان حب الاستطلاع أقوى من أى شيء آخر ، فانتهزت الفرصة ودخلت المكتبة • انها حجرة واسعة ، مضاءة أحسن اضاءة ، تحتوى على ثمانى خزائن مملوءة كتبا • من هذه الكتب عدد كبير انتقل الى يدى بطرس الكسندروفتش بطريق الوراثة ، الا أن

قسما كبيرا منها انما جمعته الكسندرين ميخائيلوفنا التى كانت لا تنقطع عن شراء الكتب •

ولم يكونوا يسمحون لى بالقراءة حتى ذلك الحين الا فى كثير من الحذر •• فلم يكن صعبا علىّ أن أعتقد أن هذه الكتب الممنوعة عنى تنطوى على سر • لهذا السبب رأيتنى ـ وقد عصف بى ظمأ الى الاطلاع لا يقاوم ، وتملكنى خوف شديد ، وفرح عظيم ، وحماسة كبيرة حقا ـ رأيتنى أفتح الخزانة الاولى وأخرج منها كتابا • كانت تلك خزانة الروايات • ثم أغلقت الخزانة ، وحملت كتابى وفى نفسى شعور غريب ، وفى قلبى خفقان شديد ، حتى لكأننى أوجس التغير الكبير الذى ستحدثه القراءة فى حياتى • فلما عدت الى غرفتى ، أغلقتها على ، وفتحت الرواية ••

غير أننى كنت عاجزة عن القراءة • كان يشغلنى أمر آخر ، هو أن أطمئن اطمئنانا نهائيا الى أننى أستطيع دخول المكتبة دون أن ينتبه أحد الى أننى آخذ منها الكتب التى أهواها • وهكذا أرجأت لذة القراءة الى فرصة أخرى ، ومضيت فأعدت الكتاب الى مكانه ، وخبأت المفتاح • كان ذلك أول عمل سىء أقترفه • وانتظرت النتائج !

ولكن الأمور سارت على أحسن ما يرام ، فان سكرتير بطرس ألكسندروفتش ظل طوال المساء وجزءا من الليل يبحث عن المفتاح فى أرض الغرفة على ضوء شمعة دون أن يظفر بطائل ، حتى اذا جاء الصباح استقدم قفالا ، ووجد القفال فى جعبته مفتاحا يناسب قفل باب المكتبة ، فانتهى بذلك كل شىء ، ولم يتحدث أحد بعد ذلك عن المفتاح الضائع • واتخذت من جهتى جميع الاحتياطات ، فى غير قليل من المكر ، فقررت أن لا أجازف فأدخل المكتبة الا بعد انقضاء أسبوع على ذلك ، أى بعد أن

أتيقن من زوال كل شبهة ، وكل خطر • واخترت وقتا كان فيه السكرتير غائبا عن البيت ، فدخلت قاعة الطعام • وينبغى أن أذكر أن السكرتير كان يحتفظ بالمفتاح فى جيبه ، ولكنه لم يكن يذهب الى أبعد من ذلك فيتصل بالكتب ، بل لقد كان لا يدخل حجرة المكتبة أبدا •

ومنذ تلك اللحظة أخـذت أقرأ فى كثير من الشره ، وسرعان ما أصبحت القراءة هوى قويا يملك علىّ نفسى ، فاذا جميع حاجاتى الجديدة ، وصبواتى الحديثه ، وجميع اندفاعات مراهقتى ، هذه الاندفاعات التى ما زالت غامضة والتى كانت تقلقنى وتشيع فى نفسى الاضطراب ، وكل ما قد أثار عقلى المبكر اثارة قوية ودفعه فى اتجاه آخر ، اذا كل هذا يجد مخرجا غير منتظـر ، فيندفع فيه الى مدى بعيد • كنت كأننى شبعت من ذلك الغذاء الجـديد شبعا تاما ، ثم وجـدت الآن طريقى الصحيحة • وسرعان ما أصبح قلبى من النشوة وأصبح عقلى من الافتتان وأصبح خيالى من قوة التحليق بحيث نسيت كل ما قد أحاط بى حتى ذلك الحين • كأن القدر نفسه سمرنى على عتبة الحيـاة الجـديدة التى كنت أتحرق شوقا الى الاندفاع فيها ، تلك الحياة التى كنت أحلم بها ليل نهار بلا انقطاع • كأن القدر ، قبل أن يدفعنى فى الطريق المجهولة رفعنى الى قمة عالية ، حتى يرينى مستقبلى فى صورة رائعة أطل عليها من فوق ، صورة تفيض بالآمال السـاحرة • ان الحظ يتيح لى الآن أن أجـرب مستقبلى ، بقراءته فى أول الامر فى الكتب ، فى أحلامى ، فى آمالى ، فى وثباتى الجامحة ، فى جميع العواطف العـذبة التى تفيض بهـا روحى الشابة •

وقرأت فى أول الامر الكتب التى تقع بين يدى ، دون تخير ، غير أن ما كنت قد تعلمته وقاسيته حتى ذلك الحين كان من النبل والرفعة

بحيث كنت لا أستطيع أن أجـــد أية متعة فى قراءة صفحات اباحية أو بذيئة • كانت غريزتى الطفولية ونموى المبكر وماضى كله ، كان هذا كله يحمينى ويحرسنى • وأصبح شعورى الآن ينير كل ما قد وقع لى فى الماضى ، حتى لقد كانت كل صفحة أقرؤها تبدو لى شيئاً أعرفه منذ مدة طويلة : هذه الأهواء ، هذه الحيوات المختلفة المعروضة أمامى فى صور غير منتظرة ، فى لوحات جذابة ، اننى أعرفها من قبل !

وكيف لا أصل الى نسيان الحاضر ، بل والى نسيان الواقع تقريبا ، وأنا أجد فى كل كتاب أقرؤه ثمرات قدر واحد بعينه ، وأجد فيه قانونا تفرضه على الحياة الانسانية روح واحدة هى روح المغامرة ، قانونا مشتقا من قانون أساسى آخر هو شرط السلامة والخلاص والسعادة ؟ لقد كنت أتحسس هذا القانون ، وكنت أحاول أن أحذره بكل ما أوتيت من قوة ، بكل الغرائز التى كان يوقظها فى نفسى الشعور بنوع من الحماية • كنت أشعر اننى معصومة مقدما ، كأن هناك شخصا يرشـدنى ويطلب الىّ أن أكون ساهرة ويقظة ••

والى جانب اندفاعاتى التى كانت تشتد وتقوى يوما بعد يوم ، كانت تضطرم فى نفسى نبوءة حقيقية تجعلنى أؤمن بمستقبلى ، وأؤمن بأن حياتى ستكون حياة فنان تهزه شاعرية جامحة • الا أن خيالى ، كما قلت ، كان يغلب اندفاعى • فكانت جرأتى ، فى الواقع ، لا تتعدى أحلامى • وكانت الغريزة ، ازاء الوقائع الحقيقية ، تردنى الى الخجل • وكأنما أردت أن أكون على اتفاق مع نفسى ، فقررت ـ على غير شعور منى ـ أن أكتفى فى أول الامر بعالم الخيال ، هذا العالم الذى ملكت ناصيته ، هذا العالم الذى ليس فيه الا متعة وفرح ، هذا العالم الذى ليس للشقاء فيه ـ ان وجد ـ الا دور سلبى ، دور موقت ، دور لا بد منه للتناقضات الممتعة ، لتبدلات

القدر التى تمد رواياتى بخواتيمها السعيدة . أو هكذا على الأقل ما أفهمه الآن من حياتى النفسية فى ذلك الوقت !

هذه الحياة ، التى ليس فيها شىء غير الخيال ، هذه الحياة الغريبة كل الغرابة عن حياة الاشخاص الذين يحيطون بى ، قد استمرت ثلاث سنوات طوال ..

•••

وكانت هذه الحياة سرى المكنون ، الخفى ، أخشى عليه أن يتكشف .. حتى لقد صرت أخشى أية نظرة يلقيها علىّ أحد ، مخافة أن ينفذ الى أعماقى ويكشف عن سرى . وعشت حياة داخليـة غنية ، فكنت أرخى العنان لخيالى .. سيما وقد كان كل من فى البيت يعيش فى عزلة تامة ، بعيدا عن الآخرين ، فى صمت كصمت الأديرة ، فكان كل منا يميل الى الانطواء على نفسه والاكتفاء بنفسه ، أو هذا ما حدث لى على كل حال ، فما من شىء تغير من حولى ، خلال هذه السنين الثلاث ، بل احتفظ كل شىء بطابعه المألوف ومظهره المعتاد . فكانت العلاقات بيننا رتيبة ، متشابهة ، مملة .. ولولا أن سرى كان يواسينى ، ولولا أن نشاطى كان يسلينى (أدرك ذلك اليوم) لبلغ بى الضجر مبلغا كان يمكن أن يدفعنى الى أى تطرف ، هربا من هذه البيئة الثقيلة الحزينة .. وكان يمكن أن يؤدى ذلك الى هلاكى .

كانت مدام ليوتار قد بدأت تشيخ وتهرم ، فأصبحت لا تكاد تترك غرفتها . وكان الولدان ما يزالان صغيرين ؛ أما «ب» فكان لا يخرج عن سلوكه التى يجرى على وتيرة واحدة ، وأما زوج ألكسندرين ميخائيلوفنا فكان محتفظا بعبوسه ، وكبريائه ، ووجهه المقطب ، وكان السر الخفى بينه وبين زوجته ما يزال قائما ، بل كان هذا السر يزداد فى نظرى خطرا

وتهديدا ، وكنت أزداد خوفا على ألكسندرين ميخائيلوفنا • كانت حياتها الخالية من الفرح ، حياتها العقيمة ، تذوى امام بصرى يوما بعد يوم ، وكانت صحتها تسوء مزيداً من السوء •• وكأن نوعا من اليأس قد سيطر على روحها آخر الامر ، فكان المرء يحس انها ترزح تحت وطأة شيء مجهول ، لا يمكن ادراكه أو تعليله •• شيء فظيع رهيب •• غير انها كانت راضية به رضى من حكم عليه بالصلب فلا مفر !

وقسا قلبها أخيرا بتأثير هذا العذاب الأصم ، بل ازدادت روحها ظلاما وحزنا • وثمة شيء كان يسترعى انتباهى أكثر من أى شيء آخر: كان يلوح لى أنها تبتعد عنى بقدر ابتعادى عن الطفولة ، حتى تطور حذرها منى الى تبرم ثقيل ، وحتى كدت أعتقد فى بعض اللحظات أنها أصبحت لا تحبنى البتة ، كأنما أنا أزعجها • سبق أن قلت اننى قد ابتعدت عنها فى اول الامر بارادتى ، الا اننى حين فعلت ، شعرت كأن الجانب السرى من طبعها قد سرت عدواه الىّ ، ولهذا السبب فان جميع ما فكرت فيه خلال هذه السنين الثلاث ، وجميع ما نبت فى نفسى من أحلام ومشاعر وآمال وأهواء وحماسات ، قد احتفظت به سرا لنفسى ، لم أطلع عليه أحدا • فلما أصبحنا سرين ، لم نتقارب بعد ذلك أبدا ، رغم أن عاطفتى نحوها قد اشتدت وقويت أكثر من أى وقت مضى •

•••

لا أستطيع أن أتذكر ـ دون أن أبكى ـ كم كان تعلقى بها شديدا ، وكم أغدقت علىّ من كنوز حبها ، هذا الحب الذى شاء أن يقوم بوظيفته نحوى الى آخر درجاته ، الى درجة حب الأم • والحق أن تباريحها الكامنة كانت تجعلها تهملنى فى بعض الاحيان حتى لكأنها نسيت وجودى ، وحاولت جهدى أن لا ألفت انتباهها ، حتى استطعت أن أبلغ السادسة

عشرة من عمـــرى دون أن يفطن أحد الى ذلك • الا أن الكسندرين ميخائيلوفنا كانت فى لحظات تيقظ الضمير تلقى على من حولهـــا نظرات صافية جدا ، فاذا هى فجأة ، وقد تملكها قلق علىّ ، تدعونى الى غرفتها ، وتنتزعنى من دروسى أو مشاغلى ، وتغمرنى بوابل من الاسئلة ، كأنهـا ظمأى الى معرفتى على أكمـل نحو ، ثم لا تتركنى خـلال أيام برمتها ، محاولةً أن تحزر كل ما يستهوينى ، وان تدرك جميع رغباتى ، لا يعنيها شىء غير نموى وتطـــورى ، غير حالتى الراهنـة ومســتقبلى ، مبدية استعدادها لأن تساعدنى بكل ما فى قلبها من مشاعر الاعجاب وعواطف المودة والحب •

غير أنها وقد كانت بعيدة عنى فى تلك الفترة ، كانت تعمد فى سبيل ذلك الى وســائل ساذجة مسرفة فى الســذاجة ، وكنت أدرك نياتهـا ومقاصدها بسهولة • وقدرت هى فجأة اننى ما تعـديت فى قراءاتى كتب الأطفال الذين لم يتجاوزوا الثانية عشرة من العمر ، فهالها ذلك كثـيرا ، وحزرتُ أنا سبب شعورها ذاك ، ولاحظته فى كثير من الانتباه ؟ ولقـد ظلت بعد ذلك أسبوعين كاملين كأنما هى « تختبرنى » ، لتقف على درجة نموى ، ومدى كفاءاتى ، ثم عزمت أمرها أخيرا ، فظهر على طاولتنا كتاب (ايفانويه) ، الذى كنت قد قـرأته قبـل ذلك ثلاث مرات على الاقل ، فكانت تراقب انفعالاتى فى خجل يقظ ، كأنما هى تخشى هذه الانفعالات• وأخيرا زال من بيننا هذا التوتر ــ وكان بالنسبة الىّ ظاهريا ــ وتحمسنا كلتانا للرواية ، وبلغت من فرحى اننى كدت أعترف لها بكل شىء••• وحين وصلنا الى النقطة التى تنحل فيها عقدة الرواية كانت حماستها قد بلغت أوجها • وكانت كل ملاحظة من الملاحظات التى أبديهـا أثناء القـراءة صائبة ، وكل رأى أسوقه صادقا ، فأدركت « ألكسندرين » أن نمـوى سريع مبكر ، وهزت هذه الفكرة عاطفتها ، بل أثارت اعتزازها ، فأخذت

تتابع تربيتى مرة أخرى فى كثير من الحماسة ، وانتوت أن لا تتركنى لنفسى بعد الآن أبدا .. غير أن ذلك لم يكن فى مقدورها ، فقد تكفل القدر بالتفريق بيننا ، وبالحيلولة دون تقاربنا من جديد .. فها هى تصاب بنكسة فى صحتها ، وها هو حزنها الابدى يعود فيلازمها ، وها نحن نتباعد ، ثم تزول الألفة ، ويحل محلها الحذر والتهكم ، وربما الاهمال والبغض !

• • •

غير أن ثمة دقائق كانت ، حتى فى تلك الفترة ، تفلت من رقابتنا ، فكانت القراءة المشتركة أحيانا ، وبعض كلمات التودد التى ترسلها احدانا فجأة ، والموسيقى ، تجعلنا ننسى كل شىء .. بل تجعلنا نفرط فى النسيان أحيانا ، حتى لتلبث احدانا بعدئذ كأنها خجلى من الاخرى .. وما هى الا لحظات من التفكير حتى تنظر كل منا الى صاحبتها فى استطلاع حذر هو الى الخوف أدنى ، وتشعر كل منا أن ثمة حاجزا يقف عنده تقاربنا ، واننا لا نستطيع أن نجتاز هذا الحاجز رغم رغبتنا فى ذلك .. !

وذات مساء ، ساعة الغسق ، كنت فى مخدع الكسندرين ميخائيلوفنا ، أقرأ فى كتاب من الكتب ذاهلة . وكانت هى تعزف على البيانو ألحانا مرتجلة مستلهمة من لحن ايطالى تؤثره ، حتى اذا وصلت الى مقطع معين من هذا اللحن ، رأيتنى وقد دبت حماسة الموسيقى فى قلبى آخذ فى الغناء بصوت خافت خجول ، ثم لا ألبث وقد ازدادت حماستى أن أنهض من مكانى وأقترب من البيانو .. وكأن الكسندرين ميخائيلوفنا أدركت اهتمامى هذا ، فأخذت تصاحب بعزفها كل نغمة من النغمات التى كنت أغنيها ، وهى أشد ما تكون دهشة ..

لقد فاجأها صوتى مفاجأة كبيرة . لم أكن قد غنيت أمامها أبدا قبل

تلك اللحظة • ثم انني كنت أجهل ـ أنا نفسي ـ مقدرتي في الغناء • وأخذنا الآن نتبارى ، صرت أرفع صوتي أكثر فأكثر ، وهي تتابع غنائي بعزفها ارتجالا ، وتزداد دهشة وحماسة ، ويزيد ذلك في حماستي أنا الأخرى •• حتى فرغنا ، فاذا هي من اعجابها تمسك يدي في تأثر قوي، وتنظر الىّ فرحة وهي تقول :

ـ آنيت •• آنيت • ان لك صوتا رائعا ! رباه ! كيف أمكن أن لا ألحظ ذلك ؟

فأجبت وقد غمرني فرح شديد :

ـ لم أكن أعرف ذلك أنا الاخرى •

ـ ليباركك الله ، أيتها البنية التي لا تعرف الكبرياء ولا الزهو ! اشكري الله على ما أودع فيك من مواهب • من يدري ••• آه ، رباه ! رباه !

كانت من شدة التأثر لهذا الاكتشاف غير المنتظر ، وكان فرحها من شدة الفيض ، بحيث لم تعرف ماذا تقول ولا كيف تداعبني • كانت تلك لحظةً من صراحة تامة ، ومودة متبادلة ، وتقاربٍ بَعُدَ عهدنا به كثيراء وما هي الا ساعة حتى كان البيت كله في عيد ، وأرسلوا يستدعون «ب» على الفور !

وفي انتظار وصوله ، فتحنا على غير هدى دفترا موسيقيا آخر أعرفه معرفة أتم ، لنجرب لحنا ثانيا • وكنت في هذه المرة أرتعد خجلا ووجلا• كنت أخاف أن أخفق فأفسد الأثر الأول •• لكن جرس صوتي سرعان ما طمأنني ورد الىّ شجاعتي ، وازدادت حيرتي ودهشتي من هذه القوة التي أملكها ، ولم يبق بعد هذه التجربة الثانية من شك • وطفح فرح

الكسندرين ميخائيلوفنا ، فاستدعت ولديها ، بل واستدعت خادمتها • ثم طفحت حماستها أكثر من ذلك فمضت الى زوجها فى حجرة عمله تستدعيه ـ وهو أمر ما كان لها أن تسمح لنفسها به فى الاحوال العادية ! ـ وأحسن بطرس الكسندروفتش استقبال النبأ ، وهنأنى ، وكان اول من قال ان علىّ أن أتلقى دروسا ، فشعرت الكسندرين ميخائيلوفنا من اقتراحه هذا بسعادة كبيرة ، بل قبلت يديه عرفانا بالجميل ، كما لو كان ينعم عليها هى بشىء !

وأخيرا وصل «ب» ، وكان يحبنى كثيرا ، فصرح بأنه سعيد بالنبأ ، وتحدث عن أبى وعن الماضى ، ثم بعد أن غنيت أمامه مرتين أو ثلاثا أعلن وقد لاحت فى وجهه علائم الهم أنى مؤهلة للغناء من غير شك ، وانى قد أكون موهوبة ، وان من الضرورى أن يثقف صوتى على كل حال • ثم كأن «ب» والكسندرين ميخائيلوفنا شعرا بأنهما أسرفا فى الثناء فبادرا الى القول بأن امتداحى على هذا النحو خطر جدا ، ورأيتهما فى الوقت نفسه يتغامزان خلسة ، فيفضحان بذلك تآمرهما على ، وهو تآمر مسرف فى السذاجة ، مسرف فى الخراقة على كل حال ، وظللت أتسلى بالنظر اليهما طوال السهرة ، وكانا بعد كل لحن جديد أغنيه يحاولان أن يحبسا فرحهما ، ويتعمدان أن يعلنا جهارا بعض الملاحظات عن أخطائى•

لكنهما لم يستطيعا أن يلتزما هذا الموقف مدة طويلة ، وكان « ب » أول من فضح نفسه من فرط ما ظهر عليه من بشر وحبور ـ ولم أكن أتصور أنه يحمل لى كل هذه العاطفة ـ وجرى الحديث خلال السهرة كلها وديا حارا • وقص علينا «ب» حياة بعض المغنين المشهورين ، فكان يقصها فى حماسة الفنان وقوة حبه وعمق عاطفته •• ثم ارتد الى أبى ، وتحدثنا عنى ، وعن طفولتى ، وعن الامير وعن أسرة الامير ، التى لم

أسمع أحدا يتحدث عنها الا قليلا منذ مدة طويلة • ولم تكن الكسندرين ميخائيلوفنا نفسها تعرف من أنبائها الا النزر اليسير • وكان « ب » أكثر اطلاعا على شئونها لانه سافر الى موسكو عدة مرات • لكننا حين وصلنا من حديثنا الى هذا الموضع تلفع الكلام بأسرار وأحاج فلم أفهمه ، ولا سيما ملاحظتان أو ثلاث تتعلق بالامير ، لم أستطع أن أدرك كنهها البتة ! •• واستفهمت الكسندرين ميخائيلوفنا عن « كاتيا » أيضا ، غير أن « ب » لم يستطع أن يقول بصددها أى شيء واضح ، حتى لقد بدا أنه يؤثر أن لا يقول شيئا !

وفجأني ذلك كثيرا • انني لم أنس حبي لكاتيا ، حتى لقد كنت لا أستطيع أن أتصور ـ لحظة واحدة ـ أن قد طرأ على كاتيا أى تغير مهما يكن شأنه • لقد غاب عني حتى تلك اللحظة كل شيء : فراقنا ، والسنوات الطويلة التي قضيناها بعيدتين احدانا عن الاخرى دون أن تتكاتب ، واختلاف التربية ، واختلاف الطبع •• ولم تكن كاتيا قد بارحت خيالي أبدا • كانت لا تزال تعيش الى جانبي ، ففي أحلامي ، في رواياتي ، في مغامراتي الخيالية ، كنا نسير دائما جنبا الى جنب ، وقد تأبطت كل منا ذراع الاخرى • كنت اذا تخيلت نفسي بطلة الكتاب الذي أقرؤه سرعان ما أفسح لصديقتي الاميرة مكانا الى جانبي ، وسرعان ما تنقسم الرواية قسمين ، أحدهما من اختراعي !

والخلاصة : لقد قرر مجلس الاسرة استدعاء أستاذ يعلمني الغناء ، وأوصى « ب » بأستاذ هو أشهر الأساتذة وأقدرهم ، فما ان أتى اليوم التالي حتى حضر الينا الايطالي « د » ، فسمع غنائي ووافق على رأي صديقه «ب» ، ثم أضاف الى ذلك انني اذا ذهبت الى حضور دروسه مع تلامذته الأخرين كان ذلك أعود بالنفع علي ، لأن التنافس هنالك سيحملني

على زيادة العناية بتثقيف صـــوتى ، كما ان المقـارنة بين أصوات كثيرة ستفيدنى فى اثراء صوتى • ووافقت السكندرين ميخائيلوفنا عـلى ذلك ، وصرت منذ ذلك الحـــين أذهب ثلاث مرات فى الاســبوع الى دروس (الكونسرفاتوار) ، تصحبنى وصيفة •

والآن أريد أن أقص حادثا غريبا كان له فى نفسى تأثير كبير ، بل كان فاتحة حياة جديدة • كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمرى ، وقد أصبت فجأة فى ذلك الحين بنوع من تبلد الحس وخمود العاطفة ، لاسبيل الى دفعه • كنت أعانى ضربا من فراغ النفس رهيبا ، لا يطاق ولا يفهم • كان خيالى قد كبا ، وكانت وثباتى قد انطفأت ، وكانت أحلامى قد تبددت حتى لكأننى لا أستطيع أن أحلم ! وحل محل الحماسـة القديمـة فتور شديد ، حتى ان موهبتى التى كان يعترف بها الجميع والتى كنت فخورة بها قد فقدت كل بريق ، وصرت أهملها دون أن أشعر من هذا الاهمـال بأى ندم • لم يبق ثمة شىء يشوقنى أو يجـــذبنى ، حتى ان السكندرين ميخائيلوفنا أصبحت لا تثير فىَّ الا البرودة ، وكنت ألوم نفسى على ذلك ، سيما واننى لم أكن أستطيع الا أن ألاحظه • وكان تبلد شعورى مشـوبا بحزن لا علة له ، ونوباتٍ من البكاء مفاجئة • وصرت أنشـد الخلوة والوحدة •

فى تلك الفترة هزنى هذا الحادث الغريب الذى سأقصـــه الآن ، وقلب نفسى رأسا على عقب ، وأحال الخدر الى عاصفة • لقد جرح قلبى جرحا هائلا •• واليكم كيف تم ذلك :

الفصل الثامن

المكتبة ذات يوم (وتلك لحظة لن أنساها ماحييت) فتناولت رواية من تأليف « والتر سكوت » هى (مياه سان رونان) • انها الكتاب الوحيد الذى لم أقرأه بعد• مازلت أذكر أن نوعا من القلق المر كان كأنما يجعلنى أوجس أمرا • كانت بى رغبة فى البكاء • وكان النور فى الغرفة ساطعا بأشعة الشمس الغاربة التى تتدفق فى أرجاء الغرفة من النافذة العالية وتنعكس على البلاط المتلألى •• وكان يسود ثمة سكون تام • ما من مخلوق فى الغرف المجاورة •• كان بطرس الكسندروفتش غائبا عن البيت ، والسكندرين ميخائيلوفنا تعانى من آلام مرضها ، فهى تستريح فى سريرها •

وطفقت أبكى دون أن أستطيع حبس دموعى ، ثم فتحت الكتاب من نصفه الثانى وقلبت بضع صفحات على غير هدى ، كأنما أريد أن أحزر شيئا ما ، من نهايات الجمل التى تخطر أمام عينى • كنت كأننى أفتش عن نبوءة أو فأل ، كما يفعل بعض الناس حين يفتحون كتابا من الكتب على

غير هدى • ثمة لحظات يريد فيها المرء أن يوتر عقـــله وقواه الى أقصى حدود الالم ، حتى تنبجس المعرفة كشرارة ، فاذا بطيـوف من النبـوءة تجتاح النفس المرتعشة ، النفس القلقة لتنبؤها بالمصير الذى ينتظرها • ان كياننا كله ، وقد جرفه الظمأ الى الحياة بأى ثمن ، يستسلم عندئذ للأمل ، مهما يكن هذا الأمل أعمى ومهما يكن عنيفا ، وينادى المستقبل بكل مافيه من مجهول ومن سر ، يناديه أن يأتى ان صح التعبير ، يناديه ولو كان مشحونا بالعواصف والزوابع ، حسبه منه انه الحياة ••• كنت أجتاز لحظة من تلك اللحظات •

وطويت الكتاب ، ثم فتحته مرة أخرى مؤمّلة أن أقرأ مستقبلى فى الصفحة التالية التى تقع تحت بصرى عرضا •• فاذا أنا أرى فى داخله رسالة مطوية أربع طيات يظهر من شدة انضغاط حوافيها أنها نسيت فى هذا الكتاب منذ مدة طويلة • نظرت الى الرســـالة فى كثـــير من حب الاستطلاع • كانت بلا عنوان ، مذيلة بهذا التوقيع : « س • و » ••• واشتد انتباهى • نشرت طيات الرسالة ، وكانت أشبه بالملتصقة ، مصفرةً ، متهرئة ، وكان واضحا أن صـــاحبها قد قرأها وأعاد قراءتها مرارا ، ثم حفظها فى هذا المكان كما يحفظ كنز من الكنوز !

وكان الحبر قد شحب ، من بُعد عهد الكتابة ••• وقفزت الى عينى بضع كلمات ، فأخذ قلبى يخفق خفقانا قويا من شدة الانفعال • واضطربت اضطرابا شديدا ، فصرت أقلب الرسالة بين يدى دون أن أصمم على البدء بقراءتها • ونظرت اليها فجأة من خلال النور: نعم ! ان دموعا قد جفت على وريقاتها ••• وما زالت بقعهـــا فوق الورق ، بل ان بعض الكلمات قد أمحت بتأثيرها أو تشوهت • من عسى أن يكون ساكب هـذه الدموع ؟ وأخيرا قرأت نصف الصفحة الأولى ، فصعقت من فرط الدهشة وانطلقت

من صدرى صرخة • أعدت الكتاب الى مكانه • وأغلقت المكتبة ، ودسست الرسالة فى صدرى ، وعدوت الى غرفتى ألوذ بها لأستأنف القراءة • كان قلبى يدق دقا عنيفا حتى لقد كانت الكلمات تترنح وتتراقص أمام عينى • ولم أستطع أن أفهم الا بعد مدة طويلة •

ان هذه الرسالة تكشف لى عن السر الذى كان يقلقنى كثيرا •• ووقعت الرسالة من نفسى موقع الصاعقة ، لأننى حزرت صاحبها الذى وجهت اليه • كنت أعلم اننى بقراءة هذه الرسالة اقترف عملا سيئا ، الا أن الامر كان أقوى منى ، فلم أستطع أن أمنع نفسى عن قراءتها • كانت الرسالة موجهة الى ••• الكسندرين ميخائيلوفنا •

لسوف أنسخ لكم هذه الرسالة • كنت قد فهمت موضوعها فهما غامضا ، وبعد أن قرأتها ثم أعدت قراءتها لازمت فكرى بل حاصرته حصارا شديدا ، وكأن حياتى قد تحطمت منذ تلك اللحظة ، لأن هذه الرسالة كانت نبوءة حقا ، أدخلت الى قلبى الذعر والثورة الى أمد بعيد ، ان لم يكن الى الابد • لقد تطيرت من مستقبلى !

انها رسالة وداع ، رسالة تمزق القلب تمزيقا • وانقبض صدرى بعد أن قرأتها كأننى فقدت كل شىء ، كأنما انتُزع منى كل شىء ، حتى الحلم والرجاء ، كأنما لم يبق لى شىء على الاطلاق ، الا حياة عقيمة غير ذات جدوى !

'ترى من كاتب' هذه الرسالة ؟ ان الرسالة تشتمل على تلميحات كثيرة ، على وقائع كثيرة ، فلا يمكن أن 'يخدع المرء فى أمرها ، ولكنها تشتمل فى الوقت نفسه على ألغاز كثيرة ، حتى ليضيع المرء بصددها فى ظنون وتخمينات ! •• على اننى فهمتها فهما صائبا • كان الاسلوب وحده

يقول أشياء كثيرة عن قيمة العلاقات التى تحطمت فسحقت قلبين . ان أفكار كاتب هذه الرسالة وعواطفه معروضة عرضا واضحا ، انها أفكار وعواطف شخصية ، وهى كما قلت كافية لتكشف لى عن السر . ولكن اليكم نص هذه الرسالة ، نسخته كلمة كلمة :

« قلت انك لن تنسينى . وأنا أصدقك ، وسأعيش بعد الآن بهذا القول . يجب أن نفترق . لقد دقت ساعتنا ! ولقد كنت ، يا عزيزتى الرقيقية الحزينة ، أعرف ذلك منذ زمان طويل ، غير اننى لم أفهمه الا اليوم . طوال العهد الذى أحببتنى فيه ، كان قلبى ، رغم حبك ، قلقا معذبا فى كل لحظة . هل تصدقين اننى من شدة ما تألمت فى سبيل حبنا أشعر الآن بشىء من الراحة ؟ كنت أعرف منذ زمان طويل ان علاقاتنا ستنتهى لا محالة ، وان القطيعة قد كتبت علينا منذ البداية ! ذلك قدر محتوم .. اسمعى ، يا ألكسندرين ، اننا لم نكن متكافئين ، لقد شعرت بذلك دائما ، دائما . لم أكن جديرا بك ، فعلىّ أن أتحمل وحدى اذن جزاء سعادتى الذاهبة ! قولى ، ماذا كنت قبل أن أعرفك ! رباه ! هاتان سنتان تنقضيان ، وما زلت الى الآن لا أستطيع أن أفهم لماذا أحببتنى أنت ! لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يقع شىء كهذا ؟!

« ما أنا اذا قورنت بك ؟ هل كنت جديرا بك ، حتى تلتفتى الىّ ، وحتى تختارينى ؟ لقد كنت رجلا فظا ، غليظا ، أخرق ، عبوسا . ولم أكن أصبو الى حياة أخرى ، لم تكن بى حاجة لا الى معرفة حياة أخرى ، ولا الى نداء حياة أخرى . كان كل شىء قد اختنق فى نفسى حتى كنت لا أرى فى الدنيا ما هو أهم شأنا من عملى اليومى الموحش .

« وكان قد بقى لى شاغل واحد ، هو الغد ، بل كنت لا أحفل حتى بهذا الأمر . وقبل ذلك الحين ، قبل ذلك الحين بمدة طويلة ، كنت استشف بعض الاشياء وأحلم كما يحلم غبى من الاغبياء . ولكن كان قد

انقضى على ذلك زمان طويل ، طويل جدا ، وأصبحت من الاستقرار فى حياتى المنزوية الكالحة الهادئة بحيث لا أشعر حتى بالصقيع الذى يجلد قلبى . كان قلبى يغط فى نوم عميق . ثم قلت لنفسى انه لن تشرق على قلبى شمس .. كنت آؤمن بذلك ، ولا أتمرد عليه ، لعلمى بأن الأمر يجب أن يكون على هذا النحو . وحين مررت بى ، لم أستطع أن أفهم أن فى وسعى أن أجرؤ على رفع بصرى اليك : كنت أمامك عبدا . ولم يخفق قلبى ، ولا انقبض ، ولا انجذب . لم تزد دقات قلبى قوة . ولم تعرف روحى روحك ، وان أحست بهذا الضوء الناعم يشع من أختها الرائعة .

« على ان احساسى هذا كان غامضا أصم . كنت قادرا على الشعور به لأن آخر حشرة من الحشرات التى يغرقها نور الشمس تشعر بالدفء والدغدغة مثلما تشعر به الزهرة المتألقة التى تحتمى بها الحشرة ! ... وحين فهمت كل شىء فى ذلك المساء ، بعد الاقوال التى هزت أعمق أعماق نفسى ، عميت عيناى ، وطاش صوابى ، هل تذكرين ؟ ودار فى نفسى كل شىء ، وبلغ انفعالى من القوة أن اعتقدت أننى لا أفهم ، هل تعلمين ؟ لم أحدثك عن شىء من هذا فى يوم من الايام ، ولم تعرفى عنه شيئا البتة . لست الآن ماكنته قبل أن أعرفك . ولو قد استطعت أن أحدثك ، لو قد جرؤت أن أحدثك ، لاعترفت لك بهذا كله منذ زمان طويل . غير اننى سكت ، واذا كنت أقول لك ذلك الآن ، فلكى تعرفى من هذا الذى تتركين ، من هذا الرجل الذى تفارقين !

« هل تعلمين متى بدأت أفهمك ؟ لقد ألهبنى الهوى كالنار ، نفذ الى دمى كالسهم ، وهز قلبى ورأسى جميعا . كنت سكرانا ، كنت مشلولا ، كنت مخـــدرا ، فلم أزد على أن أستجيب لحبك النقى ، لحبك الرءوف الحنون الرحيم ، دون أن أشعر أننى كفء لك ، دون أن أكون جديرا

بك • كنت لا أعرفك ، وأستجيب لك استجابتى لمن كانت فى نظرى تهبط الى ، لا استجابتى لمن كانت تريد أن ترتفع بى اليها • هل تعلمين ماذا ظننت فيك ، وماذا تعنى هذه الكلمة : الهبوط الى ؟ ولكن لا ، لا أريد أن أسىء اليك باعتراف كهذا • على أننى أحب أن أؤكد لك شيئا : لقد خدعت فى أمرى كثيرا ، فما كان يمكن أن أرقى اليك فى يوم من الأيام• وبعد أن فهمتك ، أصبحت لا أستطيع الا أن أتأملك ، أنت التى كنت لا أستطيع أن أرتفع اليك ، والتى أحببتنى هذا الحب القوى •

« غير أن ذلك لا يكفر عن خطئى • ان حبى الذى شرف بك لم يكن حبا • كنت أخشى الحب ، وما كان لى أن أبيح لنفسى أن أحبك • لأن الحب يقوم على وصال روحى لست جديرا به ، وعلى مساواة لست أهلا لها ! •• كنت أجهل ما بنفسى ! أواه ! كيف أقول هذه الأشياء ، كيف أفهمك اياها ؟ فى أول الامر لم أستطع أن أصدق ••• آه ! هل تذكرين ، بعد هدأة الانفعال الاول ، حين استطاعت عيناى المضطربتان ان تريا رؤية واضحة • هل تذكرين كيف ان شعورى الاول عندئذ كان دهشة وحيرة وهلعا ، وكيف اننى ارتميت على قدميك أشهق وأنتحب ؟ هل تذكرين كيف انك سألتنى ، مرتاعة ، عما بى ؟ لقد سكت يومئذ ، لأننى كنت لا أستطيع أن أجيبك • كانت السعادة قد مزقت نفسى • كانت السعادة تسحقنى سحقا كحمل ثقيل • وكانت دموعى تقول لى : « علام وهب لى كل هذا ؟ فيم أستحقه ؟ كيف أكون أهلا لمثل هذه السعادة ؟

« أختاه •• يا أختى العزيزة ، يا أختى الحبيبة ••• آه •• كم مرة قلبت ثوبك خفية ، دون أن يدور ذلك فى خلدك ، لعلمى بأننى غير خليق بك ! وكانت أنفاسى تختنق ، وكان قلبى يأخذ فى خفقان بطىء • كان يدق دقات قوية صماء ، كأنه يوشك أن يتوقف الى الابد • وكنت

حين أمسك يديك ، أشحب وأرتجف ، لأن صفاء روحك كان يخجلني ويرهبني ! أواه • انني عاجز عن أن أقول لك كل ما تجمع في قلبي ، كل ما كنت أود أن أعبر لك عنه • هل تعلمين أن حنانك ورقتك الدائمة كانا يؤلمانني ؟ حين قبلتني (ولقد حدث هذا مرة لن أنساها ما حييت) شعرت بضباب يغشى عيني ، وشعرت بنفسي كلها تذوب دفعة واحدة ! •• لماذا لم أمت في تلك اللحظة على قدميك ؟ ترين أنني أخاطبك الآن بصيغة المفرد ، لأول مرة ، رغم أنك طلبت الي ّ ذلك منذ زمان طويل • هل تفهمين ماذا أعني بذلك ؟ •• انني أريد أن أقول لك كل شيء ، وسأقول لك كل شيء : نعم ، انك تحبينني كثيرا ، تحبينني كما تحب أخت أخاها ، وتحبينني كما يحب خالق مخلوقه ، لأنك أحييت قلبي : لأنك أنقذت روحي من خدرها ، لأنك غرست في صدري أملا عذبا ، أما أنا فلم أستطع ، لم أجرؤ • انني حتى الآن لم أستطع أن أناديك يا أختاه ، لأنني لا أقدر أن أكون أخاك ، لأنني لست كفئا لك ، لأنك خدعت في أمري !

« ترين انني لا أتحدث الا عن نفسي • حتى في هذه اللحظة التي أعاني فيها شقاء فظيعا ، لا أفكر الا في نفسي ، رغم علمي بأنك تتعذبين قلقا ً على مصيري • آه • لا تتعذبي من أجلي ، يا صديقتي الحنون • هل تعلمين الى أي حد أشعر بالصغار في نظر نفسي ؟ لقد اكتشف كل شيء وأثير حوله صخب كثير ! •• ولسوف ينبذونك بسببي ، لسوف يغرقونك بالاحتقار ، لسوف يسخرون منك ، لأنني في نظرهم مخلوق حقير جدا ! •• أواه ! •• ما أكبر جريمتي لأنني لم أكن جديرا بك ! •• لو قد كنت أخطر منزلة ، لو قد استحققت الاحترام على نحو ما يفهمونه ، لو قد كنت شخصية في نظرهم ، اذن لغفروا لك ! ••• ولكنني امرؤ نكرة لا قيمة له البتة ، امرؤ مضحك ، وهل أسوأ من أن يكون المرء مضحكا ؟

« وفي الواقع ، من هم الذين استنكروا ونادوا بالويل والثبور ؟ .. ولان أمثال هؤلاء الناس استنكروا ، فقدت أنا صوابى . لقد كنت دائما رجلا ضعيفا . هل تعلمين في أية حال أنا الآن ؟ .. اننى أسخر من نفسى ، ويلوح لى انهم على حق ، اذ لا يمكن الا أن أكون مضحكا وكريها .. اننى أشعر بذلك . اننى أكره وجهى ، أكره كيانى كله ، أكره عاداتى التى ليس فيها شيء من اللباقة واللطف . ولقد كرهتها دائما . أواه ! اغفرى لى يأسى الفظ . لقد علمتنى أن أقول لك كل شيء . ولقد فقدتك الآن ، وجلبت لك السخط والقهقهات الساخرة . لأننى لم أكن جديرا بك .

« ان هذه الفكرة تعذبنى . انها تدور فى رأسى بلا توقف ، انها تضنينى وتسمم قلبى . يتراءى لى دائما انك لم تحبى الا الرجل الذى حسبت انك ترينه فىّ .. يتراءى لى دائما انك خدعت فى أمرى . ذلك ما يؤلمنى ، ذلك ما يعذبنى حتى ليكاد يميتنى ، ذلك ما يطيش لبى ويفقدنى عقلى ، ويجعلنى أشبه بمجنون !

« وداعا ، اذن . وداعا . الآن وقد عرفوا كل شيء .. الآن وقد صرخوا ما شاء لهم الصراخ ، وأنبوا ما شاء لهم التأنيب (سمعتهم يفعلون !) .. الآن وقد صغرت فى نظر نفسى .. الآن وقد شعرت بالعار يجللنى ، وشعرت بالعار يلطخك أيضا لأنك اخترتنى .. الآن وقد لعنت نفسى ، فقد وجب علىّ أن أهرب ، أن أختفى ، لأوفر لك الهدوء . لن ترينى بعد الآن أبدا ، أبدا . يجب أن أختفى ، ان القدر يأمر بذلك ! .. لقد وهب لى القدر أكثر مما أستحق . لقد أخطأ القدر ، وها هو يتلافى الآن خطيئته ويسترد كل شيء . لقد تقاربنا وعرف كل منا الآخر ، وها نحن الآن ننفصل الى لقاء آت .. ترى أين يكون هذا اللقاء الآتى ، ومتى يكون ؟

.. آه ! قولى لى ، يا حبيبة ، أين عسانا نلتقى ؟ .. أين ينبغى أن أمضى باحثا عنك ، وهل أعرفك اذا لقيتك ، وهل تعرفيننى اذا لقيتنى ؟ .. ان روحى كلها ملآى بك ، أواه ! لم هذا العقاب ؟ .. لماذا تنفصل ؟ قولى لى ـ فانى لا أفهم لأننى أصبحت لا أدرك شيئا ـ قولى لى كيف يمزق المرء حياته جزئين ؟ .. كيف ينتزع قلبه من صدره ، كيف يعيش بلا قلب ؟ آه .. لا أستطيع أن أتصور اننى لن أراك بعد اليوم أبدا ، أبدا أبدا !

« رباه .. ما أشد ما صرخوا ! .. لكم أخاف عليك الآن ! .. لقد لقيت زوجك منذ قليل . اننا كلينا غير جديرين به ، رغم اننا لم نجرم فى حقه . انه يعرف كل شىء . لقد رآنا ، وانه ليفهم كل شىء . منذ مدة طويلة أصبح كل شىء واضحا أمام باصرته وضوح النهار . لقد دافع عنك دفاع البطل ، وسينقذك . سيخلصك من هذه المناقشات ومن هذه الصرخات ، انه يحبك كثيرا ويقدرك كثيرا . هو ينقذك وأنا أهرب ! .. لقد ارتميت عليه أريد أن أقبل يده .. فطلب الىّ أن أمضى على الفور ، ونفذت الأمر . يقال انه قد تخاصم معهم بسببك . جميعهم هناك ضدّك . حتى لقد اتهموه بالمجاراة والضعف . يا الهى ! ما عساهم قائلين أيضا ؟ انهم لا يعرفون ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا ، انهم عاجزون عن الفهم ! سامحيهم يا عزيزتى المسكينة ، كما أسامحهم أنا ، انهم قد اضطهدونى أكثر منك بكثير ..

« لم أعد أفهم ، لم أعد أعرف ماذا أكتب اليك . ماذا قلت لك أمس مودّعا ؟ .. لقد نسيت . كنت خارجا عن طورى .. وكنت تبكين ... اغفرى لى هذه الدموع .. اننى ضعيف . اننى جبان !

« كنت أريد أن أقول لك شيئا آخر أيضا . آه ! ليتنى أستطيع مرة أخرى أن أغرق يديك بالدموع كما أغرق هذه الرسالة فى هذه اللحظة !

.. ليتنى أستطيع أن أجثو مرة أخرى عند قدميك . آه ! .. ليتهم يعلمون شيئا عن جمال عاطفتك ! .. لكنهم عمى وليس فى قلوبهم الا الزهو والكبرياء .. انهم لا يرون ، ولن يروا ابدا ! .. انهم عاجزون عن ذلك ! لن يصدقوا انك بريئة طاهرة ولو أتى أهل الارض جميعا يعلنون ذلك أمام محكمتهم ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا شيئا . أية أحجار سيرجمونك بها أيضا ؟ .. أية ذراع سترفع حجرا قبل الجميع ؟ ... آه ، انهم لن يخجلوا ، سيرفعون ألف حجر ! .. سيجرؤون على رفع الاحجار ، لأنهم يعرفون معنى ذلك : سيرفعون أحجارهم جميعا فى وقت واحد ، وسيقولون انهم يتحملون تبعة ذلك لأنهم بلا خطيئة ! .. آه ليتهم علموا ماذا يفعلون ! .. ليت فى الامكان أن يروى لهم كل شىء بلا اكراه ، عسى أن يروا ويسمعوا ويفهموا ويصدقوا ! ولكن لا ، انهم ليسوا أشرارا الى هذا الحد .. لعلنى أقول فيهم سوءا لأننى فى حالة من الانهيار واليأس . ولعل مخاوفى أن تولد فيك شيئا من الهلع .. فلا تخشيهم ، ولا تخشى شيئا ، يا حبيبتى . سيفهمونك . ألم يفهمك واحد منهم ؟ نعم. انه زوجك فلا تقطعى الرجاء .

« وداعا ، وداعا . ولا أقول لك شكرا ، وانما أقول لك وداعا .. الى الأبد .

س . و

***

بلغت من الاضطراب ـ على اثر قراءتى الرسالة ـ اننى ظللت مدة طويلة لا أعى ما حدث لى . كنت مذعورة منهارة فى آن واحد . ان الواقع يدخل فجأة فى هذه الحياة الغنية الحالمة التى عشتها منذ ثلاث سنوات . أدركت "هلعة" اننى أقبض على سر خطير ، وان هذا السر

يربط منـذ الآن كل وجـودى .. كيف ؟ لا أدرى ، ولكننى كنت على يقين من ان مستقبلى يبدأ بهذه اللحظة نفسها . أصبح لا بد لى الآن ، رغما عنى ، من أن أشارك مشاركة وثيقة فى حياة وعلاقات هؤلاء الذين كانوا الى ذلك الحين عالمى كله .

وتملكنى الخوف : كيف أدخل فى صميم حياتهم ، أنا التى لم أدع الى ذلك ، أنا الغريبة ؟ .. ماذا عسى أن أحمل لهم ؟ .. وكيف يمكن أن تنحل هذه الروابط التى ربطتنى بسرّ غيرى على حين فجأة ؟ .. أين السبيل الى معرفة ذلك ؟ .. لعل دورى الجديد أن يربكنى ويربكهم معا؟ .. لست أستطيع أن أسكت ، وأن أمتنع عن الدور الذى عين لى ، وأن أحبس ما اكتشفته فى أعماق قلبى الى الأبد . وما مصيرى فى هذا كله ؟ .. ماذا أعمل ؟ .. ثم ماذا يعنى هذا الذى اكتشفته ؟ .. ألف سـؤال غامض مبهم انتصب أيضا أمام عينى ، وألقى بثقله الرهيب على صدرى ، حتى أصبحت كالتائهة .

وأذكر أن قد مرت بى لحظات أخرى تحمل الىّ احساسات جديدة، غريبة ، لا عهد لى بها من قبل . ان شيئا ما قد انتزع من صدرى : زال قلقى القديم دفعة واحدة ، ليحل محله قلق آخر لا أعرف معناه . كنت لا أدرى هل ينبغى أن يحزننى ذلك أم ينبغى أن يسرنى . كنت فى تلك اللحظة أشعر شعور من يهجر بيته الى الابد ، شعور من يدع حياة كانت الى ذلك الحين هادئة مطمئنة ، ليغامر فى رحلة بعيدة الى بلد مجهـول ، فاذا هو ، وقد انقبض صدره قلقا واستشعر أن مستقبله فى هذه الطـريق التى يتوغل فيها قد يكون سيئا ، يلقى نظرة أخيرة على ما حوله ويودع فى فكره ماضيه الذى كان. وأخيرا مزقت صدرى شهقات عنيفة متشنجة،

وبلغت من انقباض القلب اننى شعرت بحاجة قوية الى أن أرى أحدا ، الى أن أسمع أحدا ، الى أن أقبّل أحدا قبلة عنيفة ..

لم أعد أستطيع أن أبقى وحيدة ، لم أعد أريد أن أبقى وحيدة . فهرعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وقضيت الى جانبها السهرة كلهـا . كنا وحدنا . ورجوتها أن لا تجلس الى البيانو ، وأن لا تطلب الىّ الغناء . كان كل شيء يشق على نفسى . وكنت عاجزة عن تركيز فكرى فى أى شيء . واظن اننا بكينا معا . الا اننى أذكر اننى أخفتها كثيرا . فكانت تتوسل الىّ أن أهدىء روعى وأن لاأكون مضطربة هذا الاضطراب كله .. وكانت تراقبنى فى قلق هائل ، وهى تردد اننى مريضة من غيرشك ، واننى لا أعتنى بنفسى . وآخيرا تركتها وأنا لا أدرى ماذا أفعل ، كنت فى حالة من الهذيان الحقيقى ، ثم نمت بعد أن انتابتنى حمى شديدة .

◆◆◆

وانقضت أيام عديدة قبل أن أصبح قادرة على أن أسترد هـدوئى ، وعلى أن أنظر الى الموقف نظـرة واضحة . كنـا نعيش عنـدئذ ، أنا والكسندرين ميخائيلوفنا ، فى عزلة تامة . ذلك أن بطرس الكسندروفتش لم يكن فى بطرسبرج ، فقد سافر الى موسكو استجابةً لنداء أعماله، وكان عليه أن يقضى هناك ثلاثة أسابيع . ورغم أن هذا البعاد كان قصيرا جدا ، فقد حزنت له الكسندرين ميخائيلوفنا حزنا هائلا .. وكانت تهـدأ فى بعض الاحيان ، ولكنها تعتزلنى ، كأن وجودى أصبح عبئا عليها ! .. ثم اننى كنت أنشد العزلة أنا الاخرى . كان ذهنى يعمل فى نوع من الضباب الخانق ، وهو متوتر توترا مرضيا . كان يتفق لى أن أبقى ساعتين طويلتين فى هذا الهمّ المؤلم ، وكان يخيل الىّ أثناء ذلك كأننى أسمع أحدا يسخر منى بصوت خافت ، وأشعر باضطراب ينفـذ الى نفسى ويشـوش كل

أفكارى . وأصبحت لا أستطيع خلاصا من صور تحاصر شعورى ولا تدع لى راحة ..

كنت أتصور هذا الألم الطويل الذى لا مخرج منه ولا نهاية له . كنت أتصور هذا الخوف ، وهذا القلق ، وهذه التضحية تقبلها الكسندرين ميخائيلوفنا ذليلة دون أن تحرك ساكنا ، ودون أن تنبس بكلمة ! ... وكنت أرى أن هذه التضحية عبث لا طائل تحته ولا جدوى منه . كان يبدو لى أن الشخص الذى تتألم الكسندرين ميخائيلوفنا من أجله يحتقرها ويصب عليها اللعنات .. كنت أرى مجرما يغفر خطايا برىء ، وكان ذلك يمزق قلبى تمزيقا ! وكنت أود فى الوقت نفسه ، من أعماق قلبى ، لو أستطيع أن أتحاشى هذه الشكوك .. كنت ألعن هذا الرجل ، وأمقت نفسى ، لأن افتراضاتى لم تكن الا تخمينا ، ولأن ضميرى كان لا يستطيع أن يبرر مشاعرى . ثم أخذت أحلل بعض عبارات الرسالة ، وهذه الصرخات الواعية الرهيبة . وأخذت أتصور ذلك الرجل الذى لم يكن كفئا . حاولت أن أحزر كل ما فى هذه الكلمة من معنى فظيع . وكان هذا الوداع اليائس يعذبنى : « شعرت بالعار يجللنى، وشعرت بعار يلطخك أيضا ، لأنك اخترتنى ! » .. من كان ذلك الرجل ؟ .. ومم كان يتألم هذان المخلوقان ؟ .. ماذا كان يعذبهما ؟ .. ماذا فقدا ؟ .. وكنت أهدىء من روعى وأعود فأقرأ الرسالة فى انتباه ، فتتمزق نفسى يأسا . وأحار فى فهمها ، ثم تسقط الرسالة من بين يدى ، وقد تقبض قلبى أكثر فأكثر ، وتملكنى انفعال خانق .. والخلاصة : كان لا بد لهذا كله من أن ينحل على نحو من الأنحاء ، ولكننى لم أر منه مخرجا ، فكان ذلك يخيفنى !

وذات يوم ، وكنت مريضة جدا ، جلجلت فى مدخل البيت أصوات عربة بطرس الكسندروفتش ـ وكان عائدا من رحلته الى موسكو ـ

فانطلقت من صدر الكسندرين ميخائيلوفنا صرخة فرح ، وبقيت أنا فى مكانى كالمتجمدة • أذكر اننى دُهشت الى حد الذعر من انفعالى المباغت • ولم أستطع أن أملك زمام نفسى ، فهرعت الى غرفتى • لم أفهم شيئا من هذا الخوف الذى غشينى فجأة ، ولكننى كنت خائفة من هذا الخوف ! • وبعد ربع ساعة استدعونى ، وسلمونى رسالة من الامير • ورأيت فى القاعة رجلا لا أعرفه جاء مع بطرس الكسندروفتش من موسكو ، وعرفت من بضع كلمات أدركتها ادراكا خاطفا انه سيقيم بيننا مدة طويلة •

كان ذلك الشخص هو وكيل الامير ، جاء الى بطرسبرج لينهى بعض الاعمال الهامة التى تتعلق بالاسرة والتى كان يسعى فيها بطرس الكسندروفتش منذ مدة طويلة • أعطانى الوكيل الرسالة وذكر لى أن الاميرة الصغيرة ـ كاتيا ـ كانت تنوى أن تكتب الىّ أيضا ، وانها ظلت تؤكد له حتى آخر دقيقة انها تهيىء هذه الرسالة ، الا انها تركته يمضى أخيرا خالى اليدين ، وهى ترجوه أن يبلغنى أنه ليس هناك فى الواقع أى شىء تريد أن تكتبه الىّ ، وان كتابة رسالة لا تعنى شيئا ، وانها سوّدت خمس صفحات ثم مزقتها ، وانه لا بد أولا من أن تنعقد صداقتنا مرة أخرى حتى نستطيع أن نتكاتب • ثم كلفته أن يعدنى بأننى سألقاها فى القريب !

وأجاب هذا الشخص المجهول على أسئلتى الملحاحة بأن نبأ اللقاء القريب نبأ صحيح فى الواقع ، لأن أسرة الامير تنوى العودة الى بطرسبرج • وقد بلغت من فرحى لسماع هذا الكلام اننى لم أستطع أن أملك نفسى ، فهرعت الى غرفتى ، وأغلقت علىّ الباب ، ثم فضضت كتاب الامير والدموع تنهمر من عينى • ان الامير يبشرنى فى رسالته هذه بأنه سيراني قريبا مع كاتيا ، وهو يهنئنى على موهبتى تهنئة حارة ، ويثنى على

المستقبل اللامع الذى ينتظرنى ، ويؤكد لى رعايته وحمايته • وقد بكيت وأنا أقرأ هذه الرسالة ، الا أن عذوبة دموعى هذه كانت مشوبة دائما بمرارة القلق الهائل الذى يثوى فى قرارة نفسى • لم أكن أفهم من حالتى هذه شيئا ، عدا اننى خائفة من نفسى !

◆◆◆

وانقضت على ذلك أيام • وفى الغرفة التى تجاور غرفتى ، أعنى الغرفة التى كان يقيم فيها سابقا سكرتير بطرس الكسندروفتش ، كان القادم الجديد يعمل فى كل صباح ، وكثيرا ما كان يعمل أيضا فى المساء الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل • وكان فى كثير من الاحيان ينتقل الى حجرة بطرس الكسندروفتش ، فيخلو الاثنان يعملان معا ••

وذات مساء ، بعد العشاء ، رجتنى الكسندرين ميخائيلوفنا أن أمضى الى زوجها فى حجرة عمله أسأله هل يجب أن يتناول الشاى معنا • فلما لم أجد أحدا فى هذه الحجرة اعتقدت أن بطرس الكسندروفتش لا بد عائد اليها من دقيقة الى أخرى ، فلبثت هنالك أنتظر أوبته • كانت صورته معلقة على الحائط • وأذكر اننى ارتعدت فجأة حين نظرت الى الصورة ، ثم حدقت فيها طويلا وقد تملكنى انفعال لا أفهم كنهه • كانت الصورة عالية • ولما كانت الغرفة مظلمة بعض الشىء ، وكنت أود أن أرى الصورة عن كثب ، فقد اعتليت من أجل ذلك ظهر كرسى • كنت فى حاجة لأن أنعم النظر فى هذه الصورة وأن أفحصها فحصا ، كأنما كنت آمل أن أجد فيها جوابا على شكوكى ، والواقع أن العينين فى هذه الصورة قد هزتانى فجأة ، ولم أكن قد رأيتهما من قبل ، لأنهما كانتا مختبئتين دائما وراء النظارتين •

أذكر اننى لم أكن أحب نظرة هذا الرجل منذ كنت طفلة ، يحملنى

على ذلك نوع من التنبؤ الغريب لا يُفهم • وقد جاء الواقع الآن يؤيد نبوءتى ويبررها • وأخذ خيـــالى يسرح ويمرح ، فاذا أنا أرى عينى الصورة تشيحان عن نظرتى الحادة وجلتين ، تحاولان أن تهربا منها ، وخيل الى أننى لا أرى فيهما الا الـكذب والخـــداع ، وبلغت من قوة اعتقادى بأننى أنفذ الى سرهما أنه تملكنى فرح عظيم لا يمكن وصفه • وانطلقت من صدرى صرخة • وفى هذه اللحظة سمعت ضجة خفيفة ورائى •• فالتفت فاذا أنا أمام بطرس الكسندروفتش وجها لوجه ، وكان يتأملنى فى انتباه شديد • وخيل الىّ انه احمر فجأة ، فاحمررت أنا أيضـــا ، وقفزت أهبط من فوق الكرسى •

سألنى بلهجة قاسية :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ لماذا ارتقيت الكرسى ؟

ولم أعرف فى أول الامر ماذا أقول • ولكننى ثبت الى نفسى ونقلت اليه ـ على نحو ما استطعت ـ دعوة الكسندرين ميخائيلوفنا • لا أذكر الآن بم أجاب ، ولا كيف خرجت من حجرة عمله ، وانما أذكر اننى حـين رجعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا كنت قد نسيت تماما الجـواب الـذى تنتظره ، فقلت لها على غير هدى ان زوجها آت •

فهتفت قائلة :

ـ ماذا بك يا نيتوتشكا ؟ ما لوجهك أحمر شديد الحمرة ؟ انظرى الى وجهك فى المرآة • ماذا بك ؟

فدمدمت :

ـ لا أدرى •• لقد جريت مسرعة جدا ••

واستأنفت كلامها قلقة :

ـ ماذا قال لك بطرس الكسندروفتش ؟

لم أجب • وفى تلك اللحظة سمعت وقع أقدام بطرس الكسندروفتش فهرولت خارجة من الغرفة • وانتظرت ساعتين طويلتين وأنا أشد ما أكون قلقا • وأخيرا جاءنى من يقول ان الكسندرين ميخائيلوفنا تطلبنى • فمضيت اليها ، فألفيتها صامتة قد لاح على محياها انشغال البال • وحين دخلت ، غرست فىّ نظرة سريعة ، فاحصة ، ثم لم تلبث أن غضت من طرفها • كان نوع من الانزعاج يشع فى وجهها • وسرعان ما أدركت أنها معكرة المزاج جدا ، فهى تتكلم قليلا ، وتتحاشى أن تنظر الىّ ، وتجيب على الاسئلة الرقيقة التى يوجهها اليها « ب » ، وكان مظهرها يوحى بأنها تشعر بصداع • وكان بطرس الكسندروفتش أكثر انطلاقا مما عهدت فيه ، الا انه كان لا يتجه بالكلام الا الى « ب » •

ونهضت الكسندرين ميخائيلوفنا الى البيانو ذاهلة ، وقالت وقد سرت كثيرا لهذه التسلية التى خطرت على بالها :

ـ نعم ، يا آنيت ، غنى لنا أغنيتك الجديدة •

نظرت اليها ، فاذا هى تتأملنى فى انتباه قلق •

ولكننى لم أستطع أن أضبط نفسى ، فبدلا من أن أقترب من البيانو ، وأن أغنى ، ظللت واقفة فى مكانى ، مضطربة ، مرتبكة ؛ لا أدرى كيف أخرج من هذا الموقف • ثم ازداد حرجى ، فرفضت أن أغنى رفضا باتا !

فسألتنى ألكسندرين ميخائيلوفنا ، وهى تحدق فى ، ثم تلقى على زوجها نظرة مختلسة :

ـ لماذا لا تريدين ؟

وضاعفت هذه النظرة المزدوجة اضطرابَ أعصابى ، فنهضت عن الطاولة وقد اعترتنى هزة شديدة لم أستطع كتمانها • كنت أرتعد ارتعادا شديدا • وضاق صدرى حتى لم أعد أطيق الاحتمال ، فأجبت بصوت متهدج بأننى لا أريد أن أغنى لأننى لا أستطيع الغناء • وقلت اننى أشعر بأننى مريضة ، قلت ذلك ونظرت الى عيونهم جميعا • يعلم الله ما كان أشد رغبتى حينذاك فى أن أكون وحيدة ، بعيدة عنهم ، فى غياهب غرفتى ••

ولاحت فى وجه « ب » دهشة شديدة • أما ألكسندرين ميخائيلوفنا فقد بدا عليها الاضطراب ، غير انها لم تحتج • وأما بطرس الكسندروفتش فقد تجهم وجهه ، ونهض فجأة عن كرسيه قائلا انه نسى أمرا مستعجلا من أمور أعماله ، وخرج مسرعا وهو يعد بأن يرجع بعد قليل ان استطاع• الا انه صافح « ب » مودعا على سبيل الاحتياط ، خشية أن لا يستطيع الرجوع !

وسرعان ما سألنى « ب » :

ـ ولكن ماذا بك ؟ ان المرض يلوح فى وجهك حقا !

قلت وقد فرغ صبرى :

ـ اننى متعبة جدا ، اننى مريضة جدا •

ـ أصدقك • ان وجهك شاحب ، ومنذ هنيهة كان أحمر شديد الحمرة •

قالت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ، ثم صمتت فجأة فهتفت وأنا أتقدم نحوها وأرمقها بنظرة ثاقبة :

ـ أوه ! كفى ..

لم تستطع المسكينة أن تحتمل نظرتى ، فغضت طرفها كمن ضبط متلبسا بالخطيئة ، بينما تخضبت وجنتاها الشاحبتان ببقع حمراء خفيفة .. فتناولت يدها وقبلتها .. وتركتنى أفعل ذلك وهى تنظر الىّ بفرح صادق ساذج :

ـ اغفرى لى اننى كنت اليوم طفلة صغيرة سيئة . ولكننى أؤكد لك اننى مريضة . لا تغضبى . دعينى أذهب .

قلت ذلك منفعلة .

فأجابت قائلة :

ـ اننا جميعا أطفال !

ثم همست فى أذنى :

ـ أنا أيضا طفلة ، طفلة أكثر منك بكثير . الى اللقاء . وأتمنى لك الابلال من مرضك . ولكننى أناشدك الله أن لا تؤاخذينى .

فقلت وقد هزنى رجاؤها الساذج هزا قويا :

ـ أؤاخذك ؟ لماذا ؟

فتملكها اضطراب رهيب ، كأنما هى تخاف نفسها فجأة ، وكررت سؤالى قائلة :

ـ لماذا ؟

ثم أضافت :

ـ انك ترين حالتى يا نيتوتشكا ! ماذا قلت لك ؟ الى اللقاء . أنت أذكى منى . اننى أقل فطنة من طفلة صغيرة !

فقلت وقد تأثرت تأثرا شديدا ، دون أن أعرف ماذا أقول :

ـ أوه • بربك اصمتى !

ثم قبلت يدها مرة أخرى وانسحبت •

• • •

وتملكنى أسف شديد وقلق عنيف ، وأنا أؤاخذ نفسى على اننى لم أكن حكيمة حذرة ولم أحسن التصرف • كنت أشعر بخجل شديد يغرينى بالبكاء • ثم نمت وأنا فيما أنا فيه من حزن مبرح ••

وحين استيقظت فى صباح اليوم التالى كان أول ما تبادر الى ذهنى هو أن ليلة البارحة كانت حلما مزعجا ، كانت سرابا •• لقد تهالكنا على أمور تافهة فأخذناها مأخذ الجد ، وذلك كله يرجع الى خراقتنا ، الى اننا لم نتعود التغلب على المؤثرات الخارجية • قلت لنفسى ان الآفة كلها ترجع الى تلك الرسالة ، انها تحتل من فكرى مكانا كبيرا جدا ، وترهق خيالى الى حد الافراط ، فرأيت من الأفضل أن أدعها جانبا • وما ان عزمت أمرى على ذلك حتى شعرت بقلقى يخف ؛ وحين أيقنت أن فى وسعى أن التزم قرارى بسهولة ، مضيت الى حضور درس الغناء فى طمأنينة وفرح •

وأعانت طراوة الصباح على تهدئة أعصابى • كنت أحب كثيرا هذه الرحلة الصباحية الى أستاذى • لقد كان يمتعنى جدا أن أجتاز المدينة وهى تستعيد نشاطها المألوف فى تلك الساعة ، الساعة التاسعة من الصباح • كنا نمر عادة بشوارع صاخبة جدا ، وكان مظهر هذه الشوارع يلفت نظرى، ولا سيما هذا التناقض الذى أحسه بين تفاصيل الحياة اليومية وبين الفن الذى ينتظرنى على بعد خطوتين ، فى الطابق الثانى من بناية كبيرة ،

يشغلها من أسفلها الى أعلاها سكان لعلهم لا يهتمون البتة بالموسيقى. كنت أمضى الى درسى مارة بين هؤلاء الناس المنهمكين فى أعمالهم ، متأبطة دفتر الموسيقى ، بينما كانت « ناتاليا » العجوز التى تصحبنى تحملنى ، دون أن تشعر بذلك ، على أن أتساءل : ترى فيم تفكر ؟ وكنت أطرح هذا السؤال على نفسى بصدد أستاذى أيضا ، وهو رجل طيب ، بسيط ، لا هو بالايطالى ولا هو بالفرنسى ، بل هو بين بين ، ترفعه أجنحة الحماسة فى بعض اللحظات ، ولكنه فى الأغلب دعى ، وهو قبل هذا بخيل . وكان ذلك كله يسلينى : يضحكنى تارة ، ويحملنى على التأمل والتفكير تارة أخرى . وكنت من جهة أخرى أحب فنى ، أحبه فى خجل ، وأحبه فى رجاء قوى يجعلنى « أبنى آلاف القصور فى أسبانيا » ، وأتخيل لنفسى مستقبلا رائعا مشرق الألوان ، فكنت أعود الى البيت دائما وقد امتلأت نفسى حماسة ونشاطا ..

وقد كنت فى مثل هذه الحالة من الحماسة حين رجعت من درسى الى البيت فى الساعة العاشرة . كنت قد نسيت همى ، واسترسلت فى أحلام فرحة . الا انى انتفضت فجأة على السلم انتفاضة من لدغته نار ، اذ سمعت صوت بطرس الكسندروفتش الذى يهبط السلم يرن من فوقى. فانتابنى لدى سماع هذا الصوت شعور مزعج .. وعادت ذكرى حوادث البارحة الى نفسى قوية واضحة ، حتى لم أستطع أن أخفى قلقى ، وانحنيت له انحناءة خفيفة .. لا شك أن وجهى كان فى تلك اللحظة معبرا جدا ، اذ توقف بطرس الكسندروفتش دهشا ، فاحمر وجهى من الانفعال ، وتابعت صعودى وأنا أكاد أركض .. بينما دمدم هو ببضع كلمات ورائى، ثم استأنف هبوطه ..

كنت على وشك أن أبكى من شدة الاضطراب ، وأنا لا أفهم ماذا

اعترانى ، وظللت طوال فترة الصباح أنكر نفسى من فرط التغير الذى أصابنى .. لا أدرى على أى أمر أعزم ، ولا كيف أخرج من هذه الدوامة . وأقسمت ألف مرة أن أهدىء من روعى ، ثم عاد الخوف ألف مرة يلم بى من جديد . كنت أشعر اننى أبغض زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، وكان ذلك فى الوقت نفسه يسلمنى ليأس شديد ، وشعور بالحقد على الناس جميعا ! .. لم أبرح غرفتى لحظة واحدة ، حتى اننى لم أذهب الى الكسندرين ميخائيلوفنا . فاذا هى تأتى الىّ . فما ان ألقت ببصرها علىّ حتى أوشكت أن تصرخ . كنت من فرط الاصفرار بحيث اننى حين نظرت الى وجهى فى المرآة ذعرت ذعرا شديدا . وظلت الكسندرين ميخائيلوفنا الى جانبى ساعة طويلة تعتنى بى عنايتها بطفلة .

غير ان عنايتها هذه كانت تحزننى ، وكانت مداعباتها تشق على نفسى . كنت من شدة الشعور بالخجل حين أنظر اليها بحيث رجوتها أخيرا أن تدعنى وحدى . فانسحبت وهى أشد ما تكون قلقا . وأخيرا انفجر اضطرابى بكاء شديداً . وعند المساء رأيتنى أحسن حالا .

رأيتنى أحسن حالا لأننى قررت أن أمضى الى الكسندرين ميخائيلوفنا أرتمى على ركبتيها وأرد اليها الرسالة التى أدخلت الى نفسى كل هذا الاضطراب ، وأن أعترف لها بكل شىء ! .. أردت أن أعترف لها بالعذاب الذى كابدته ، بالشكوك التى راودتنى ، وأن أقبلها قبلة تحمل كل الحب القلق الذى أشعر به نحوها . أردت أن أذكر لها عذابى الشديد ، وأن أقول لها اننى ابنتها وصديقتها ، واننى أفتح لها قلبى رحبا واسعا ، وان عليها أن تنظر الى نفسى فتجد فيها العاطفة المشبوبة الراسخة التى أحملها لها .

رباه ! كنت أعلم ، كنت أشعر اننى آخر من يمكن أن تفتح له

قلبها ، ولكن خيّل الىّ اننى أستطيع أن أرد السلام الى قلبها ، بما يمكن أن أسوقه من كلام رزين معقـــول • كنت أفهم قلقها ـ ولو فهما غامضا ـ وكنت كلما تصورت أن من الممكن أن تحمر خجلا منى ، وأن تخشى حكمى عليها ، أثور ثورة قوية •• يا عـــزيزتى ، يا عـزيزتى المسكينة ، فيم أنت مذنبة ؟ ذلك ما سأقوله لها وأنا أبكى بين قدميهـا •• كان الشعور بأنها مظلومة يثيرنى اثارة عنيفة حتى لكأننى مجنونة • والحق اننى لم أكن أدرى ماذا أفعل •• ولم أدرك ذلك الا فيما بعـــد ، حين تدخلت مصادفة من المصادفات فأنقذتنا كلتينا من الهلاك ، اذ أوقفتنى عند الخطوة الاولى • وكان الذعر يتملكنى أيضا • هل كان يمكن أن ينبعث الرجاء مرة أخرى فى هذا القلب الموات ، قلب الكسندرين ميخائيلوفنا ؟ •• هل أستطيع أن أنهضها من عثرتها ؟

ولكن اليكم ما وقع : لم يكن قد بقى علىّ الا أن أجتاز غرفتين حتى أصل الى غرفتها •• فاذا ببطرس الكسندروفتش يخرج من باب جانبى، ويمر أمامى دون أن يرانى • كان ذاهبا اليها هـو الآخـر ، فوقفت فى مكانى مشدوهة ، ذلك انه آخر من كان يحتمل أن أصادفه فى مثل هذه اللحظـة ! وكنت على وشك أن أعـــود أدراجى ، حين ســـمرنى حب الاستطلاع فى مكانى فجأة اذ رأيته يتوقف أمام مرآة ، ليصلح من شعره ويدندن ـ يا للدهشة ! ـ بأغنية ما !

وفى طرفة عين رجعت الى ذاكرتى ذكرى بعيدة من أيام الطفولة•• سأذكر لكم هذه الذكرى البعيدة ، حتى تفهموا الشعور الذى اجتاحنى :

خلال السنة الاولى التى عشتها فى هذا البيت لفتت نظـرى وأثرت فى نفسى ظاهرة غريبة تعود الى ذاكرتى الآن واضحة جلية •• ظاهرة لم تكتسب دلالة ومعنى الا فى هذه اللحظة ، ولقد كانت هـــذه الظاهرة أصل الكره الذى أشعر به نحو بطرس الكسندروفتش دون أن أجد له

تعليلا • سبق أن قلت انني ما شعرت يوما بشيء من الارتياح ازاء هذا الرجل • وسبق أن ذكرت أن تعبير وجهه الكالح، المقطب ، المهموم ، يبث في نفسي الخوف والقلق • وذكرت أيضا أن الساعات التي قضيتها معه على مائدة الشاي في حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا كانت شاقة على نفسي مؤلمة ، ووصفت ما انتابني من انقباض الصدر حين شهدت ـ مرتين أو ثلاثا ـ أزمات عنيفة حزينة قامت بينه وبين زوجته ••

ولقد كان يتفق لي أن أصادفه ، كما أصادفه الآن ، في هذه الغرفة نفسها ، في هذه الساعة عينها ، ذاهبا مثلي الى حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت أشعر بخجل كالذي يشعر به الاطفال ، فأنزوي في زاوية كأنني مذنبة ، ادعو الله ألا يراني أبدا ! •• كان يتوقف أحيانا أمام المرآة ، كما يفعل الآن تماما ، فأرتعد عندئذ من شعورٍ لا أستطيع وصفه ولا تحديده • كنت أشعر انه « يصنع » لنفسه وجها ! •• كنت على الاقل أرى ابتسامةً واضحة في محياه قبل أن يقف أمام المرآة ، وكان ذلك يدهشني كثيرا ، ولا سيما انه كان لا يبتسم أبدا أمام الكسندرين ميخائيلوفنا • فما ان يقف أمام المرآة حتى تتبدل سحنته فجأة ، فاذا شفتاه تكتسيان ، بارادته ، تعبيرا مرا صادرا من قلب مقروح، تعبيرا يستحيل اخفاؤه ، يستحيل كبته ، مهما كان لديه من الرغبة القوية ـ التي تفوق طاقة الانسان ـ في ألا يُظهر من هذا التعبير شيء البتة•• فالعذاب الحبيس يغضن الجبين ، ويقطب الحاجبين ، ويصوّح النظرة من تحت النظارتين !

هكذا كان بطرس الكسندروفتش يستحيل الى شخص آخر في طرفة عين ! •• وكنت أنا أرتجف خوفا ، وكنت أخشى أن « أفهم » هذا المنظر الذي أرى ، والذي ترك في نفسي ـ الى الأبد ـ شعورا مؤلما ممضا • وكان بعد أن يتأمل نفسه لحظة في المرآة ، يدلّي رأسه ويتخذ

وضع الانحناء الذى يلازمه متى كان مع زوجته ، ثم يدخل الى الكسندرين ميخائيلوفنا سائرا على أطراف الاصابع .

هذه الذكرى .. هى التى تعودنى الآن !

كان ، فى ذلك الوقت ، يحسب نفسه وحيدا ، فيقف أمام المرآة ، كما يفعل الآن . والآن ـ كما فى ذلك الوقت ـ لقيته على هذا الحال وأنا أشعر نحوه بالكره والعداوة ، على غير ارادة منى ! .. غير اننى حين سمعته يغنى (وكان ذلك فى ذاته أمرا لا يمكن أن ينتظر منه !) بلغت من فرط الدهشة اننى تسمرت فى مكانى لا أستطيع حراكا . كانت حالتى فى تلك اللحظة شبيهة بحالات طفولتى . كان قلبى منقبضا انقباضا رهيبا لا أستطيع له وصفا ، فان أعصابى كلها ارتجفت لدى سماع هذا الغناء الذى لم أكن أتوقعه .. فاذا أنا أنفجر فجأة فى ضحكة عصبية ، بالرغم منى !

اذ ذاك انطلقت من المغنى المسكين صرخة ، ووثب خطوتين الى وراء، بعيدا عن المرآة ، وامتقع وجهه حتى أصبح كالميت ، كأنه مجرم يقبض عليه متلبسا بالجرم !.. ونظر الىّ مشدوها ، ساخطا ، غاضبا غضبا جنونيا .. فما زادتنى نظرته الا كرها له واحتقارا ، وأجبت عليه بمضاعفة ضحكى دون أن أغض بصرى ! .. ثم مررت الى جانبه وأنا ما زلت أضحك ، ودخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا . كنت أعرف انه وراء الباب ، يتردد هل يدخل ، أو لايدخل ، وقد تسمر فى مكانه من الغضب والخشية .. وأخذت أرقب ما سيفعل ، فى صبر فارغ مثير : كنت على شبه يقين من انه لن يدخل ! .. ولم يخطىء ظنى ، فانه لم يأت الا بعد انقضاء نصف ساعة على ذلك . وحين دخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا، نظرت الىّ فى شىء من الدهشة ، ولكنها حاولت عبثا أن تفهم منى

ما هنالك ، فانني لم أجب بكلمة ، لأنني كنت كمن يختنق ! .. وفهمت هي أخيرا ان أعصابي مضطربة لا أستطيع ضبطها ، فقلقت لذلك أشد القلق . وحين استطعت أن أهدىء من روعي ، أمسكتُ بيدها وقبلتها . وفي تلك اللحظة فقط فكرت فيما عزمت عليه وشرعت فيه ، فأدركت ان الفكرة التي راودتني كان يمكن أن تقتلها ، لولا انني صادفت زوجها في الوقت المناسب !

◆◆◆

وحين دخل بطرس الكسندروفتش ، لاحظت أنهـا كمن بعث الى الحياة من جديد ..

واختلستُ نظرةً سريعة اليه ، فلاحظت انه على ما عهدت فيه من هيئة كالحة رصينة حزينة . ولكنني أدركت من صفرة وجهه ـ ومن رجفة خفيفة في زاوية شفته ـ انه لا يخفي اضطرابه الا في كثير من المشقة والعناء . وقد حيا الكسندرين ميخائيلوفنا تحية باردة ، ثم جلس صامتا . كانت يداه ترتجفان حين تناول قدح الشاي . كنت أتوقع انفجارا ، وكان ذعري يزداد قوة . الا انني قررت أن أنسحب ، وأن أترك الكسندرين ميخائيلوفنا وحدها ، وقد تغير وجهها حين رأت زوجها . لقد كانت هي الاخرى توجس شيئا غير مألوف !

وأخيرا وقع ما كنت أتوقعه في كثير من الخوف !

فبينما نحن في صمت عميق ، رفعتُ بصري فرأيت نظارتي بطرس الكسندروفتش تحدقان فيَّ ! .. وكنت لا أنتظر هـذا ، فأوشكت أن أصرخ ، وغضضت عيني ..

ولاحظت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ..

أما بطرس الكسندروفتش فقال فجأة ، بصوت قاطع خشن :

ـ ماذا بك ؟ لماذا احمر وجهك ؟

لم أجب ، فقد كان قلبى من شدة الخفقان بحيث لاأستطيع أن أنبس بحرف •

ـ ما لها احمرت ؟ ما لها تحمر بلا انقطاع ؟

قال ذلك متجها بالسؤال فى هذه المرة الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهو يشير الىَّ بيده اشارة وقحة •

وانقطعت أنفاسى من فـــرط الاستياء ، فأرسلتُ الى الكســندرين ميخائيلوفنا نظرة متوسلة ، ففهمتنى •• واذ ذاك تضرج خداها الشاحبان، وقالت لى بصوت جازم لم أكن أتوقعه منها :

ـ اذهبى الى غرفتك • سألحق بك بعد قليل ، وسنقضى السهرة معا•

واستأنف بطرس الكسندروفتش يسألنى بصـــوت أعلى ، كأنه لم يسمع ما قالته امرأته :

ـ هل سمعت ما أقول ؟ أريد أن أعرف لماذا تحمرين كلما لقيتنى • أجيبى على سؤالى !

فقالت الكسندرين ميخائيلوفنا تجيبه بصوت يهدجه الانفعال :

ـ أنت تجعلها تحمر ، وتجعلنى أحمر أنا أيضا •

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فى كثير من الدهشة ، والحيرة ، والتعجب ••

ـ أنا ؟ أنا أجعلك تحمرين ؟ أنا ؟

قالها بطرس الكسندروفتش ، وقد ظهرت عليه الدهشة هو الآخر ، وألح على « أنا » .. ثم أردف :

ـ تحمـــرين أنت بسببي أنا ؟ ولـكن كيف يمـكن أن أجعـلك تحمرين ، الأولى أن تجعلينى أنت أحمر ، ما رأيك ؟

كان معنى هذه العبارة واضحا جدا فى ذهنى ، وقد قالها بطـرس الكسندروفتش بلهجة قاسية ساخرة ، فاذا أنا أطلق من صدرى صرخة ، وأهرع نحو الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأرى الدهشة ، والعذاب ، واللوم ، والذعر ، تشع جميعـا من وجههـا الذى امتقع لونه حتى صـار كوجوه الموتى ! .. وأرسلت الى بطرس الكسندروفتش اشارة توسل .. وكان كأنما عاد اليه رشده ، لكن الغضب الذى أثارته كلماته لم يكن قد انقضى بعد .. وأدرك مع ذلك ضراعتى الخرساء فاضطرب . كان واضحا من اشارتى أننى فهمت كلماته كل الفهم ، وانني اذن على علم ببعض الأمور التى ظلت حتى ذلك الحين سرا !

ـ آنيت ، اذهبى الى غرفتك ، انني فى حاجة ملحة لأن أتحدث مع بطرس الكسندروفتش .

قالتها الكسندرين ميخائيلوفنا بصوت ضعيف لـــكنه جازم ، وقد نهضت عن كرسيها .

كانت تبـــدو هادئة ، الا أن هـــدوءها أخافنى أكثر من أى انفعال ممكن ، ولبثت فى مكانى لا أستطيع حراكا ، كأنى لم أسمع ما قالته . كنت أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أقرأ على صفحة وجههـا ما دار فجأة فى نفسها ، وكان يلوح لى أنها لم تفهم اشارتى ولا ضراعتى ..

وابتدرنى بطرس الكسندروفتش وهـــو يمسـك ذراعى ويرينى امرأته :

ـ كان لك ما أردت يا آنسة !

رباه ! لم أر فى حيـاتى يأسا كالذى أراه الآن فى هـذا الوجه المتشنج ، فى هذا الوجه الميت ! .. وتناول بطرس الكسندروفتش يدى يدفعنى الى خارج الغـرفة ، بينما كنت أنظر اليهما كليهما مرة أخـيرة . كانت الكسندرين ميخائيلوفنا واقفة ، مستندة الى المدفأة ، ممسكة برأسها بين يديها . كان وضعها كله ينبىء عن ألم لا سبيل الى وصفه . فأمسكت بيد بطرس الكسندروفتش وضغطت عليها بقوة محمومة ، وغمغمت بصوت مقطع متهدج أقول :

ـ حباً بالله ، حباً بالله ، ترفق بها ..

فأجاب وهو يلفنى بنظرة غريبة :

ـ لا تخافى ، لا تخـافى ، ما من خطـر . هى نوبة ثم تنقضى . اذهبى . اذهبى .

فلما وصلت الى غرفتى ، ارتميت على الديوان ، ووجهى بين ذراعى . ولبثت على هذه الحال ثلاث ساعات طوال فى جحيم حقيقى . ثم لم أستطع صبرا فأرسلت أسأل هل تسمح لى الكسندرين ميخائيلوفنا بالمجىء اليها ؟ .. وجاءتنى مدام ليوتار بالجواب : لقد طلب اليها بطرس الكسندروفتش أن تبلغنى أن النوبة قد انقضت ، وأن الخطر قد زال ، غير أن الكسندرين ميخائيلوفنا فى حاجة الى الراحة . ولبثت حتى الساعة الثالثة من الصباح لا أزيد على أن أذهب وأجىء فى غـرفتى ، من شدة شـعورى بحرج وضعى . ومع ذلك كنت أتخفف من قلقى مرددة اننى المذنبة الأولى . ثم نمت أنتظر الغد بفارغ الصبر ..

لكننى لاحظت على الكسندرين ميخائيلوفنا فى الغد شيئا من الفتور

نحوى ، فأدهشنى ذلك وأحزننى • اعتقدت فى أول الامر ان هذه المرأة ذات القلب النبيل الطاهر يؤلمها أن ترى نفسها معى بعد أن شهدتْ أزمة البارحة على غير ارادة منى ، وكنت أعلم انها قد تحمر خجلا كطفلة ، وأن تسألنى ، كطفلة أيضا ، أن أغفر لها ذلك المشهد الذى ربما ساءنى • ولكن سرعان ما لاحظت أن أمرا آخر يسيطر على تفكيرها ، لا تستطيع من سذاجتها اخفاءه • فكانت تارة تجيبنى بلهجة جافة باردة ، وتارة تقول كلاما ذا معنيين ، وتارة تستعيد لطفها وتداعبنى كأنها تأسف فجأة على ما بدر منها من قسوة ، قسوة لا يمكن أن تكون فى قلبها •• وكانت كلماتها فى هذه الحالة الاخيرة تحتفظ ، على عذوبتها وهدوئها ، برنة من عتب • وأخيرا سألتُها صراحة عما بها ، وهل تريد أن تقول لى شيئا بعينه ، فهزّها سؤالى العنيف بعض الشىء ، الا أنها لم تلبث أن رفعت عينيها الواسعتين الرقيقتين ، ونظرت الى تقول فى ابتسامة عذبة :

ـ ليس بى شىء ، يا نيتوتشكا ، الا أنك تعرفين أننى اضطرب حين يوجه الىّ سؤال مباغت • وهذا ما فعلته الآن •• أؤكد لك ذلك •• ولكن اسمعى يا بنيتى وصارحينى بالحقيقة : هل فى قلبك شىء يمكن أن يجعلك تضطربين هكذا اذا سئلتِ سؤالا مباغتا لا تتوقعينه ؟

ـ كلا •

قلت ذلك وأنا أنظر اليها دون مواربة •

ـ حسنا جدا • لو تعلمين يا عزيزتى كم أشكر لك هذا الجواب الجميل •• وليس معنى هذا اننى أستطيع أن أظن فيك السوء ، أبدا ، اننى لا أسمح لنفسى بفكرة كهذه • ولكن افهمى : حين ضممتك الى بيتى كنتِ طفلة صغيرة ، وأنت الآن فى السابعة عشرة من عمرك ، وأنا الان مريضة ، فالطفلة الآن هى أنا ، وأنا التى يجب أن يُعتنى بها • لم أستطع

أن أكون أمك كما كنت أحب أن أكون ، على أن الحب ليس هو ما أعوزني ، ولئن كنت قلقة عليك الآن ، فلست أنت المسئولة عن ذلك ، وانما هي خطيئتي . فاغفري لي السؤال الذي طرحته عليك . واغفري لي أيضا أنني لم أف بكل الوعود التي قطعتها لأبي حين ضممتك الى هذا البيت ؟ وان هذا أيضا ليقلقني كثيرا ؟ وكثيرا ما عذبني ، يا عزيزتي .

ارتميت على عنقها باكية . ثم قلت وأنا أغرق يديها بدموعي :

ـ ليباركك الله ، ليباركك الله ، جزاء ما صنعت في سبيلي . لاتتكلمي هكذا ، انك تهصرين قلبي هصرا . لقد كنت لي أكثر من أم . نعم ، انني أسأل الله أن يجزيكما خيرا عن كل ما صنعتما ، أنت والأمير ، من أجلي ، أنا اليتيمة البائسة . آه ! أيتها الصديقة العزيزة ، أيتها الصديقة الرقيقة اللطيفة !

ـ كفي يا نيتوتشكا ، كفي ! قبليني قبلة أعنف ، قبلة أقوى . هل تريدين أن أقول لك ؟ انني أشعر أن قبلتك هذه هي الأخيرة ، لا أدري من أين يأتيني هذا الهاجس !

فاحتججت أقول ، وأنا أنتحب كما ينتحب الاطفال :

ـ كلا . كلا . لا تقولي هذا . ستعيشين أياما سعيدة كثيرة .. ستعيشين أياما جميلة . صدقيني . سنكون سعيدتين .

ـ شكرا ، شكرا لك على هذا الحب كله . ليس من حولي الآن ناس كثيرون .. لقد هجروني .

ـ من هم الذين هجروك ؟ من هم هؤلاء الناس ؟

ـ كان من حولي في الماضي أشخاص آخرون . الا أنهم هجروني

جميعا • لقد تبددوا كلهم كما يتبدد السراب • وانتظرتهم طويلا منذ ذلك الحين •• لم أفعل شيئا غير الانتظار ، طوال حياتى كلها •• ليباركهم الله ! هل ترين يا نيتوتشكا ؟ ان الخريف يتقدم ، وقريبا يتساقط الثلج ، وسأموت أنا عند أول مرة يهطل فيها الثلج • نعم ، وان هذا ليحزن قلبى• وداعا •

كان وجهها شاحبا نحيلا ، وكان على كل خد من خديها بقعة حمراء ملتهبة ، وكانت شفتاها ترتجفان ، وقد جففتهما الحمى الداخلية •

واقتربت من البيانو تعزف بعض الألحان • فاذا بأحد الأوتار يقطع فجأة • فيدوّى من انقطاعه صوت مباغت ، امتد ثم انطفأ فى ارتجاف •

قالت بصوت ملهم وهى تشير الى البيانو :

ـ هل تسمعين يا نيتوتشكا ؟ هـل تسمعين ؟ لقد كان هذا الوتر مشدودا أكثر مما ينبغى أن يشد ، فلم يستطع أن يحتمل فمات • لقد سمعت كيف توجع الصوت وهو يموت !

كانت تتكلم فى عناء • وكان الالم الأصم الذى يضطرم فى نفسها يشع فى وجهها ، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع ، ولكن هيا يانيتوتشكا، كفى كلاما فى هـذا الموضوع ، كفى يا عزيزتى ، كفى • هيا احضرى الاولاد •

وأتيت بالطفلين •• ولاح عليهـا الارتياح وهى تنظر اليهما ، وصرفتهما بعد ربع ساعة •

ـ حين أموت ، لن تتركيهما ، يا نيتوتشكا ، أليس كذلك ؟

قالت ذلك بصوت خافت ، كأنها تخشى أن يسمعها أحد غيرى !

ـ اسكتى ، اسكتى ، انك تقتلينى قتلا بهذا الكلام !

ذلك كل ما استطعت أن أغمغم به •

فقالت وهي تبتسم بعد لحظة من صمت :

ـ انني أمزح • هل صدقت قولي ؟ ألا تعرفين انني في بعض الاحيان أهرف في الكلام هرفا • انني الآن طفلة ، طفلة ، وانني في حاجة الى أن يُغفر لي •

وألقت علي نظرة خجلى ، كأنها تخشى أن تقول أكثر مما ينبغي أن تقول •

وانتظرت ••

وأخيرا قالت وقد أغضت بصرها ، وتضرج وجهها فجأة بحمـرة خفيفة ، ولكن بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

ـ حاذري أن تخيفيه •

ـ من ؟

كذلك سألتها في دهشة ظاهرة ، فقالت :

ـ زوجي • لا شك أنك ستقصين عليه كل شيء •

وازدادت دهشتي قوة ، فهتفت أسألها :

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

ـ حسنا • قد لا تذكرين له شيئا على كل حال •

قالت ذلك وهي تحاول جهدها أن تنظر الي نظرة ماكرة ، الا أن ابتسامة شفتيها احتفظت بصراحتها ، وازدادت البقع الحمر في وجنتيهـا التهابا • وأردفت تقول :

ـ كفى كلاما فى هذا الموضـــوع • كنت أمزح • هذا كل ما فى الأمر •

وكان قلبى يزداد انقباضا •

وأردفت تقول بلهجة جدية ، ولكنها لهجة عجيبة •

ـ اسمعى مع ذلك • انك ستحبينهما بعد موتى ، اليس كـذلك ؟ ستحبينهما كأنهما ابناك ، أليس كذلك ؟ تذكرى ما أقول ، وتذكرى اننى أحببتك أنا الاخرى كأنك ابنتى ••

فهتفت ، دون أن أعرف ماذا أقول ، وأنا ألهث وأختنق بدموعى :

ـ نعم ، نعم •

وتناولت يدى بسرعة ، وطبعت عليها قبلة محرقة قبل أن أستطيع سحبها ، فهزنى ذلك هزا قويا حتى لم أستطع أن أنبس بكلمة •

وتساءلت فجأة : « ترى ماذا بها ؟ فيم تفكر ؟ ما الذى وقع بينهمـا البارحة ؟ » •

وبعد دقيقة شكت من أنها متعبة ، وقالت :

ـ اننى مريضة منذ مدة طويلة ، غير اننى لم أشأ أن أخيفكما لأنكما تحبانى كلاكما ، أليس كذلك ؟ والآن هيا ، الى اللقاء يا نيتوتشكا ، دعينى الآن ، ولكن عودى فى المساء ، هل تريدين ؟ ستأتين ، أليس كذلك ؟

ووعدتها بأن أعود فى المساء • وكنت سعيدة بالرجوع الى غرفتى ، فاننى لم أعد أحتمل أكثر مما احتملت •

صرخت وأنا أشهق : « مسكينة أيتها البائسة ! أى شك يستحثك

الى القبر • أية لوعة جديدة تسممك وتعض قلبك دون أن تجرئي على ان تقولي عنها كلمة واحدة ؟ رباه ! هذا العذاب الطويل الذى اعرفه الان كله ، هذه الحياة القاتمة التى لم تعرف اشراق النور ، هذا الحب الخجول الذى لا يطلب شيئا ولا يريد شيئا ، هذا الذى تجفله الشكوى ويخيفه اللوم بلا انقطاع ، ما كل هذا ؟ •• وهذه المراة المزقة التى ترتعد كأنها مجرمة ، كيف تستطيع أن تصنع لنفسها ألما جديدا وتخضع له وتموت منه ؟! » •

• • •

وفى المساء ، عند الشفق ، انتهزت فرصة غياب اوفروف ـ سكرتير بطرس الكسندروفتش ـ فدخلت الى المكتبة وفتحت احدى خزائنها وأخذت انبشها لاجد كتابا أقرؤه بصوت عال على مسمع من الكسندرين ميخائيلوفنا • كنت أحب أن أصرفها عن خواطرها السود ، فكنت أبحث عن شيء سهل مفرح • ولبثت أبحث مدة طويلة وأنا ذاهلة شاردة اللب• وتكاثف الشفق ، وأخذ الظلام ينتشر شيئا فشيئا ، وأخذ غمى يزداد قوة وعمقا • ووقع بين يدى مرة أخرى ذلك الكتاب الذى وجدت فيه الرسالة ، ورأيت آثار شكل الرسالة على الموضع الذى كان يشتمل عليها من الكتاب ، وكنت أحتفظ بهذه الرسالة فى قميصى •• هذه الرسالة التى حملت الىّ الصقيع ، والمجهول ، والسر ، والتى كانت تؤثر فى نفسى حتى الآن تأثيرا ينذر بالشر ! •• وساءلت نفسى : « ترى ما الذى سيقع لنا ؟ ان الركن الدافىء الذى كنت ألتجىء اليه سيتهدم •• ان النفس الصافية الرائقة التى رعت صباى وسهرت عليه ستهجرنى • ما الذى ينتظرنى ؟ » كنت كأنما نسيت ماضى ، رغم أنه عزيز على نفسى ، وأصبحت أفكر أكثر ما أفكر فى المستقبل الخطير الذى يملؤه السر والمجهول • انى أستطيع

ان اعيش تلك اللحظة بكاملها مرة أخرى ، لأنها منقوشة فى ذاكرتى نقشا عميقا .

كنت أمسك بين يدى الكتاب والرسالة ، وكنت غارقة فى دموعى . وفجاة انتفضت مذعورة . ان صوتا أعرفه كل المعرفة يرن فوقى . واحسست فى الوقت نفسه بان الرسالة تنتزع من بين يدى . فصرخت وانتصبت واقفة ، فرأيت بطرس الكسندروفتش أمامى ! .. وامسكنى من يدى بقبضة قوية وسمرنى فى مكانى ، بينما مد الرسالة باليد الاخرى نحو النور محاولا أن يقرأها . وصرخت . كنت أفضل أن أموت على أن أدع له الرسالة ! .. ورأيت من بسته الظافرة انه توصل الى قراءة سطورها الاولى . طاش لبى .. وما هى الا دقيقة واحدة حتى ارتميت عليه وأنا لا أكاد أعى ما أفعل فانتزعت الرسالة من بين يديه . وقد تم ذلك بسرعة عظيمة حتى اننى لا أفهم الى الآن كيف عادت الرسالة الى يدى . لكننى وقد لاحظت انه يهم أن ينتزع منى الرسالة مرة ثانية ، دسستها بسرعة فى قميصى ووثبت ثلاث خطوات الى الوراء !

ونظر كل منا الى الآخر لحظة فى صمت . وكنت ما أزال أرتجف خوفا ، وبادر هو الى قطع الصمت ، وكانت شفتاه المرتجفتان قد ازرقتا من شدة الغضب ، فقال فى صوت أصم :

ـ لا تضطرينى الى استعمال القوة . اعطينى هذه الرسالة بارادتك !

ان الشعور بالعار والامتعاض قد قلب نفسى رأسا على عقب ، ان تلك الاهانة الفظة قد خنقت أنفاسى . فانهمرت سيول من دموع محرقة على خدى الملتهبتين .

ولبثت مدة طويلة لا أستطيع من هول الاضطراب والارتجاف أن أنبس بكلمة .. فقال وهو يتقدم منى خطوتين :

ـ هل تسمعين ؟

فصرخت وأنا أبتعد عنه :

ـ دعنى ، دعنى • ان ما تفعله شر • ان ما تفعله لحقير خسيس • انك تنسى نفسك ! •• دعنى أمضى •

ـ ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ أأنت تجرئين على مخاطبتى بهذه اللهجة •• بعد أن •• اننى آمرك بأن تعطينى هذه الرسالة ، هل تسمعين ؟

ثم تقدم منى خطوة أخرى ، الا انه وقد لمح فى عينى قوة الاصرار والعناد ، توقف متحيرا • وقال أخيرا بلهجة جافة ، تنطوى على الاصرار وان يكن قد جاهد لكبح جماح نفسه :

ـ حسنا ! ندع هذا الآن الى حينه ومحله • ولكن قولى لى أولا من ذا الذى أدخلك المكتبة ؟ ولماذا أرى الخزانة مفتوحة ؟ من أين أخذت المفتاح ؟

قال ذلك بعد أن أجال بصره من حوله •• فانبريت له :

ـ لن أجيب على سؤالك • ولا أستطيع أن أتناقش معك • دعنى أمضى • دعنى !

واقتربت من الباب • فقال وهو يمسكنى من ذراعى :

ـ لا • لن تخرجى هكذا !

وانتزعت ذراعى منه دون أن أقول كلمة واحدة ، وتقدمت خطوة أخرى نحو الباب :

ـ اعلمى اننى لا أسمح لك بأن تتلقى فى بيتى رسائل غرام من عشاقك !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى صرخت مذعورة ، ورميته بنظرات مجنونة .

ـ لذلك ..

ـ كفى .. لا أسمح لك بأن تخاطبنى هكذا .. يا رب ، يا رب !

ـ هيه ؟ ماذا ؟ تهددينني ؟

صعقت من هول ما انتابنى من ذعر ويأس . ان هذا المشهد قد بلغ من القسوة حدا لا أستطيع معه أن أفهم ولا أن أعى . فنظرت الى بطرس الكسندروفتش أتوسل اليه بعينىّ أن يسكت . كنت مستعدة لأن أغفر له ظنونه شريطة أن يتوقف عن الكلام . فحدق فىّ وقد لاح فى وجهه تردد ظاهر .

همست مذعورة :

ـ لا تخرجنى عن طورى !

فهتف أخيرا كأنما هو قد عزم أمرا :

ـ كلا ، لن ينتهي الامر هكذا .

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

ـ أعترف لك ان نظرتك كادت تردنى عن ظنونى ، الا ان الاشياء تتحدث من تلقاء نفسها ، وا أسفاه . لقد استطعت أن أقرأ بداية هـذه الرسالة . انها رسالة غرامية . لن تستطيعى أن تحولينى عن اقتناعى هذا. كلا ، انتزعى هذه الفكرة من رأسك . ولئن ترددت دقيقة أو بعض دقيقة فهذا لا يزيد على أن يدل على اننى يجب أن أضيف الى مزاياك الرائعة مزية أخـرى هى القدرة على الكذب فى كثير من البراعة .. لذلك أكرر ..

وكان وجهه وهو يتكلم يزداد نضوحا بالبغض والكره • كان ممتقع اللون ، وكانت شفتاه المرتجفتان تكشران بقوة كبيرة حتى انه لم يستطع أن يلفظ الكلمات الاخيرة الا فى كثير من العناء •

كان الظلام قد خيم ، وكنت اشعر اننى وحدى تحت رحمة هـذا الرجل القادر على اهانة امرأة • ثم ان الدلائل كلها كانت تدينني ، ومع ذلك كنت أتساءل عن غضبه هذا ما مصدره وما سببه ، رغم ان الشـعور بالعار والقلق كان يحطمنى تحطيما • وهرعت كالمجنونة دون أن أجيب على كلامه ، فخرجت من المـكتبة ، ولم يشب الىّ رشـــدى الا على باب الكسندرين ميخائيلوفنا ، فلما هممت أن أدخل عليها سمعت ورائى وقع خطوات الكسندروفتش ، فتســـمرت فى مكانى كأن صاعقة وقعت على رأسى •

تساءلت فى سرعة البرق : « ترى ما الذى سيحدث ؟ ان كل شىء أفضل من هذه الضربة الاخيرة التى قد تتلقاها •• »

وتراجعت بسرعة ، ولكن الأوان كان قد فات، فها هو ذا الى جانبى• همست وأنا أمسك بذراعه :

ـ رحمةً بها • تذهب أين تشاء • لكن لا تدخل الى هنا • أعـود الى المكتبة أو الى أى مكان آخر ، الى أى مكان تشاء • والا قتلتها !

فأجاب وهو يبعدنى عنه :

ـ أنت التى تقتلينها •

وتبدد من قلبى كل رجاء • شعرت ان ما يريده انما هو أن يقص على الكسندرين ميخائيلوفنا كل ما حدث •

فقلت وأنا أصده بكل ما أوتيت من قوة :

ـ حبا بالله ، ارحمها ..

ولكن فى هـذه اللحظة فُتح الباب وظهرت الكسندرين ميخائيلوفنا أمامنا .

نظرتْ الينا فى دهشة ، وكان وجهها ممتقعا أكثر من امتقاعه فى أى وقت مضى ، وكانت لا تكاد تقوى على الوقوف على ساقيها ، وكان واضحا انها وقد سمعت أصواتنا بذلت جهدا كبيرا للتحامل على نفسها .

سألتنا وهى تنظر الينا فى غير قليل من الدهشة :

ـ ماذا هنالك ؟ فيم كنتما تتكلمان ؟

وخيم الصمت بضع لحظات ، وازداد وجهها امتقاعا ، فارتميت عليها وعانقتها وأدخلتها الى مخدعها ، ولحق بى بطرس الكسندروفتش ، ولبثت أعانق الكسندرين ميخائيـلوفنا فى قـوة وعنف وقد أغـرقت وجهى فى صدرها الذى يخفق خفقانا عنيفا .

وسألت الكسندرين ميخائيلوفنا مرة أخرى :

ـ ماذا بك ؟ ماذا بكما كليكما ؟

ـ اسألى الآنسة . لقد دافعتِ عنها أمس .

قال بطرس الكسندروفتش ذلك ثم ارتمى على أحد المقاعد فى ثقل وهدوء ، فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا تقول وقـد لاحت على وجههـا خشية غريبة :

ـ يا الهى ! ماذا وقع ؟ انك مضطرب ، وهى خائفة . انها تبكى . قولى لى يا آنيت ، ماذا كان بينكما ؟

فقال بطرس الكسندروفتش وقد اقترب منى وأمسك بكتفى وأبعدنى عن امرأته :

ـ كلا ، دعينى أتكلم قبلها .

ثم أضاف وهو يضعنى فى وسط الغرفة :

ـ ابقى هنا ، سأحاكمك أمام تلك التى كانت لك أما !

وتوجه الى الكسندرين ميخائيلوفنا فأجلسها على مقعد وهو يقول لها :

ـ وانت ، هدئى روعك ، يؤسفنى اننى لا أستطيع أن أجنّبك شرح هذه المسألة البشعة ، ولكن لا بد من ذلك .

فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى تنقّل نظرتها القلقة الرهيبة بين زوجها وبينى :

ـ رباه ! ماذا هنالك ؟

وأخذت أقلب يدى وأفركهما فى انتظار الدقيقة الرهيبة . ان المرء لا يستطيع أن يأمل من هذا الرجل أى شعور بالرحمة .

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

ـ سأقول لك ذلك بايجاز ، والذى أريده هو أن تحكمى عليها معى . لقد كنت دائما تتحزبين لها وتدافعين عنها ـ لا أدرى لماذا ، فتلك نزوة من نزواتك ـ حتى لقـــد ناقشتينى بالأمس فى شأنها واستبسلت فى الدفاع عنها .. ولا أدرى الآن كيف أشرح لك الأمر . اننى لأحمر خجلا حين أفكر فيه .. الخلاصة انك قد دافعت عنها واغرقتنى باللوم واتهمتنى بقسوة لا محل لها ، حتى لقد ألمعت الى عاطفة أخرى لعلها هى التى تدفعنى الى

هذه القسوة التى لا محل لها • انك •• ولكننى أتساءل لماذا لا أتوصل الى خنق حمرة الخجل هذه التى تصعد الى وجهى حين أفكر فيما ذهبت اليه من افتراضات • لا أدرى لماذا لا أستطيع آن أتكلم عن ذلك بهدوء وصراحة أمامها •• الخلاصة انك ••

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا وقد تملكها الانفعال والحمى والشعور بالخجل وقالت :

ـ كلا لن تفعل ، لن تقول ذلك ، ارحمها ، فما قلته بالأمس كان من بنات خيالى أنا ، أما الآن فلم يبق فى نفسى ظل من شك • اغفر لى تلك الظنون التى راودتنى • نعم اغفرها لى ، اننى مريضة ، ويجب أن يُغفر لى ، ويجب خاصة أن لا يقال لها شىء من ذلك البتة •

ثم قالت وهى تتجه نحوى :

ـ آنيت آنيت ، اذهبى من هنا بسرعة ، لقد أراد أن يمزح ، أنا المذنبة ، وتلك مزحة فى غير محلها •

واستمر بطرس الكسندروفتش يقول دون أن يرحمها ودون أن يهتز لضراعاتها :

ـ الخلاصة : أنك كنت غيورة منها !

فانطلقت من صدرها صرخة وامتقع لونها امتقاعا شديدا وتهالكت ساقاها ، فتهافتت على أحد المقاعد ، ودمدمت أخيرا بصوت لا يكاد يسمع :

ـ سامحك الله ، سامحينى يا نيتوتشكا ، انه ذنبى • اننى مريضة • اننى مريضة ، اننى ••

فصرخت أنا كالمجنونة ، وقد فهمت أخيرا لماذا يريد أن يحكم علىّ أمام امرأته :

ـ هذا ظلم • هذا عار • هذا جبن • هذه حقارة • هـــذه خسة • انك ••

فصرخت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى تأخذ يدى :

ـ آنيت !

فهتف بطرس الكسندروفتش يقول وهو يقترب منا مضطربا اضطرابا لا يوصف :

ـ هذه مهزلة ، لا أكثر ولا أقل !

واستمر يقول وهو يغرز فى امرأته نظرة تفيض كرها وحقدا :

ـ هذه مهزلة ، وموضوع هذه المهزلة أنت ! •• أما نحن (قال ذلك لاهثا وهو يشير الىّ بيده) فنقى اننا لا نخشى شيئا من مثل هـــذا الايضاح • نقى اننا لم نعد من الكمال بحيث نمتعض أو نحمر أو نسد آذاننا حين نتحدث عن أمور من هذا النوع • معذرة ، انى أتكلم بلا لف ولا دوران ، وربما كان كلامى خشنا ولكن لا بد من ذلك • هل أنت واثقة يا سيدتى من طهارة هذه •• البنت !

فغمغمت الكسندرين ميخائيلوفنا كالميتة من شدة الخوف تقول :

ـ رباه ! ماذا بك ؟

فقاطعها بطرس الكسندروفتش يقول بلهجة متوعدة :

ـ لا تستعملى ألفاظا جوفاء • أرجوك • اننى لا أحب ذلك • نحن الآن أمام حادث لا تعقيد فيه ، حادث بسيط جدا ، مبتذل الى آخر حدود الابتذال • اننى أسأل عن سلوكها • هل تعلمين أن ••

ولكننى لم أدعه يتـــابع كلامه ، بل أمسكت بذراعه وجررته بقوة وعنف الى ركن من أركان الغرفة ـ فلو قد انقضت على ذلك ثانية أخرى لأمكن أن يضيع كل شيء ـ وهمست فى حماسة أقول لها :

ـ لا تتكلم عن الرسالة ، والا قتلتها على الفور • ان اتهامى اتهـام لها أيضا • انها لا تستطيع أن تحكم علىّ لأننى أعرف كل شيء •• كل شيء •• هل تسمع ؟

فرمانى بنظرة ثابتة وحشية وأخذ يضـحك ، وكان الدم قد صـعد الى وجهه ، فكررت أقول :

ـ أعلم كل شيء ، كل شيء ••

فظهرت عليه علائم التردد وطاف فى شفتيه سؤال حزوته •

والتفت نحو الكسندرين ميخائيلوفنا بسرعة فرأيتها تنظر الينا قلقة وقد ظهر فى محياها الوجل والخجل • قلت بصوت عال :

ـ أنا وحدى المذنبة • اننى أخدعك منذ أربع سنين ! •• لقد أخذت مفتاح المكتبة وكنت أمضى اليها فى كل يوم منذ أربع سنين آخذ كتبـا ، وقد فاجأنى بطرس الكسندروفتش فوجد بين يدى كتابا ينبغى ألا أقرأه • وهو يخاف علىّ ويتصور الخطر كبيرا !

ثم أردفتُ أقول بحماسة ، وقد لاحظت انه يبتسم :

ـ على اننى لا أحاول أن أبرر ذنبى • أنا وحدى المذنبة • لقد كان الاغراء أقوى منى • فلما وقعت فى هـــذه الخطيئة لم أجرؤ على الاعتراف بها •• هذا كل شيء • نعم هذا كل ما كان بيننا •

ـ أوه ما أبرعك !

همس بطرس الكسندروفتش بذلك في أذني .

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا تصغى الىّ بانتباه عميـــق ، ولكن وجهها كله كان يعبر عن الارتياب فيما أقول . كانت تنقـّــل بصرها بين زوجها وبيني بلا انقطاع . وخيم الصــمت . كنت لا أستطع أن أتنفس الا في كثير من العناء . ومالت الكسندرين ميخائيلوفنا على صدرها وغطت عينيها بيـديها كأنها تريد أن تفكر وأن تزن كل كلمة من الكلمات التي قلتها . ورفعت أخيرا رأسها وحدقت فيّ قائلة :

ـ نيتوتشكا ، صغيرتي ، انني أعلم أنك لا تستطيعين الكذب . هل هذا كل ما حدث ؟ تماما ؟

فأجبت :

ـ نعم . هذا كل ما حدث .

فاتجهت الى زوجها تسأله :

ـ هل هذا كل ما حدث ؟

فغمغم بالرغم منه قائلا :

ـ نعم . هذا كل ما حدث ، كله .

ـ هل تقسمين على ذلك يا نيتوتشكا ؟

فأجبت بلا تردد :

ـ نعم . أقسم .

الا انني لم أستطع أن أحتمـل نظـرة بطـرس الكسندروفتش ولا الابتسامة التي ارتسمت على فمه حين سمعني أقسم ، فاحمر وجهي فجأة .. ولم يخفَ ذلك على المسكينة الكسندرين ميخائيلوفنـا ، فانطبعت على وجهها علائم قلق ساحق فظيع !

وقالت فى حزن :

ـ كفى • أصدقكما • لا أستطيع الا أن أصدقكما •

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

ـ ان الاعتراف كافٍ فيما أرى • هل سمعت ما قالت ؟ فما رأيك اذن ؟

لم تجب الكسندرين ميخائيلوفنا • وكان المشـــهد يزداد قسوة على نفسى •

وصرخ بطرس الكسندروفتش قائلا :

ـ سأفتش غدا جميع الكتب ، لا أدرى ماذا عندنا منها فى المكتبة ، ثم •••

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا سائلة :

ـ أى كتاب كانت تقرأ ؟

فاتجه الىّ يقول ، وهو يبتسم ابتسامة واضحة :

ـ أى كتاب كنت تقرئين ؟ انك أقدر منى على توضيح هذا الامر •

ولم أستطع أن أجيب من شـــدة الانفعال ، واحمرت الكسندرين ميخائيلوفنا وغضت بصرها ، وأعقب ذلك صمت طويل •• فأخـذ بطرس الكسندروفتش يذهب ويجىء فى طول الغرفة وعرضها وقد بدا على وجهه الانزعاج •

وأخيرا قالت الكسندرين ميخائيلوفنا بلهجة خجولة :

ـ اننى أجهل ما حدث بينكما ••

ثم آردفت تقول وهي تحاول أن تشدد على كلماتها وقد أوشكت أن تنفجر بتأثير تلك النظرة الثابتة التي كان يرميها بها زوجها ـ وكانت هي تحاول أن تتحاشاها ـ آردفت تقول :

ـ اذا كان هذا كل ما حدث فانني لا أفهم هـذا الغم الذي يسيطر علينا نحن الثلاثة • ان الذي ينبغي أن يلام انما هـو أنا ، أنا وحدي ، وذلك ما يعذبني • لقد أهملت تربيتها ويجب أن أتحمل تبعة ذلك ، وعلى نيتوتشكا أن تسامحني • أما أنا فلا أشعر أن من حقي أن أحكم عليهـا • وانى لأتساءل مرة أخرى : فيم هذا الغم واليأس ؟ ان الخطر قد انقضى • انظر اليها (قالت ذلك وقد ازدادت حماستها وهي ترمي زوجها بنظـرة فاحصة) أنظر اليها • هل ترك هذا الطيش من أثر فيها ؟ هل تغيرت ابنتي الصغيرة تغيرا كبيرا ؟ هل يمكن أن أجهل ما يشتمل عليه قلبها الطاهر من نبل ، وما يملكه رأسها الصغير من ذكاء ؟ (قالت ذلك وهي تجذبني اليها بحركة ملاطفة) • ان لها روحا صافية كالنهار ، وضـميرا لا يمكن أن يخطىء •• كفى يا عـزيزي ، كفى • لا شـك أنه قد اندس في كربنا المشترك عنصر جـديد • لعل ظلا من عـداوة قد مسنا لحظة ما ، ولكننا سنطرد هذا الظل بالحب وحسن التفاهم • سنطرد جميع شكوكنا • ربما كان هنالك حتى الآن أشياء كثيرة لم نوضحها فيمـا بيننا ، وأنا المسئولة الأولى عن ذلك • أنا المسئولة الأولى لأنني أول من خبأت نفسي عنكمـا ولأنني أول من سمحت لنوع من الشك السخيف بأن ينبت في نفسي ، وهذا كله يرجع الى رأسي البائس المريض • ولكن •• ولكن اذا نحن تصارحنا فلا بد أن تسامحاني ، لأن ما دار في خلدي من ظنون ليس فيه شر كبير على كل حال •

ونظرت مرة أخرى الى زوجها وقد احمر وجهها ، وانتظرت قلقة ما سيجيب به • وكانت ابتسامته تزداد وضوحا أثناء استماعه الى كلامها •

انقطع عن السير وتسمر أمام امرأته وقد عقد ذراعيه وراء ظهره • كان كأنه سرَّ برؤية الاضطراب الذى يراه على وجهها • وزداد اضطرابها أمام هذه النظرة التى يرميها بها • وانتظر قليلا كأنه يريد آن يتيح لها ان تتابع حديثها • فتضاعف اضطراب الكسندرين ميخائيلوفنا • وأخيرا قطع هذا الصمت الثقيل المؤلم وهتف فى ضحكة ساخرة ، مرة ، متطاولة ، يقول :

ـ اننى أرثى لحالك أيتها المرأة البائسة •

ثم كف عن الضحك وتابع كلامه بلهجة وقورة كالحة :

ـ لقد اضطلعت بدور يفوق ما تملكين من قوى • ماذا كنت تريدين من ذلك ؟ كنت تريدين أن تحملينى على الاجابة ، أن تغرقينى بشكوك جديدة ، أو على الأصح بشكوك قديمة لا تستطيع كلماتك آن تخفيها • ان معنى كلماتك هو انه ينبغى أن لا تؤاخذ نيتوتشكا ، لأنها كاملة ، حتى بعد قراءتها كتباً غير أخلاقية ، هذه القـــراءة التى آتت أكلها منذ الآن ، اليس كذلك ؟ ألا أن فى هذا الايضاح شيئا آخر ، ان فيه تلميحا ، فأنت تعتقدين أن ارتيابى وقسوتى ترجعان الى عاطفة أخرى • حتى لقد وصلت بالأمس الى اتهامى • أرجوك ، دعينى أتكلم ، اننى أحب أن أتكلم بلا لف ولا دوران• نعم لقد أردت أن تقولى أمس ان الحب لدى بعض الاشخاص (ومن الملاحظ ان هؤلاء الاشخاص يكونون فى رأيك بوجه عام ، ذوى طبع قاس ، صريح ، رصين ، ذكى ، قوى •• الى آخـــر ما هنالك من صفات أغدقها عليهم كرمك !) •• ان الحب لدى هؤلاء الاشخاص (يعلم الله لماذا لفقت هذا !) لا يمكن أن يعبر عن نفســه الا على نحو خطير ، محموم ، وحشى ، متشكك فى كثير من الاحيـان ، مســتعد للاضطهاد والتعذيب فى كثير من الاحيـــان أيضا • لا أذكر الآن على وجـه الدقة

الكلمات التى استعملتها أمس .. أرجوك ، دعينى أتكلم . انها تستطيع أن تسمع كل شيء ، كل شيء ، اكرر ذلك للمرة المـــائة ، انها تستطيع أن تسمع كل شيء ، انك مخدوعة فى امرها ، ولكننى لا أفهم لماذا يحلو لك ان تحشرينى فى زمرة هذا النوع من الاشخاص ! .. ليس فى سنى يقع المرء فى عشق بنت كهذه ، وصدقينى أخيرا ، يا سيدتى ، اذا قلت لك اننى أعرف واجبى ، ومهما تصدعى رأسى بنبل نفسك فسأظل أكرر لك ماسبق أن قلته ، وهو : ان الجريمة تبقى جريمة ، وان الخطيئة تبقى خطيئـة ، انها تظل حقيرة ، منحطة ، مثيرة للاشمئزاز ، رغم السمو الذى نحب أن نرفع اليه عاطفة الرذيلة . ولكن كفى كفى ، لا أحب أن أسـمع بعـد الآن شيئا عن هذه الحقارات .

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تبكى .

وقالت أخيرا وهى تشهق وتحيطنى بذراعيها :

ـ اننى أقبل أن أتحمل هذا كله وحدى . أتمنى أن تكون ظنونى دنيئة وأن تنظر أنت الى هذه الظنون نظرة احتقـار . ولكن انت أيتهـا البائسة لماذا حكم عليك أن تسمعى هذه الاتهامات المهينة ؟ اننى لا أستطيع أن أحميك . اننى لا أملك حق الكلام ! رباه ! اننى لا أستطيع مع ذلك أن أسكت يا سيدى . ان الامر أقوى منى .. ان ما تقوله جنون ..

فهمست فى أذنها أحاول تهدئتها قائلة :

ـ كفى ، كفى .

كنت أخشى أن يزيد هذا الكلام القاسى الذى وجهته اليه ، أن يزيد غضبه وسخطه ، وكنت أرتعد خوفا عليها !

فاذا هو يهتف قائلا :

ـ ولكن أيتها المرأة العمياء ، أنت اذن لا تعلمين ، أنت اذن لا ترين ..

وتوقف عن متابعة كلامه لحظة ، ثم استأنف كلامه وهو يتجه الىّ وينتزعنى من بين ذراعى امرأته :

ـ اذهبى من هنا . لا أسمح لك بأن تلمسيها . انك تلوثين زوجتى، ان وجودك اهانة لها !

ثم صرخ وهو يضرب الارض بقدمه :

ـ ولكن فيم أحرص على السكوت حين لا يكون بدّ من الكلام ؟ .. سأقول كل شىء ، كل شىء . اننى لا أدرى ، يا آنسة ، ما الذى تعرفينه ، ولا أعلم هذا الامر الذى تظنين انك تهددينني به ، ثم اننى لا أحب أن أعلمه !

ثم التفت الى الكسندرين ميخائيلوفنا متابعا كلامه :

ـ اسمعى ، أقول لك اسمعى ..

فهتفت وقد هرعت أدخل بينها وبينه :

ـ اسكت !

ـ اسمعى !

ـ اسكت باسم ..

فقاطعنى بعنف وهو يرمقنى بنظرة متحدية :

ـ باسم ماذا ؟ باسم ماذا ؟ اسمعى يا سيدتى . لقد انتزعت من بين يديها رسالة من عشيقها ... هذا ما يجرى فى بيتك ، هذا ما تعمله هذه البنت بفضل حمايتك لها ، هذا ما لا ترينه ، ولا تحبين أن تريه !

وترنحت من شدة الذعر • ونظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فاذا هى صفراء كالميتة ••

وقالت لاهثة بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ مستحيل !

ـ لقد رأيت هذه الرسالة ، وأمسكتها بيدى ، وقرأت منها الاسطر الاولى ، ولم يبق بعد ذلك من شك • انها رسالة غرام ولقد انتزعتها من بين يدى ، وهى الآن معها • الامر واضح ، ولا يجوز الشك اطلاقا • وان كنت فى شك من الامر مع ذلك فما عليك الا أن ترى الرسالة ، فتحكمى بنفسك !

فهتفت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى ترتمى نحوى :

ـ نيتوتشكا •• ولكن لا ، اسكتى ، اسكتى • يا الهى ! كيف يمكن أن يكون ذلك ، كيف يمكن أن يحدث ؟ يا الهى !

ودفنت وجهها فى يديها وهى تنشج نشيجا قويا ، ثم استأنفت تقول :

ـ ولكن لا • هذا مستحيل ؛

ثم حدقت فى زوجها قائلة :

ـ أنت مخطىء • لست أفهم ما معنى هذا كله ! انك لم تخدعنى ، أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟ قصى على كل شىء دون أن تخبئى شيئا ؟ لقد أخطأ الرؤية ، أليس كذلك ؟ أليس مخطئا ؟ لقد رأى شيئا آخر ، لقد أخطأ ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ اسمعى ، يا آنيت ، لماذا لا تقولين لى كل شىء ، لى أنا يا عزيزتى الصغيرة ، يا ابنتى الحبيبة !

فتهف بطرس الكسندروفتش من فوق رأسى قائلا :

ـ أجيبي • لمـــاذا لا تجيبين ؟ أجيبي : أرأيت بين يديك رسالة أم لا ؟

فقلت لاهثة :

ـ نعم •

ـ وهذه الرسالة كانت من عشيقك ؟

ـ نعم !

ـ ومازالت صلاتك بهذا العشيق قائمة ؟

ـ نعم ، نعم ، نعم •

قلت ذلك دون أن يعنيني هل أنا أجيب على الأسئلة التي تطرح عليّ ، فقد كان كل همي أن أفرغ من هذا الامر بأقصى سرعة ممكنة •

فقال وهو يأخذ يد زوجته :

ـ هل سمعت قولها ؟ والآن ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ ان قلبك مسرف في النبل مسرف في حسن الظن ! صدقيني ، دعي هذه الافتراضات التي نبتت في دماغك المريض •• انك ترين الآن حقيقة هذه •• البنت•• لقد حرصت على أن أبين لك خطل ظنونك • لاحظت ذلك منذ زمـان طويل • ويسعدني أخيرا أن أنتزع من ذهنك ما علق فيه من رأى حسن فيها • كان يؤلمني أن أراها الى جانبك ، وأن أراك تداعبينها ، وأن تجلس الى مائدتنا ، وأن أحس بوجودها في بيتنا ، كانت عماوتك تثيرني • ولهذا السبب ، لهذا السبب وحده انتبهت اليها ، وراقبتها • ولاحظت أنت ذلك فنسجت حوله ألف شيء وشيء ، الا أن كل شيء قد اتضح الآن ، وأصبح الشك غير جائز •

ثم التفت الى يختم كلامه قائلا :

ـ غدا يا آنسة تخرجين من هذا المنزل !

فنهضت السكندرين ميخائيلوفنا عن مقعدها وقالت :

ـ لا تتعجل • انني لا أصدق كلمة واحدة من هذه القصة كلها • لا تنظر الىّ هذه النظرة الفظيعة ، لا تسخر مني • سأجعلك حكما على رأيي • آنيت ، بنيتي ، تعالى الى جانبي ، ناوليني يدك ، هكذا !

ثم أضافت تقول في صوت غارق في الدموع وهي تنظر الى زوجها في تواضع وذل :

ـ ما من أحد معصوم من الخطيئة • من ذا الذي يستطيع منا أن يرفض يد أحد ! هاتي يدك يا آنيت ، يا ابنتي • انني لست أفضل منك ولا أحسن ، ان وجودك لا يمكن أن يسوءني ، لأنني أنا أيضا خاطئة •

فصرخ بطرس الكسندروفتش دهشا :

ـ سيدتي ، سيدتي ، انك تنسين نفسك ، عودي الى صوابك !

ـ انني لا أنسى نفسي : أرجوك أن لاتقاطعني ، دعني أتم كلامي حتى النهاية • لقد رأيت بين يديها رسالة ، بل لقد قرأت الرسالة • وأنت تزعم ـ وهي تعترف ـ ان هذه الرسالة من عشيقها ! •• انني لا أدافع عن الرذيلة ، ولو أردت أن أفكر ، لفهمت أو لشعرت أن هذه الطفلة ربما كانت بريئة ! •• كلا ، انني لا أحاول أن أغفر الرذيلة ! ها أنا ذا أبرىء نفسي من ذلك لأريحك • نعم ، لو كانت تيوتشكا زوجة ، لو كانت أما نسيت واجباتها ، لوافقتك على رأيك • ها أنت ترى اذن انني لا أستثني نفسي •• انظر الى ذلك بعين الاعتبار بدلا من أن تؤاخذني

وتحنق على • لعلها اذن تلقت هذه الرسالة دون أن تفكر فى سوء • لعل عاطفه مفاجئة قد جرفتها دون ان يكون هنالك من يصدها وياحد بيدها ! •• واذا كان الامر كذلك فانا المذنبة الوحيدة لاننى لم أراقب قلبهـــا • لعل هذه الرسالة هى الاولى ، ولعلك بظنونك الفظة قد دنست العاطفة المقدسة التى تمثلها ، ولعلك بملاحظاتك الشريرة قد دنست تفكير هـذه الطفلة ! •• انك اذن لم تر شيئا من هذا الخفر الذى يشع فى وجههـا الطاهر ! لقد رأيت هذه الصغيرة المسكينة تجيب على أسئلتك كيفما اتفق لها ، لأنها فى اضطراب شديد وارتباك عظيم ، ولأنها لا تريد أن تتخلص من عذاب هذه الاسئلة التى لا محل لها • نعم ، نعم ، ان هـذه الاسـئلة لا محل لها ، انها وحشية ، خالية من العاطفة الانسانية • اننى أسـتنكر تصرفك • لن أغفر لك هذا أبدا !

فصرخت وأنا أعانقها :

ـ نعم ، ارحمينى ، ودافعى عنى ، أتوسل اليك • لا تتركينى •

وسقطت على ركبتيها •

بينما تابعت هى كلامها تقول بصوت مخنوق :

ـ ولولا اننى موجودة ، فلربما كنت أخفتها بكلامك الى حد اقناعها بأنها مجرمة ، لربما كنت خنقت ضميرها وحطمت قلبها •• يا الهى ! كنت تنوى أن تطردها ! ولكن هل تعلم أنك ان طردتها طردتنى معها • نعم ، ان طردتنا كلتينا • هل سمعت ما أقول يا سيدى ؟

كانت عيناها تقدحان شررا ، وكانت تلهث بقوة ، وقد أوشك انفعالها المرضى أن يبلغ درجة التشنج •

فصرخ بطرس الكسندروفتش أخيرا يقول :

ـ يكفى هذا يا سيدتى • لقد سمعت ! كفى ، كفى • اننى أعلم ان هنالك عواطف أفلاطونية ، أعرف ذلك على حساب شقائى ، يا سيدتى ، هل تسمعين ؟ •• نعم على حساب شقائى ، لأننى لست من أولئك الذين يمكن أن يغلف لهم العلقم بالسكر يا سيدتى • لست أحب هذا • لاتذرى الرماد فى العيون ! •• اذا كنت تعتبرين نفسك مجرمة ، اذا كان قد بدا لك أن تتركى البيت •• فما علىّ الا أن أذكرك بأنك أخطأت فى أنك لم تنفذى هذا المشروع فى الوقت المناسب ، منذ ••• نعم ، أستطيع أن أحدد لك اليوم على وجه الدقة ان كنتِ قد نسيته !

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا • كانت عيناها شبه مغمضتين ، وكانت مستندة الىّ وقد خارت قواها من فرط ما جبست ألمها • ما هى الا دقيقة حتى يمكن أن تنهار مغشيا عليها !

فصرخت وأنا أرتمى على ركبتى بطرس الكسندروفتش :

ـ أوه • حباً بالله ، ارحمها ، ارحمها • لا تزد على ما قلت كلمة واحدة !

غير أن الاوان كان قد فات • فها أنا أسمع جواب كلماتى صرخة ضعيفة ، وها هى المرأة البائسة تهوى على الارض !

قلت :

ـ انتهى الامر • قتلتها • ادع الناس • انقذها • سأنتظرك فى حجرة عملك • أريد أن أكلمك • سأقول لك كل شىء !••

ـ كل شىء ؟ عن ماذا ؟

ـ فيما بعد •

ودامت الأزمات العصبية بعـــد الاغماء ساعتين ، واهتز البيت كله وانقلب رأسا على عقب • وهز الطبيب رأسه وقد ظهرت فى وجهه علائم القلق • وبعد ساعتين دخل بطـرس الـكسندروفتش الى حجرة عمله ، لقد ترك زوجته منذ لحظة • كان ممتقع اللون مضطربا ، فأخذ يمشى فى طول الغرفة وعرضها جيئة وذهابا ، ويقرض أظافره بقوة حتىليخرج من أصابعه الدم • لم أره فى حياتى على مثل هذه الحال !

وأخيرا قال بصوت مبحوح خشن :

ـ ماذا تريدين أن تقولى لى ؟

ـ اليك الرسالة التى أردت أن تنتزعها منى • هذه هى ؟

ـ نعم •

ـ خذ •

فأخذ الرسالة وحملها الى النور • راقبته بانتباه شديد • وما هى الا ثوان حتى قلبها على الصفحة الرابعة ليقرأ التوقيع المذيل به •• ورأيت الدم يصعد الى وجهه !

سألنى وقد تجمد من فرط الدهشة :

ـ ما معنى هذا ؟

ـ وجدت هذه الرسالة منذ ثلاث سنين فى أحد الكتب ، ففهمتانها نُسيت فيه ، وقرأتها وحزرت كل شىء • وقد احتفظت بهـا منـذ ذلك الوقت وأنا لا أدرى لمن يجب أن أعطيها • كنت لا أســتطيع أن أردها اليها هى •• أما أنت ، فلم يكن يعقل انك تجهل مضمونها ، أو تجهل شيئا من هذه القصة الحزينة • لماذا كنت تمثل هذه المهزلة ؟ لا أدرى !

.. ان ذلك ما يزال غامضا في ذهني . انني لا أستطيع أن أنفذ الى خفايا نفسك . لعلك أردت أن تبرهن على تفوقك ، أن تسيطر على زوجتك. ولكن لماذا ؟ لكي تظفر على ما يسكن رأسها من أشباح ؟ .. لكي تسيطر على خيالها المريض ؟ .. لكي تبين لها انها متوهمة ، انك بلا خطيئة ، في حين أنها خاطئة ؟! .. ولقد كان لك ما أردت ، لأن ظنونها ما هي الا الفكرة الثابتة التي تستبد بنفس تنوى .. ما هي الا التوجع الاخير يصدر من قلب حطمه الظلم الانساني بحكمه عليه ، وقد شاركت أنت في هذا الحكم الظالم . « انك لا تحبني » ، هذا ما قالته . هذا ما أرادت أن تفهمك اياه . ولكن صلفك واثرتك المستبدة كانا بلا رحمة . وداعا . اعفني من ايضاحاتك . ولكن انتبه ، انني أعرف حق المعرفة ، انني أقرأ حقيقتك في نفسك ، لا تنس هذا !

واتجهت نحو غرفتي ، وأنا لا أكاد أعي ماذا أفعل . وفي اللحظة التي هممت فيها أن أفتح الباب ، استوقفني « أوفروف » ـ سكرتير بطرس الكسندروفتش ـ وهو يقول لي في كثير من الاحترام والتعظيم :

ـ أحب أن أكلمك .

فنظرت اليه دون أن أفهم ما يقول ، ثم أجبته وأنا أمر أمامه :

ـ فيما بعد . اعذرني الآن ، انني مريضة أتألم .

فقال وهو ينحني ويبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ حسنا . الى الغد !